نظرة في كتب اللغة ومفهوم أصحابها عن : دور اللغة في التعبير

قاسم أحمد السامرائي
أستاذ في مركز البحوث
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

لقد أتعب علماء اللغة ــ أية لغة ــ أنفسهم واتعبونا معهم في بحثهم وتقصيهم عن أصل هذه اللغة أو تلك واشتقاقات هذه اللفظة أو تلك، فأخضعوا اللغة لموازين مصطنعة وأحكام مصنوعة، فوزنوا منها ما شاؤا وقطّعوا أوصال ما شاءوا منها وأعادوها لبعضها كما شاءوا فزادونا علما. ثم جاءوا لنا بالكثير من النظريات التي تفتقر إلى نظريات : فابدعوا التأثيل ــ وهو ما يسمى بعلم أصول الألفاظ ــ (etymology) واخترعوا الترسيس: وهو اقتفاء أثر اللفظة إلى رسها الأول وهو ما يسمى عند فقهاء اللغة بال «فيلولوجي» الذي يجمع إلى دراسة اللغات دراسات تشمل الحضارة المتصلة باللغات من التاريخ والتقاليد وما انتجته من أدب أو فن لالقاء ضوء على بدايات اللغة، وقد حفلت اللغات الانسانية جميعها برموز لغوية مشتقة من حركات أو اصوات، ففي العربية مثلا: النشنشة لصوت المقلى والزقزقة والوقوقة والخشخشة والغرغرة والقرقرة والخرخرة والبأبأة والقهقهة والفأفأة وامثالها كثير، وفي الانكليزية والهولندية والالمانية وغيرها من اللغات رموز صوتية وحركية كثيرة وبخاصة في اللغة الكلامية. وحاول آخرون من علماء اللغة اقناعنا بنظريات أخر في اصل اللغات كنظرية الـ «بوبو» وملخصها: إن لغة الانسان بدأت من رد فعل الانسان اللاإرادي للدهشة أو الخوف أو السرور أو الالم أو العطش أو الجوع وما إلى ذلك، وكنظرية الـ «تاتا» وملخصها: إن الانسان بدأ يفسر حركات البدن ويصطنع لكل حركة لفظة... إلى امثال هذه النظريات الموغلة في الاصطناع والخيال.

وزعم العبرانيون أن لغتهم هي اللغة الانسانية الأولى فأخذ هذا بعض المستشرقين وأكد أن العبرانية أم اللغات. واعتقد اليونانيون أن لغتهم ذات شرف ومجد لأنها لغة الحكمة فهي لذلك خلاصة ما وصل إليه العقل البشري. وصارت كل أمة ترى أن لغتها هي أصل اللغات وأنها لغة أهل الجنة وأن ما سواها متروك ومهمل. فالسويدية هي لغة أهل الجنة وأن آدم أول ما تكلم نطق بالدانماركية وأن الأفعى التي اغرت حواء بالمعصية كانت تتكلم الفرنسية، وفي المؤتمر اللغوي الذي انعقد في سنة ١٩٣٤ أصر أحد المشتركين الأتراك على أن التركية هي أصل اللغات ولم يكن هازئا، وفي سنة ١٣٨٢/١٩٦٣ أصدر القادياني محمد أحمد مظهر كتابه: «اللغة العربية أصل جميع اللغات» بالانكليزية في لاهور ومصنف هذا الكتاب لم يكن هو هازئا أيضا. وأخيرا خرج علينا اللغوي العراقي عبد الحق فاضل بنظرية جديدة في أصل اللغات فزعم أن اللغات السامية والأوربية جميعها أخوات خرجت من لغة أم واحدة وموطن هذه الأم: الجزيرة العربية وأطراف الهلال الخصيب، وهو جاد أيضا. أما أحمد سوسة ــ وهو باحث عراقي مشهور في تاريخ الحضارات السامية القديمة ــ فانه يعزز رأيه في كون اللغة العربية أصل جميع اللغات السامية بأراء الكثير من المستشرقين وعلماء اللغة. ويصح مثل هذا على السنسكريتية والهيروغليفية والأشورية والسومرية وغيرها، لأن اللغة عند أصحابها ارتبطت بالقومية مرة وبالدين أخرى وتشريفها يرجع بالتالي إلى القومية أو إلى الدين. فقد روى عاصم ابن عبدالله البلخي عن أبي هريرة أنه قال: «أبغض الكلام إلى الله

الفارسية، وكلام الشياطين الخوزية وكلام أهل النار البخارية وكلام أهل الجنة العربية» وعاصم البلخي هذا متهم بالكذب في هذا الحديث. غير أن أبا حاتم الرازي يؤكد لنا أن: «أفضل ألسنة الأمم كلها أربعة: العربية والعبرانية والسريانية والفارسية لأن الله عز وجل أنزل كتبه على أنبيائه — عليهم السلام — آدم ونوح وابراهيم ومن بعدهم من أنبياء بني اسرائيل بالسريانية والعبرانية وأنزل القرآن على محمد — صلى الله عليه وسلم — بالعربية». وذكر أن المجوس كان لهم نبي وكتاب وأن كتابه كان بالفارسية (يعني: الفهلوية) ثم ختم كلامه بقوله: «وقلنا: إن أفضل اللغات الأربع لغة العرب».

واختلف اللغويون المسلمون في الماضي والحاضر كاختلاف غيرهم من فقهاء اللغة عند الأمم الأخرى في أصل اللغة فان إعجابهم العميق بلغة التنزيل قادتهم إلى مسألة الاعجاز وهذه أخذت بهم إلى القول بالتوقيف ثم أنهم اختلفوا في مسألة التوقيف في اللغة وفي الخط وفي أول من وضع الخط على لفظه ومنطقه. وقد تنبه ابن فارس إلى كثرة الروايات فقال: «ولعل ظانا يظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد». أما ابن جنى فيرى أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، ثم يسرد رأي من يقول: إن أصل اللغات إنما هو من الأصوات المسموعة كدوي الريح وخرير الماء وشحيح الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونحو ذلك» ثم ولدت اللغات بعد ذلك. غير أنه قال بعد ذلك: «إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك عليّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر.. فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه وأنها وحي». ولما كانت العربية لغة التنزيل ولغة الحديث الشريف اهتم اللغويون والنحويون بها فبدأت عملية احصاء العربية فبرز أول معجم لها هو كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) «وبذلك هيأ مادة مصنفة معروفة لمن جاء بعده من اللغويين الذين صنفوا معجمات». وكان لابد لمن يريد تفسير القرآن الكريم أو فهم الفاظ الحديث الشريف من ثروة لغوية فبدأت الرحلات إلى البوادي أو استجلاب الاعراب إلى الحواضر بعد أن اختلط العرب بالأمم الأخرى في البلدان المفتوحة وبعد أن شابت فصاحتهم العجمة. وقد تشدد علماء اللغة في الأخذ والرواية على نحو ما تشدد المحدثون في رواية الحديث النبوي الشريف فكانوا لا يقبلون رواية الشعر من صحيفة ولا من مصنف مكتوب بل لابد أن تكون الرواية بالأخذ من عالم ثبت في الرواية وفي اللغة وصاروا يعنون عناية بالغة بالاسناد على نحو ما عني المحدثون باسناد الحديث. وأرى أن تشددهم هنا هو ما أشار اليه الفارابي في كتابه «الألفاظ والحروف» حيث يقول: «والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم أقتدي وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فان هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر قبائلهم». ثم يستطرد في ذكر القبائل التي استبعد اللغويون الأخذ عنها لمخالطتهم القبط أو النصارى أو اليونان أو الهند والحبشة بعامل الجوار أو التجارة ومن ثم لفساد ألسنتهم. ويروي لنا الحافظ الأزدي (ت ٤٠٩هـ) عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: «استعمل الحجاج أبي على بعض أعماله فنقم عليه فخرج أبي إلى بادية قومه فتوارى بها وأنا معه فبينا نحن في سحر من الأسحار إذ أقبل راكب يقول :

ربما تجزع النفوس من الامـ......ر له فَرْجَةٌ كحل العقال

قال : قلت ، وما ذاك ؟ قال: مات الحجاج. فوالله ما أدري بايهما كنت أشد فرحا: بقوله مات الحجاج أو بقوله: فرجة (بفتح وسكون وفتح)»[٢]. ويروى عن أبي عمرو بن العلاء هذا أن كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء كانت قد ملأت بيتا له إلى قريب السقف[٣]. ومثل هذه الروايات تروى عن كثير من اللغويين والنحاة حوتها كتب الأدب والتراجم[٤]. فانهم عمدوا إلى لغة أهل البوادي وعدوها اللغة الفصيحة بعد أن اختاروا منهم قبائلهم التي سلمت ألسنتها من الفساد[٥] فاعتمدوها مقياسا للفصاحة وميزانا للخطأ واللحن. لذلك لم تكن حاجة العرب شديدة إلى المعاجم اللغوية إلا في أواخر العصر الأموي وأوائل

العصر العباسي وبعد أن فرغ اللغويون من جمع مفرداتها وتنسيقها وبعد أن شاعت العجمة وفشا اللحن مع أن الوهن واللحن قد سَرَيا قبل ذلك بزمن طويل بحيث لم تسلم للعربي سليقته التي كانت تعصم لسانه من الزلل. وقد حدثنا مصنفو كتب الأدب واللغة والتراجم عن مساوىء اللحن وأوردوا لنا حكايات كثيرة في ذلك[٦].

لقد قضى القرآن الكريم على الكثير من آثار اللهجات القبلية لأنه أنزل بلغة قريش[٧] إلا أننا نجد بعض اللغويين من ذهب إلى أن المراد بالأحرف السبعة التي وردت في الحديث النبوي المشهور: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ... إلى آخره» هي لغات قريش وهذيل وتميم وازد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر[٨]. وذهب آخرون إلى أن المراد بها لغات قبائل مضر خاصة[٩]. وقد حفلت المعاجم اللغوية بالكثير من آثار اللهجات القبلية ومثلها كتب القراءات وكتب الشواذ لأن من جمع اللغة لم يجمعها من قريش وحدها، ولو كان الأمر كذلك لما تعددت المعاني ــ وربما تباينت ــ للفظ معين لأن اهتمام اللغويين كان منصبًا على تتبع الألفاظ دون ظلالها المعنوية التي تبرز في مواضع اللفظة من الكلام. ولا أعني بقولي هذا اختلاف الألفاظ في حروفها كـ «عتى» بمعنى «حتى» ولا كـ «الشيرة» بمعنى «الشجرة» التي جاءت بها كتب الشواذ في القراءات وإنما أعني تعدد المعنى للفظ واحد مثل: كنع فقد جاء معناه : «كمنع انقبض وانضم والأمر قرب وفيه طمع والمسك بالثوب لزق به وفلان خضع ولان والنجم مال للغروب، وعن الأمر هرب وجبن واصابعه ضربها فأيبسها وبالله تعالى حلف، والعقاب ضمت جناحيها للانقضاض، وكفرح: يبس وتشنج ولزم وصرع على حنكه...». ولعل تعدد موازين الصرف للفظ واحد هو من آثار الظلال اللغوية لهذا اللفظ عند القبائل المختلفة اذ قد يُقرأ فعلٌ ما على وزن نصر وضرب ومنه مثل: نبغ، وقد يُقرأ فِعلٌ آخر على وزن جعل وسمع وكتب مثل: نهب. وأعني بالظلال اللغوية: المعاني المتداعية في ذهن القارىء أو السامع أو الناظر حين تصل الألفاظ إلى الذهن وهذه المعاني تتحكم فيها التجارب الانسانية ككل والتجارب الفردية في مجتمع أو أمة لأن «عملية الكلام تتكون من جانبين عضوي ونفسي، وحركة الكلام تبدأ من الرباط النفسي أو العقلي الذي سبق الاتفاق عليه في عقول المتكلمين بين دلالة معينة ومجموعة من الأصوات ترمز إليها». وهذه الألفاظ ــ مكتوبة أو مسموعة ــ «باعتبارها قيما رمزية تستحضر ولو على وجه التقريب، في ذهنهم أفكارا معينة»[١٠]. وهو ما يسمى بالرمز والمدلول أو اللفظ ومعناه، غير أن هذا المعنى لا يقف وحده في الدلالة بل أنه يستدعي في الذهن دلالات أخر متصلة باللفظة حين تستعمل هذه اللفظة مع غيرها من الألفاظ، وقد تقوى بعض هذه الدلالات في ذهن السامع أو القارىء على حساب الأخرى إذا وردت اللفظة ذاتها في سياق آخر، مثل قولنا: بيست يده، يداك أوكتا، يد الموت، يد الحدثان، يد سوداء، اتخذت عنده يدا، جزيته يدا بيد، عن ظهر يد، فدلالة اليد واحدة إلا أن هذه الدلالة تلونت بظلال الألفاظ الأخرى التي اقترنت بها. وهذا ليس حدثا جديدا ادّعيه فقد تنبّه إليه علماء اللغة العربية وادرجوه في مصنفاتهم وبيّنوه في اختلاف صيغ المصادر من الكلمة الواحدة اذا اختلفت معانيها وفي الكلمات المتقاربة اللفظ والمختلفة المعنى، وغير ذلك مما أورده الأستاذ الفاضل محمد محمد حسين (رحمه الله) في مقاله النفيس «فقه اللغة بين الأصالة والتغريب».* ويدخل في هذا الباب أيضا ما اتفق لفظه واختلف معناه والأشباه والنظائر والترادف وما إلى ذلك. وكما أن اتحاد الرمز ــ وهو اللفظ ــ بالمدلول ــ وهو المعنى ــ لا ينتج علاقة معنى بدون توفر الادراك لذلك كانت الدلالة هي المعنى المدرك بين الرمز والمدلول، فان قولنا: سيف، مثلا لا يدل على الآلة المعروفة في ذهن السامع او القارىء ما لم يكن القارىء أو السامع قد رأى فعلا أو تَخيّل حقيقة صورة السيف والصور التي تبعتها هذه الكلمة في ادراكه، ثم أن أي تبديل قد يطرأ على معنى من معاني اللفظ يكتسب معه معنى جديدا وظلالا لغوية جديدة.

*) انظر : فقه اللغة بين الاصالة والتغريب لمحمد حسين، مجلة كلية اللغة العربية (جامعة الامام محمد بن سعود، ١٤٠١) ١١/٢٣٠.

إن اللغة العربية لم تختص بهذا دون غيرها من لغات الأمم اطلاقا، وهي كأية لغة أخذت واعطت ورفضت واكتسبت وأصابها الوهن حينا وتجدد شبابها أحيانا كثارا وان قوتها وضعفها منوطان بقوة وضعف أهلها، والضعف ينالها من زهد أبنائها في العلوم والتجانف عن دراسة آدابها بتحر وولع[١١]. والعربية لم تمت كما ماتت اللاتينية والاكدية والحميرية وغيرها من اللغات لأن حياة كل لغة هي حياة أصحابها وإن نماء أية لغة معلق بنماء أهلها الفكري بصوره المختلفة. ولعل أطرف ما في العربية هو ديمومتها عبر القرون، ومرد ذلك إلى أن القرآن الكريم نزل بها والحديث الشريف كتب بها. وأن صفة الديمومية اختصت بالعربية دون سواها من اللغات التي نسمع بها أو تلك التي تتكلم بها شعوب الأرض فقد طرأ على أكثر هذه اللغات تطور غريب كادت تفقد أصولها الأولى، فان الانكليزية اليوم هي غيرها في عصر جوسر مثلا والهولندية الآن هي غير الهولندية قبل عشرين سنة فقط ويصح هذا على كثير من اللغات الأخر حيث طرأ عليها تغيير في أصولها الكتابية والنطقية وفي اكتسابها وفقدانها ظلالا معنوية.

اللغة ابنة البيئة الوفية وهي مع هذا تحيا منفردة ولا يتحقق لها هذا الوجود إلا عن طريق الكلام أو الكتابة أو الرمز الاشاري (كلغة الصم والبكم ولغة الاشارات والاعلام والدخان عند الهنود الحمر واشارات مورس مثلا) واستعمالها يكون بقصد نقل جملة من الأفكار من فرد إلى آخر أو إلى آخرين وان نماء هذه اللغة في ظلالها المعنوية منوط بنماء البيئة العقلي أو الثقافي الشامل لكل المناشط الفكرية وهذا النماء معلق بالحاجة إلى التعبير وعلى مدى هذه الحاجة تنمو اللغة وتتسع وتزداد ثروتها وتكثر مفرداتها فيحسن التعبير بها. والبيئة بعد هذا تلّون اللغة وتخضعها لظواهرها الطبيعية والعرقية والعرفية بل حتى الحرفيّة والطبقية فلغة الفقيه تختلف في دلالات الفاظها عن لغة الطبيب أو الجزار ولغة استاذ العربية هي غير لغة استاذ القانون وقد ساعدت وسائل الاعلام من المذياع والجرائد على تضييق الهوة العميقة بين مختلف الطبقات اللغوية في البلدان العربية في الأقل إلا أن غلبة العامية المحلية لم تزل لها اليد الطولى في المخاطبة اليومية وفي التدريس الجامعي لضعف الأساتذة المشين (*).

للبيئة دور كبير في تلوين اللغة وفي إثرائها بالفاظ معينة منتزعة من ظواهرها الطبيعية أو الحضارية فالفاظ الجو وتقلباته وأنواع المطر والثلج في لغات شمال أوربا تفتقر إليها لغات البيئة الحارة. وأن ما تحويه الفاظ البيئة الحارة لا نجد له أثراً في لغات البيئة الباردة إلا إذا كان اللفظ مستعارا كلفظة السموم مثلا وامطار الموسم «simoom - (n), mansoon» أو ألفاظ حضارية كالسكر والموسلين والقهوة وما إلى ذلك. والعرف بالمعنى العام هو ما تعارف عليه الناس وألفوه في بلد أو قطر أو أمة من عادات تختلف عن أمة إلى أمة ومن قطر إلى قطر فقولنا: «أبرد الله مضجعه» مثلا أو «أقر الله عينك» يصح عرفيا وبيئيا في بلد حار تلفحه الشمس بشواظها كل يوم من العام. أو قولنا: «سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا» يصح في بلد يعز فيه الماء. ومع أن في الدعاء: «أبرد الله مضجعه» إشارة واضحة إلى استجلاب المغفرة والعياذ من النار فاننا لو قلنا ذلك في بلد بارد لكان نشازا غير مستملح حتى ولو كان المتوفى مسلما. ومثله قولنا: «جاءتني أخبارك السارة فابردت جوانحي واثلجت صدري» والهولندي والانكليزي وغيرهما من سكان البلاد الباردة يقول النقيض تماما.

إن القوة التعبيرية لأية لفظة وفي أية لغة لا تتأتى من معناها منفردة بل من دافعها الصوتي في الأذن عند الكلام أو من ايحائها النفسي عند القراءة وإن قوة هذا الدافع أو الايحاء يعتمد على قوة دلالة اللفظة فيما تعود عليه السامع أو القارىء من دلالات مختزنة في ذاكرته الباطنة ومع هذا فان الدلالات المعنوية لأية لفظة تبدو مشوهة الظلال إذا استعملت اللفظة منفردة ومعزولة عن غيرها. وما آلة التعريف في اللغات إلا وسيلة واحدة من الوسائل لحصر الظلال المعنوية، فان قولنا: طريق، هو أبهم ظلالا من قولنا: الطريق والاضافة أيضا احدى هذه الوسائل مثل: طريق، طريقنا، طريق القرية، طريق السوق، رأس، رأسي، رأس

(*) انظر ما قاله الأستاذ محمد محمد حسين في مقاله «فقه اللغة ...»، صفحة ٢٠٣ وما بعدها.

الشاعر وما إلى ذلك. فاذا استجمع المتكلم واضح الظلال المعنوية في كلامه سمي فصيحا وبليغا ولهذا أشار الرشيد في تعريفه البلاغة حين قال: «البلاغة التقرب من معنى البغية والتباعد من حشو الكلام، ودلالة بالقليل على الكثير»(١٢).

إن لكل لغة مظاهر ثلاثة: المظهر الفكري والمظهر الكلامي ثم المظهر الكتابي، والفكر سبق الكلام والكلام سبق الكتابة ولذلك قيل: العلوم مطالعها قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصور، ويتم البيان تبعا لخزانة الفاظه، وإن ثراء هذه الخزانة موكول إلى قابليته الاستيعابية سواء كان ذلك تقليدا أو تلقينا لما رأى أو سمع أو قرأ ــ ثم يأتي دور مشاعره التي تتحكم في اختيار هذه اللفظة أو تلك أو هذا التعبير أو ذاك تبعا لشدة مشاعره أو هدوء أحاسيسه، ولو أردنا منه أن يكتب ما يقول لاصطنع لغة أخرى وألفاظا جديدة. وتتبدل لغة الكلام تبعا لمن يخاطب وهذا التبدل منوط بسيطرة مشاعره وأحاسيسه حبا كان أو كرها، احتراما أو نفاقا ــ وهو في كل ذلك يحسب للسامع حسابا يستلهمه ثم يتكلف اللغة ويختار الفاظه حين المخاطبة. وهنا يجب أن يتوافر التوازن في الارسال اللغوي والاستقبال المدرك وهذا يعني وجود التوافق في المدركات الحسية بين السامع والمتحدث والا كان سحبان البلاغة باقليا وإلى هذا أشار أبو تمام حين قيل له: لم لا تقول ما يفهم؟ فقال: ولم لا تفهم ما يقال؟ واللغة المكتوبة بعد كل هذا ــ نثرا كانت أو شعرا ــ وبشتى ضروبها لا تختلف عن لغة الخطاب إلا في حال اختفاء المظهر الكلامي، أما سيطرة المشاعر عليها فلا تتغير، والألفاظ لا تتغير إلا في مدى الاختيار، ثم إن الاختيار هنا يعتمد كليا على الهدف الذي يسعى الكاتب إلى بيانه ونقله إلى ذهن القارىء. ويتلون هذا البيان نتيجة لعوامل ودوافع خارجية كالاتجاه السياسي أو الديني أو الاقتصادي أو القومي ومن ثم مشاعر الكاتب الخاصة وميله النفسي من خوف أو رجاء أو استجداء أو اثارة أو محاولة اقناع وما إلى ذلك من الميول الانسانية المرتبطة بعقيدة الكاتب ورأيه وما استحب أو كره.

إن الانسان على اختلاف ضروب لغاته لا يتكلم أو يكتب لغة بل رموزا لفظية اصطلحت عليها مجموعة من البشر لتنقل من خلالها افكارا هي في الحقيقة أوسع من الألفاظ ذاتها وهذه الأفكار تتلون بألوان البيئة وبنوعية العقلية لهذه المجموعة البشرية أو تلك ويتضح هذا التلون في مجال ترجمة هذه الأفكار من لغة انسانية إلى أخرى فما بالك بلغة القرآن الآلهية؟ فاذا ترجمت الفاظ القرآن الآلهية إلى أية لغة إنسانية أصبح شيئا آخر. والشعر في أية لغة يفقد أكثر ما عناه الشاعر إذا نقل من لغة إلى أخرى لأن الظلال اللغوية الملتصقة بالفاظ أية لغة هي غيرها في اللغة الأخرى. وإن النقل من لغة إلى أخرى يذهب بأكثر فصاحة اللغة المنقول منها(١٣).

إن الخيير من البشر الذي يستخدم اللغة وسيلة للتعبير ــ شعرا أو نثرا ــ هو ذلك الذي يستجمع عنده أوضح الظلال اللغوية للألفاظ فينسج منها أو قل: فيرسم بها خطبته أو قصيدته أو حكايته أو موعظته أو تحذيره وانذاره، وعلى مدى وضوح هذه الظلال وجلائها تكون أصالته ويتميز أسلوبه عن غيره لأن أسلوب الكاتب أو الشاعر إنما سمي أسلوبا لأن صاحبه استطاع أن يستلب من نفسه كوامن سرها واستطاع أن ينشر هذه الكوامن في اختياره الفاظا ذات ظلال ودلالات لغوية واضحة ومؤثرة في نفس السامع أو القارىء ولهذا اختص فلان بأسلوب يختلف عن أسلوب فلان وهذا القرن اختص باسلوب يختلف عن أسلوب القرن الذي سبقه أو الذي تلاه واللغة واحدة بيد أن الظلال اللغوية مختلفة. ولكل عصر لغة تميزت فيه بعض الألفاظ بظلال لغوية معينة تطلبها هذا العصر أو ذاك تبعا لحاجته. «فان الناظر في الأدب العباسي والأدب الأندلسي يدرك أن كلمات وأساليب قد استحدثت للتعبير عن الجديد في الحياة، وأن صورا وأخيلة قد ابتكرت تصور الحضارات الحديثة والانماط الطارئة.* ومثل هذا واضح في ما وصل إلينا من الوثائق الأصيلة للعصور الاسلامية المختلفة وفي كتب ادارة الدولة كرسوم دار الخلافة للصابي وكتب أنظمة الدواوين التي وصل إلينا قدر صالح منها،

*) قال ابن خلدون: «فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الأندلس معهما وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والابانة عما في نفسه». المقدمة ٢٣٧ وانظر: فقه اللغة بين الاصالة والتغريب لمحمد محمد حسين، مجلة كلية اللغة العربية، العدد ١١، ١٤٠١ صفحة ٢٢٠.

فضلا عن كتب الأدب العام والتاريخ مما يثبت للمتأمل أن قصور اللغة ليس كامنا في اللغة نفسها بل في أبنائها ومقدرتهم على استيعاب الظلال اللغوية للألفاظ. وإلى هذا أشار محمد كرد علي ـــ رحمه الله ـــ فقال : «إنه لا عيب في اللغة بل العيب في الدارسين لتخلفهم عن اعطائها استحقاقها من التعهد»[١٤]. ولكي نرى مدى وعمق هذا التعهد، أسوق اليك مثالا طريفا من كتاب « اللغة العربية ومشاكل* الكتابة » للبشير بن سلامة التونسي الذي تساءل في كتابه عن حظ لغته هو من التقدم الفكري وقدرتها على تحمل رسالة التقدم، بينا اللغة عنده: «لم تحتضن روح العصر ولم تتجاوب في كلماتها وعباراتها مع اهتمامات ومشاغل أهل العصر ولم يفجر منها أصحابها المعاني والآراء التي تهزّ وتقلقل الفكر العصري»، فقال في حديثه على مجلة «الفكر» :« لأنها أتاحت لي لا فقط (؟) أن أنظر إلى مشاكل (؟) لغتنا أي اللغة العربية نظرة مجردة كتبية (؟) بل خولت لي (؟) هذه المجلة المكافحة بحكم التجربة اليومية والعمل الجدي المادي (؟) أن أمارس لغة الضاد في ديارنا وأبلوها وأكثر من ذلك (؟) أن أعاشر الناطقين بها والخالقين بواسطتها (ماذا؟) والمعالجين لها والضائقين بها والمصروفين أو المتصرفين عنها والعاجزين بها عنها»[١٥].

وهذا هراء اعجمي أقرب إلى النص المترجم من الفرنسية منه بالعربية لأن صاحبه كان يفكر بالفرنسية ويكتب بالعربية فاشتبكت عنده الظلال اللغوية اشباكا فظا فانتج هذا الهراء اللغوي. ورحم الله ابن الزملكاني المتوفى في سنة ٦٥١ هـ الذي رأى: «أن الفصاحة من عوارض الألفاظ مع ملاءمة المعنى، والبلاغة من عوارض المعاني وهي تكميل المعنى باللفظ الذي يفهمه... فان اللفظ إذا كمل معناه أوصله إلى القلب»[١٦]. فقد أراد ابن الزملكاني أن يقول: إن البلاغة تعني الوضوح في إبانة الكاتب أو المتكلم عن قصده في اختياره الألفاظ الواضحة في ظلالها اللغوية التي تحمل المعنى المقصود. ويشبه ذاك ما رواه ياقوت فقال: «دخل الفيروزان المجوسي على الصاحب بن عباد في شيء خاطبه به فقال الصاحب: إنما أنت مخشّ مجشّ مخشّ لا تهش ولا تبشّ ولا تمشّ. فقال الفيروزان: برئت من النار إن كنت أدرى ما تقول، إذا كان رأيك أن تشتمني فقل ما شئت بعد أن أعلم... لست من الزنج ولا من البربر، كلمنا على العادة التي عليها العمل، والله ما هذا من لغة آبائك الفرس ولا من أهل دينك من أهل السواد»[١٧].

إن اللغة وسيلة فهم بين فريقين، فاذا عجز المتلقي عن فهم المتكلم اصبحت اللغة «لغة النوكي وتكلّف البطالين» كما يقول الماوردي الذي يستطرد قائلا: «وقد يكون السبب المانع من فهم السامع (وأضيف : والقارىء) لعلة في المعنى المستودع، فلا يخلو أن يكون مستقلا بنفسه أو يكون مقدمة لغيره أو يكون نتيجة من غيره، [وكلها]** تحتاج إلى زيادة تأمل وفضل معاناة، وباستعمال الفكر يكون الارتياض به وبالارتياض به يسهل منها ما استصعب ويقرب منها ما بعد فان للرياضة جراءة وللدراية تأثيرا»[١٨]وعلى قدر التقارب ومداه بين الفريقين يتأكد الأنس، وعلى مدى تأكد الأنس تكون الألفة، واللغة بعد هذا الفة واعتياد وتعود. إذ ليس بغريب أن يقول قائل لأبي تمام: لم لا تقول ما يفهم؟ فيرد عليه أبو تمام : ولم لا تفهم ما يقال؟ فان أبا تمام لم يقل ما لم يفهم بل قال ما لم يفهمه ذلك السامع نفسه لعلة في استعداده وقابليته اللغوية أو لضعف رصيده اللغوي ونزارة رياضته ودرايته باللغة التي ارتاض بها ابو تمام قريحته او لبلادته وقلة فطنته[١٩]. ولذلك رأى ابن خلدون: «أن اللغات كلها شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وانما بالنظر إلى التراكيب. فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم الغاية من افادة مقصوده للسامع[٢٠]. إذا كان السامع في مستوى المتكلم اللغوي في الأقل وثقافته والا لاقى مصير ابن النحاس المصري.

اللفظ والمعنى :

لقد تناقضت الآراء وتشعبت في الألفاظ ومعانيها عند الأدباء

* الصواب مشكلات ** الإضافة من عندي

واللغويين والنحويين وأهل البلاغة والمنطق والفلسفة وأهل التصوف والكلام، فما تكاد «تفتح كتابا في النقد ابتداء من القرن الثالث (للهجرة) إلا وتجد الحديث عنها متفرقا في جنباته أو مجموعا في فصل من فصوله... فمن مهتم بشأن المعنى، ومن مهتم بشأن اللفظ»(٢١) أو بكليهما معا. وقد كفانا تكرار ما قاله النقاد والبلاغيون صديقنا الدكتور عبدالله عسيلان في مقالته: «قضية اللفظ والمعنى بين النقاد والبلاغيين»(٢٢) التي احسن فيها وأجاد. ومثل هذا يصح على الأصوليين والمناطقة وغيرهم.

ولم يقتصر الخلاف حول الألفاظ ومعانيها بل تناول هذا الخلاف مباني الألفاظ ومعاني حركات الإعراب وعلاقتها بالمعاني ودلالتها عليها . ولعل الخليل بن أحمد كان أول من تنبه إلى دلالة حركات الأعراب فقال: «إن الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحرف ليتوصل إلى التكلم به، والبناء هو الساكن لا زيادة فيه»(٢٣). ويفسر قطرب ــ تلميذ سيبويه ــ قول الخليل هذا فيقول : «ان حركات الاعراب ليست لها بالمعنى علاقة مفهومة فلا مدلول لها ولا معنى»(٢٤). ورأى غيرهما أن الحركات دالة على المعاني من فاعلية ومفعولية واضافية(٢٥). وأدلى المعاصرون دلاءهم في قليب خلاف الأوائل فلم يمتحوا جديدا وكنّا نود أنهم فعلوا فذهب أحدهم إلى : «أن تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل في الكلام شعرا ونثرا» وأن الحركات عند هذا : «لاتعدو أن تكون في كثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض»(٢٦). وذهب آخر منهم إلى: «إن العلامة الاعرابية لا تعدو أن تكون واحدة من القرائن الدالة على المعنى ... على أن الحركة الاعرابية قد أهدرت عند أمن اللبس في القرآن الكريم والتراث، وحين أهدرت كانت هناك قرائن أخرى تحافظ على المعنى»(٢٧) حين كانت السليقة سليمة. ان الأوائل عدّوا حركات الاعراب ظواهر تلحق الحروف بمعنى أنها ليست من حروف اللفظة الأصلية ولهذا استبعد قطرب علاقتها بالمعنى أو دلالتها عليه (*). أما من رأى أنها دالة على المعاني من فاعلية ومفعولية واضافية، فانه نظر إلى مسألة العامل وهو المؤثّر الذي يغيّر أواخر الكلمات لاختلاف العوامل الداخلية عليها لفظا أو تقديرا، بيد أن الثابت عمليا: أن الحركات في اللغة العربية كما هي في أية لغة أخرى تلحق حروف كل لفظة أصلا حتى يستقيم نطق اللفظة على الصحة لتأدية المعنى المقصود مثل: حَمَلَ وحُمِل وحَمَّل . وهي بعد هذا تلحق نهاية اللفظة بضم أو كسر أو فتح أو سكون، وهي الحركات التي اختلف الأوائل في علاقتها بمعنى اللفظ، وذلك لأنهم نظروا إلى اللفظة المجردة حين كانت منتزعة من موقعها في الكلام، عارية من الحركات الاعرابية التي يفرضها قصد الافهام الواقع بين متكلم ومستمع أو كاتب وقارىء بلغة اعتادوها، ولأن لغة التخاطب سبقت تقعيد القواعد واستنباط مصطلحاتها وهي بعد ذلك جاءت ومعها القواعد والحركات، «وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا ومعنى مفهوما، فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب»(٢٨)، كانت الحركات بالضرورة اللغوية جزءا من اللفظة وتابعا لها حين تقع اللفظة في موقع معيّن من الكلام، فان قولنا: هَرَبَ مِنّي بَعيرٌ (بتنوين الراء) هو غير : هَرَبَ مِنّي البَعِيرُ في الاستعمال الفطري للغة. فان الظلال المعنوية التي يستحضرها لفظ «بعيرٌ» الذي استنبطوا له مصطلح «نكرة» هي غير الظلال اللغوية التي يستدعيها لفظ «البعير» ــ «المعرفة» مع أن هناك ظلالاً مشتركة في الحالين. ومع هذا فان عملية «الكلام تتكون من جانبين: عضوي ونفسي، وحركة الكلام تبدأ من الرباط النفسي أو العقلي الذي سبق الاتفاق عليه في عقول المتكلمين بين دلالة معينة ومجموعة من الأصوات ترمز إليها. وحتى تصبح هذه الأصوات ذات معنى فانها يجب أن توضع في شكل تتابعي محدد معين»(٢٩) مكونة من كلمات أو مجموعة منها والتي سبق وأن اتفق على مدلولات ألفاظها ومعانيها التقريبية مجموعة من البشر، وقد شمل هذا الاتفاق أيضا ما سمي بعد ذلك بـ «الحركات الاعرابية» في اللغة العربية وما هو نظير لها في كافة اللغات الانسانية الحية أو المندثرة، كما شمل أيضا الحركات التي تتحكم في نطق الألفاظ.

*) إن بعض العلماء كان يرى اعجام الحروف دخيلا على الكتابة فكانوا يتحرجون من استعماله في المصاحف على وجه الخصوص. ومثله استقباح كتاب الدواوين النقط والأشكال. «ورأوه من تقصير الكاتب أو سوء ظنه بفهم المكاتب»، الماوردي : أدب الدنيا والدين، ٣٠.

قال أحد الفلاسفة وقد رأى عزوف الناس عن الفلسفة ووصمها بكل نقيصة: «لقد نشأت اللغة قبل نشوء الفلسفة - وهذا هو مصدر الخطأ في الفلسفة»[٣٠] وهو بقوله هذا يشير إلى أن الأفكار الانسانية أوسع بكثير من قوالب اللغة التي تضيق جدا عن التعبير الشامل والافصاح الكامل عن الأفكار المختلجة في النفس الانسانية ولهذا عرا لغة الفلسفة غموض بغيض، وكان هذا الغموض سبب عزوف الناس عنها، بيد أن هذا الفيلسوف لم يقل إن اللغة الانسانية إنما هي: «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»، فيما يعقلون وأهل الفلسفة والتصوف يعبرون بلغة المعقول عن غير المعقول، والانسان بطبيعته يكره ما يجهل وناهيك عما لا يعقل. لأن هؤلاء صرفوا اللغة الانسانية عن مدلولاتها المألوفة وذلك باثقالها بظلال معنوية متراكمة لا تقوى اللغة على استيعابها فبهمت مدلولاتها إلا على من عاناها وارتضاها منهم فأصبحت ذاتها لغة خاصة أخرى وتواضعوا على مدلولات ألفاظها ومعانيها. وكما تواضع المتكلمون على الألفاظ الدالة على الجوهر والعرض والكون والفساد والليسية وغيرها[٣١] تواضع غيرهم على ألفاظ لزقت بصناعتهم بعد امتحان سواها.[٣٢] ومثل هذا كثير حوته بطون اسفار الفرق والنحل وأصحاب الفلسفة والكلام وما إلى ذلك، فكان على الدارس أن يتلمس خطاه عبر التفاسير المصنفة في معاني الاصطلاحات المختلفة أولا حتى يسبر المعنى المقصود في ألفاظ هذه الفرقة أو تلك النحلة. وهذا يذكرنا باحدى نظريات نشوء اللغات وهي نظرية «التواضع والاتفاق»[٣٣] بيد أن التواضع على الألفاظ لا أراه يتعارض مع نظرية «التوقيف» التي فسرها القائلون بها بمعنى «الوحي والالهام» وفسرها ابن جني على معنى: «إن الله أقدر البشر على وضع اللغة»* أي: بما ركبه فيهم من الفطرة أو «الغريزة» اللغوية instinctus, instinct وإلا من علم البط فنّ العوم حال خروجه من البيضة؟ فاذا كانت ملكة الكلام فطرية عند البشر فهذا يعني: «ان اللغة نشأت أول ما نشأت بفضل غريزة خاصة كان الانسان الأول قد زود بها» أو فلنقل: علمها الله له «وهي التي حملته على التعبير عن مداركه الحسية والمعنوية بالألفاظ الخاصة، وان هذه الغريزة (أو الفطرة) كانت موجودة عند جميع الأفراد في تلك الفترة من التاريخ اللغوي، لذا فقد توحدت المفردات اللغوية الأولى وتشابهت طرائق التعبير»[٣٤] وهذا ما توصل إليه اللغويون المحدثون في دراستهم لما يسمى باللغات «الهندو اوربية» التي تشمل معظم اللغات الأوربية وعلاقة هذه اللغات بالسنسكريتية الهندية وخلصوا إلى الافتراض: «في زمان ما قبل التاريخ وقبل ظهور الكتابة كان متكلمة اللغة الأصلية — الهندواوربية — يشكلون جماعة واحدة متماسكة الترابط وبتأثير الهجرات المتتابعة وانفصال قسم منهم وابتعادهم عن موطنهم الأصلي، فان هذه الجماعات فقدت اتصالها وتحولت لغتها إلى نوع من اللهجات المتفرعة من اللغة الأصلية إلا أنها لم تزل تدل على مصدرها الأصلي. بيد أن فجوة الاختلاف كانت تتسع بمرور الزمن إلى حد أن الرجل الروسي في موسكو أو الرجل الأمريكي في نيويورك لم يكونا ليتصوران أن لغتهما كانت في الأصل واحدة»[٣٥] وهذا ما توصل إليه أبو الحسن الأخفش وابن فارس وغيرهما قبل قرون فقالا ما معناه: إن اللغة لم توضع كلها في وقت واحد بل وقعت متلاحقة متتابعة، وإن اختلاف اللغات إنما جاء من قبل أن أول ما وضع منها وضع على خلاف، وإن كان كله مسوقا على صحة وقياس، ثم أحدثوا من بعد اشياء كثيرة للحاجة إليها، غير أنها على قياس ما كان وضع في الأصل مختلفا[٣٦]. ويتوصل السيوطي من هذا الوضع في اللغة إلى ما أسميناه من قبل بـ «الظلال اللغوية» وذلك، أن الأصل عنده: أن يكون بازاء كل معنى عبارة تدل عليه غير أنه لا يمكن ذلك لأن الكلمات متناهية إذ أن مواردها ومصادرها متناهية فدعت الحاجة إلى وضع الأسماء المشتركة. فالوضع الذي نراه في مجال الأسماء يفصل بين الألفاظ المتناهية والمعاني اللامتناهية بفضل الاشتراك[٣٧]. وهذا بيّن في الترادف اللغوي والاشباه والنظائر وفي ما اتفق لفظه واختلف معناه والاشتقاقات في كل اللغات الانسانية. فالتوقيف في اللغة كان فطريا في أول مراحلها ثم تبع

*) لعل السيوطي — رحمه الله — أراد «بخلق العلم الضروري في بعض العباد بها» الفطرة اللغوية التي ركبها الله في العباد، انظر: الاقتراح في علم أصول النحو (حيدراباد ١٣٥٩) ص ٧.

ذلك الوضع فيها والاتفاق عليها الذي لم يزل المظهر الدائم لأية لغة بشرية عموما حين تدعو الحاجة إلى إنماء اللغة واغنائها بالجديد من الألفاظ والمصطلحات.

اللغة وقصورها :

لقد عرفت البشرية نوعين من اللغات: اللغة الالهية واللغة البشرية، وتتجلى اللغة الالهية في كتبه المنزلة على أنبيائه بيد أن الثابت علميا في عصرنا أن التوراة والانجيل اللذين يعدهما المؤمنون من اليهود والنصارى كلام الله، يعدهما كثير من علماء هاتين الطائفتين كلام من كتبهما وليسا كلام الله تعالى. ولهؤلاء أدلة أودعوها في دراسات كثيرة ليس هنا مجال ذكرها. والقرآن الكريم عند المسلمين هو كلام الله الذي أوحاه الله تعالى لنبيه ـــ عليه السلام ـــ مباشرة. وهو النص الوحيد من الكتب المنزلة الذي وصل إلينا دون تحريف، بل إنه النص الوحيد الذي يمثل اللغة الالهية الصرفة. وهذه اللغة التي جعلت كل مقتدر بليغ مبين، وكل متذوق للبلاغة والبيان، لا يملك إلا الاقرار لها، بأنها من غير جنس ما يعهده سمعه وذوقه[38] مع أن اللغة هي اللغة التي يألفها إلا أنها لغة مفارقة لجنس كلام البشر فأصابته الحيرة وشغله التعجب مما يسمع «من كلام يتلوه عليهم رجل منهم، يجده من جنس كلامه لأنه نزل بلسانه: لسان عربي مبين، ثم يجده مباينا لكلامه»، فما يدري ـــ وقد شغله التعجب ـــ ما يقول فيه: فهو ليس من كلام الانس ولا من كلام الجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة[39]. فهل التعجب الذي شغل الوليد بن المغيرة أم الحيرة أو كلاهما جعلاه ينتحل القدرة على سماع كلام الجن، أم أنه كان يفكر بأساطير عبقر ليصف كلاما لم يجد له مثيلا في كلام البشر فعجز عن وصفه؟ وما أعجز البليغ عن وصف كلام أنزل بلغته لا يمكن أن يكون قاصرا في تعبيره بل كان عجز البليغ دليلا وحجة على قصور البليغ. وهنا يكمن قصور اللغة البشرية في التعبير عما خرج عن طوق طاقتها، وهذا القصور لا يكمن في فَقْرِ هذه اللغة في تلبية تطورات العصر أو غناء تلك وانما القصور في اللغات الانسانية يكمن في ضيق الألفاظ عن استيعاب المعنى الشامل لما يريد البشر التعبير عنه من الخلجات والتجارب الانسانية المختلفة. فاذا اعترفنا بأن القلم لا يستطيع وصف الألم استطعنا أن ندرك أن القلم آلة وأن العجز من البشر، بل وهل لأية لغة انسانية القدرة على أن تصف «الألم» بغير الألم؟ أو الفرح بغير الفرح؟ وهذا هو التوقيف في اللغة، وإن ادراك الانسان للظلال المعنوية التي يستجليها هذا اللفظ أو ذاك في ذهنه مما يزيد على معنى اللفظ هو الوضع والاتفاق أو التعوّد والالفة.

أما مسألة قصور اللغة العربية التي كثر الحديث عنها وتشعب الجدل فيها منذ زمن طويل فأسبابها معروفة ودواعيها أسرار معلنة. بل إن الغريب في هذه المسألة الطبواء حرص بعض أهلها على ترويجها والدعوة إلى تثبيتها والسخرية الموجعة ممن يضادهم في قول معقول أو في رأي مقبول. فكأنهم القومة الذين يبيتون بليلة أنقد حبا بالعربية وحرصا على أهلها، فواحد منهم قد ثبره جهله* عنها وصرف وكده في غيرها من اللغات، يصرّ على أن اللغة العربية: «لم تحتضن روح العصر ولم تتجاوب في كلماتها وعباراتها مع اهتمامات ومشاغل أهل العصر». وآخر يرى في اللغة العربية انها «لغة أذن وليست لغة عين» ويصرّ هو الآخر على أن عناية اللغة العربية: «باللفظ أكثر من المعنى وبموسيقى الكلام لا بمضمونه وأن هذا الاهتمام الشديد بالموسيقى لدى الشعراء القدامى أدى إلى التضحية بالفروق بين الدلالات في الألفاظ، ومن هنا كثرت المترادفات في العربية»[40]. إن أية ظاهرة في العربية لا تخلو منها أية لغة أخرى إطلاقا وكل لغة انسانية بدأت لغة أذن ولم تزل كذلك ولا نعرف لغة انسانية بدأت لغة عين دون أن تكون أولا لغة اذن لأن اللغة مجموعة أصوات والأصوات لا ترسم إلا بعد تعلم الكتابة والثابت علميا أن الكلام سبق الكتابة. والثابت لمن يعرف مجموعة من اللغات الانسانية أيضا إن الموسيقى اللغوية والترادف اللغوي سمتان بارزتان في هذه اللغات وعلى مدارهما يكون حلو الكلام ورديه،

*) المسألة الطبواء: الشديدة، وثبره جهله: صرفه أو منعه من تعلمها.

جميله وساقطه، وهو يعرف أيضا أن العربية لا تزيد ولا تقصر فيهما عن غيرها من اللغات. فلا يوجد لفظان مترادفان كل واحد منهما يدل دلالة مطابقة للآخر وانما الترادف يكون في معنى حقيقي أو معنى مجازي آخر حيث يلتقي المترادفان في وجه ويختلفان في وجه. وقد أحسن أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري في بيان معنى الترادف اللغوي فأكد على استحالة وجود لفظين مترادفين كل واحد يدل دلالة مطابقة لأن تعدد الوضع أبعد ما يتصور[٤١]. والترادف اللغوي في اللغات الانسانية بعد كل هذا «إنما هو حالة تعرض لألفاظ من اللغة خلال حياتها نتيجة التطور الدلالي بفعل الاستعمال .. وإن حالة الترادف في الألفاظ ليست مسألة ثابتة دائمة على امتداد الزمان والمكان، بل هي مسألة نسبية تتغير باختلاف الزمان والمكان وتبعا لحقيقة التطور في الاستعمال»[٤٢] وقد حفلت اللغات الانسانية بالألفاظ الكثيرة المتقاربة في معانيها والمتشابهة في دلالاتها، إلا أن هذه المعاني المتقاربة وهذه الدلالات المتشابهة دليل آخر على ضيق الألفاظ وقصورها عن استيعاب المعنى الكامل الذي يريد الانسان نقله إلى السامع أو القارىء فلجأ مضطرا إلى التشبيه أو إلى التوكيد والترادف والكناية والمجاز وما إلى ذلك، وإلا لماذا يلجأ الانسان إلى التعبير: «إن القلم ليعجز عن نقل مشاعري» حين تقف به سفينة الألفاظ ولا تقوى على نقل عواطفه الجياشة التي يضيق بها صدره، لو كانت الألفاظ كافية في استيعاب المشاعر البشرية؟.

ويخرج علينا آخر بدعوته إلى «حاجتنا إلى أسلوب جديد»، ولكل جديد لذة وتطلّب لريادة وتنويه بذكر وشيوع اسم، فنادى بحاجتنا إلى «الأسلوب العلمي الذي يعتمد على تحديد المعاني وبالتالي (يعتمد على) اختيار ألفاظ محددة لها الفاظ حتمية بحيث لا يكون المكان صالحا إلا للفظ واحد، ويتعذر أن يستبدل به لفظ آخر[٤٣]. أي: أن الأستاذ يحيى حقي يرى أن تحنّط الألفاظ، لأننا لو فعلنا ذلك — (وما نرانا فاعلين) — «لأزلنا دفعة واحدة عن أسلوبنا كل علل الزيف والتبرج الفارغ والتزويق الذي لا طائل تحته». وفي رأيه المستعار[٤٤]: «أنه متى تحددت الألفاظ وأصبحت حتمية (!) زال الاستطراد وعيب الاضافة الذي أشار إليه عزيزنا (؟؟) المستشرق هولما (الفنلندي)، ومال الأسلوب بلا ريب إلى الجمل القصيرة التي ترتبط برباط ذهني لا لفظي فتقل الزيادات».

*

ولما كانت الألفاظ في طبيعتها اللغوية ضيقة الاعطان، فان البشر قد أضفوا عليها ظلالاً ودلالات لم تحوها الألفاظ الأصلية وهم بذلك خرجوا على «حتمية» و«تحديد» هذه الألفاظ بدافع «حاجة التحادث» الملحة إلى الفهم والافهام باصطناع «التزييف والتبرج والتزويق» اضطرارا؛ فنطلب من هؤلاء البشر أن يرجعوا عما ألفوه وما اصطنعوه إلى تحنيط الألفاظ وتنظيفها مما علق بها من الدلالات التي اكتسبتها عبر القرون؛ ليتسنى عند ذلك فقط أن نلبي حاجتنا إلى «الأسلوب العلمي»؟! ثم ما هذا الأسلوب العلمي الذي تفتقر اللغة العربية إليه؟ أهو أسلوب متميز عن غيره من الأساليب البشرية، مختلف في خصائصه؟ لأن الثابت علميا أن اللغة في كل أمة تميل إلى التغير سواء خلال الزمان أو عبر المكان وان لكل لغة مستويات مختلفة على أساس الطبقة الاجتماعية أو التعليمية. ونتائج هذا يمكن أن يسمى باللغات الطبقية، إذ حينا يستعمل المتعلمون في مجتمع ما طريقة كلامية خاصة أو كتابية نجد أنصاف المتعلمين يستعملون طريقة أخرى ويتبع هذا أن بعض المهن والأعمال لها نوع خاص من المفردات والمصطلحات[٤٥]. وعلى هذا فان خصائص الأسلوب تختلف من إنسان إلى آخر تبعا لثقافته واستعداده النفسي ومرانه وتجربته أو محاكاته[٤٦] أسلوب غيره وتقليده ولقد قيل: إن الأسلوب هو الرجل، لدلالته على انفراد الرجل في الاختيار. فإذا أراد بالأسلوب العلمي الايجاز التام والاستيعاب التام دون حشو ممل فان هذا لا يخرج عما قلناه. والحق أن أسلوب أية أمة في الكلام أو الكتابة لا يخلقه زمن معين أو يقترحه فرد أو جماعة لأنه نتيجة للاتجاه الطبيعي لأية لغة وهو في العربية نتيجة جد حتمية يفرضها ازدياد القوة الشخصية وازدياد حرص أبناء العربية على اللجوء إلى التمكن الشامل منها والسيطرة الفطرية على الألفاظ ودلالاتها

*) وقد فطن ابن درستويه إلى أن من جمعوا اللغة لم يفطنوا إلى العلة في الفروق فظنوا أن هذه الألفاظ بمعنى واحد لان العرب لم يقصدوا إلى وضع لفظين أو أكثر لمسمى واحد. انظر: المزهر جـ١، ٣٨٤ — ٣٨٥.

الأصيلة. وحرى باللغويين العرب أن يدرسوا بجدية العوامل التي تؤدي إلى تقدم اللغة أو تقهقرها وأن يعكسوا صورة اللغة المستقبلة من خلال دراسة حاضرها بدلا من انشغالهم بما لا ينفع في نهضة أو يصلح خللا وأن يجنّبوا أنفسهم ــ إذا كانوا يتوخون الموضوعية في البناء ــ محاكاة المستشرقين والمبشرين في نقل آرائهم وتبنّيها ومن ثم اظهار هذه الآراء على أنها من «اكتشافاتهم الرائدة» فان العوار بيّن في كل سلعة للخبير.

إن نظرة «في تاريخ أدب العرب توقفك على مذاهب الألفاظ والمعاني في كل عصر من عصور اللغة فيتحقق عندك أن اللغة لم تقف في يوم من أيامها، إنما سارت في القديم وأنها تسير في الحديث سيرا مطابقا للعلل الطبيعية والأسباب الاجتماعية، لم تقف اللغة ولا ينبغي لها أن تقف في عصر استفحل فيه العمران وانبسطت مذاهب الحضارة وامتدت أفياء العلم فلا بدّ من مصطلحات حديثة لمعان حديثة، فحياة اللغة متوقفة على تتبع روح العصر بقدر ما يكون من التمهل، على أن يكون للغة صلة متينة بماضيها وما يشتمل عليه هذا الماضي من حضارة وتقاليد وآثار فنية وأدبية: لا غلو في المحافظة ولا غلو في التجديد، هذه هي حياة اللغة». هذا ما قاله شفيق جبري قبل أربع وخمسين سنة (مجلة المجمع العلمي العربي: الجزء ٥ / المجلد ٨: ١٩٢٨ ــ ١٣٤٦هـ) وهو بلا شك كان يكتب مقاله النفيس «حياة الألفاظ» وفي ذهنه الحملة المسعورة التي كانت تتأجج ضد اللغة العربية في كل من الشام ومصر حين كانتا تحت الاستعمار الفرنسي والانكليزي وجمعياتهما التنصيرية التي أدركت منذ بداية نشاطها في العالم الاسلامي وأدرك معها الكثير من المستشرقين ان تنصير المسلمين أو في الأقل ربطهم بعجلة أوربا الثقافية لا يكون متيسرا مادامت اللغة العربية تشدّهم إلى القرآن وما دام بعض النصارى العرب الذين استكروا النشاط التنصيري ينبهم لحملهم على تبديل نحلتهم قد رأوا في اللغة العربية مظهرا من مظاهر القومية، بالرغم من أن الاستعمار وارساليات التنصير شجعوا القومية لاهداف، منها: أن ينسلخ المسلمون من اسلامهم فتسهل عند ذاك تبعيتهم الثقافية والسياسية ومنها: إن تنقطع صلتهم الروحية بالقرآن وبذلك يسهل قطع التفكير والتشريع الاسلامي بمصدر الوحي ومنها أيضا: تفكيك الوحدة الاسلامية التي تجمع المسلمين وإن تباينت أوطانهم ولغاتهم فيسهل عند ذلك زرع العداوة بين بلد إسلامي وآخر. وحاضرنا يشهد نتائج جهود الاستعمار والجمعيات التنصيرية في عدد من البلدان العربية التي يعمها التخريب الثقافي بفعل المستغربين من أبنائها (*).

لقد لبست الدعوات ضد اللغة العربية لبوسا وأقنعة مختلفة واصطنعت لهذه الدعوات حججا كانت تغلف أحيانا كثارا بالاصلاح أو التيسير، فمرة كانت الدعوة إلى نبذ الحروف العربية وابدالها بالحروف الفرنجية وأخرى بالكتابة بالعامية وتعميم تعلمها وثالثة بكتابة الحركات الاعرابية ضمن حروف الكلمة، ورابعة بكتابة الحروف العربية متقطعة وأمثال ذلك[٤٧]. والغريب الذي لا يستغرب إن المستشرقين والمبشرين كانوا أول الدعاة إلى كل تغير وتسهيل. فهذه جريدة «لاسيري» (سوريا) الفرنسية التي كانت تصدر في بيروت سنة ١٣٤١هـ/١٩٢٢ نشرت مقالا دعت فيه إلى تبديل الحروف العربية بالفرنجية فعربته جريدة «الف باء» الدمشقية وطلبت من المجمع العلمي العربي رأيه في الأمر فكلّف المجمع الياس قدسي أحد أعضاء المجمع الرد على المقال المذكور فنشرت جريدة «الف باء» (في ١٧، ١٨ اذار سنة ١٩٢٣) ردّه ثم ظهر الرد في مجلة المجمع الجزء السادس/ المجلد الثالث ١٧٧ ــ ١٨٤ اجتزىء منه ما يأتي:

«إن اللغة الفاظها وكتابتها تحفظ معانيها وقومية المتكلمين بها فنحن أبناء العرب لنا لغة شريفة كاملة ثابتة نتخاطب ونتراسل بها ونحفظ أسرارنا بها عن كل من لا يعلمها فهل يجوز أن نترك الكنوز المحررة بها لنرضي بذلك بعض المستشرقين أو الذين يتوهمون من ابنائنا أنه بكتابة لغتنا بحروف لاتينية تثبت الفاظها؟ وهل يقبل الأجانب ان نعرض عليهم ترك حروفهم واتخاذ حروفنا لتضبط ألفاظهم بها»[٤٨].

*) أنظر: كتاب الزحف على لغة القرآن لأحمد عبد الغفور العطار (بيروت ١٣٨٥) وكتاب الخسار تطبيق الشريعة في أقطار العروبة والاسلام، له أيضا (بيروت ١٤٠٠هـ).

وفي مقال آخر لشفيق جبري كتبه معلقا على مقال ظهر في جريدة المقطم المصرية (١٠ تموز سنة ١٩٢٩) حيث اقترح فيه مستشرق هولندي على الحكومة المصرية كتابة العربية بالحروف اللاتينية، وذكرت المقطم التي رفضت اقتراح الهولندي: إن بعض المستشرقين رأى هذا الرأي من أكثر من ربع قرن (أي: ١٩٠٠م) وعولجت القضية باسهاب كثير في المقتطف (ليعقوب صروف: المعروف) (*) وذكرت المقطم أيضا أن «رجال وزارة المعارف قد اجمعوا على رفض اقتراح المستشرق الهولندي». وقد استطرد شفيق جبري في تعليقه قائلا: «وكان المستشرقان الافرنسيان ماسنيون وبينار قد تقدما بمثل هذا الاقتراح ونصحا أصدقاءهما العرب بكتابة لغتهم بالحروف اللاتينية فرد عليهم فارس الخوري بمقال نشرته صحف سوريا في أواسط كانون الأول سنة ١٩٢٨. وأنهى شفيق جبري تعليقه بقوله: «لا أريد أن أترك القلم قبل أن اسأل الأستاذين ماسنيون وبينار، لماذا خصانا بالنصيحة بتبديل حروفنا لاصلاح كتابتنا ولم يقترحا على قومهم اصلاح الاملاء الافرنسي الذي هو أحوج إلى التنقيح من أي كتابة أخرى»[٤٩]. واحتج شفيق جبري على رأيه هذا بأمثلة لا تقبل الجدل على حاجة الفرنسية إلى الاصلاح. والحق أن نصح ماسنيون لم يكن عبثا لأنه «كان يقف علمه واستشراقه على التنصيري الديني للوصول إلى اهداف استعمارية، شأن العدد الأكبر من المبشرين المتزيين بكل زي والمتلبسين بكل لباس»[٥٠]. ولم يكن نصح المستشرق الهولندي الذي ما زلنا نجهل اسمه (لعله سنوك هورخرونيه او فنسنك) نابعا من حرص علمي نزيه، والا كان هذا النصح أولى أن يوجهه إلى لغته الهولندية التي هي أولى بالاصلاح ومن ثم فان هذا النصح «العلمي» ليس جديدا فقد سعى لهذه الغاية الهدامة مبشرون استعماريون من أمم أخرى. وقد فصل القول في هذا وغيره مصطفى الخالدي وعمر فروخ في كتابهما: «التبشير والاستعمار في البلاد العربية»[٥١] وعبد الرحمن رأفت الباشا وآخرون[٥٢].

ولم تمت هذه الدعوات ولم تخف وأنى لها أن تخف والنشاط التنصيري والاستشراقي الذي بذر هذه الآراء لم يزل يجددها بلبوس مختلفة بلا كلل، بل أنى تهدأ أبواق هذه الدعوات وقد انتحل أفراد منّا حماسة الدعوة إلى الكتابة بالحروف الفرنجية واستعمال العامية بدلا من الفصحى أمثال عبد العزيز فهمي ولطفي السيد وأنيس فريحة اللبناني وسلامة موسى المصري وسعيد عقل ويوسف الخال وأنطون مطر الذي رأى أن: «اللغة العربية ليست لغة حديثة وهي لا تستطيع بحالتها الراهنة أن تستخدم باعتبارها وسيلة صالحة لثقافة تقدمية انسانية ... لأن لها طابعا دينيا وأن ليس للعرب لغة قومية علمانية»[٥٣]. ولو كانت الضرائب تجبى على كل كلام ممرور لرخصت سعار الأقلام واعفيت الصحف من وصمة السواد، فهذا منطق تنضح جوانبه رعالة (*) وتعصبا بغيضا.

ويعجبني هنا تعليق صديقنا الشيخ أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري على دعوة سعيد عقل إلى تبديل الحرف العربي والكتابة بالعامية فقال: «وقد نقبت عن جذور السعقلية المأفونة فرأيت العلامة عبدالله العلايلي يشير إلى أنها بدأت في أواخر القرن التاسع عشر لاقامة حوائل وحواجز بين الأقطار العربية، لأن اللغة أبرز جامع لها، ومكانها الجزائر، بجهود المستشرقين الفرنسيين: وفعلا وضعت قواعد وقواميس ونفذت، ثم تبعتها مصر عن طريق دنلوب المستشار الثقافي الذي تحمس لعامية مصر»[٥٤]. ويستطرد صديقنا المفضال: ذكروا من مسوغات هذا الاستبدال الأرعن: أن الفصحى عاجزة عن مجاراة العصر ولهذا عجزت عن تقديم مصطلحات الحضارة*، فهذا الرأي

(*) لم يرض يعقوب صروف عن اهتمام المجمع العلمي بدمشق بتعريب الألفاظ الافرنجية فقال: «ما فائدة اللغة من ترك كلمة افرنجية شاعت بيننا والتفتيش عن كلمة قديمة حوشية؟ (جـ٨، مج ٢/١٣٣٩/٩٢٢) صفحة ٢٥١. فرد عليه أنيس سلوم (جـ٩، مج٢، صفحة ٢٨٣ــ٢٨٧) بكل أدب وعلم وموضوعية.

(*) الرعالة: بفتح مكرر: الحمق.

(*) أفرد أبو عبد الرحمن ــ زاده الله علما ــ فصلا نفيسا في كتابه للرد الجميل على دعاة العامية ورأى في هذه الدعوة ملامح التآمر الأجنبي والحقد الصليبي. أنظر صفحة ٥٧ ــ ٦١. وأنظر مقال عارف النكدي: اللغة العربية بين العامية والفصحى، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٣٢، جـ١ لسنة ١٣٧٦هـ، ١٨٩ــ٢٠٣ وغيره في المجلة نفسها.

سبق وأن ردّ عليه أنيس سلوم قبل خمسين سنة من اليوم فقال: «فإن قيل إن اللغة العربية قاصرة عن مجاراة اللغات العصرية في خدمة العلم الحديث... قلنا : إن الذين ينسبون القصور إلى اللغة لم يحيطوا بما فيها من فرائد الكلم ولا طرق الاشتقاق والمجاز، ولو أمكنهم استقراء كلام العرب والوقوف على ما كان لهم من سعة التصرف في ابراز المعاني على اختلاف مناحيها لعلموا أن القصور من جهتهم لا من جهة اللغة»(٥٥) وهذا يصح الآن على بعض ابنائنا الذين رددوا دعوى قصور اللغة العربية بدافع من اخلاص أصيل ومن نية حسنة مقلدين دون تبصر أكيد ترهات التضليل المقصود(٥٦). ولا افهم مطلقا لم تخصص العربية بهذه الأنقوصة ولغات البشرية جميعها تعاني من إيجاد الفاظ جديدة تطلقها على ما يكتشف من الجديد في العلم أو الصناعة أو الفن أو ضروب الأدب ومدارسه وهذا كله يعرفه المستشرقون والمبشرون في لغاتهم ويعرفه عارفو هذه اللغات منّا. والعربية بعد كل هذا قد استفادت من المكان استفادتها من الزمان استفادة واسعة، وهو ما لا تجده في غيرها من اللغات التي اتكأت حين أعوزها اللفظ على اللاتينية أو اليونانية فاستعملته بمعنى جديد لا يسوغه اللفظ في معناه اللاتيني أو اليوناني فمثلا: قلم الرصاص في الانكليزية Pencil والهولندية Potlood والفرنسية Crayon وفي الألمانية هو Schreibstift بينما هو في اللاتينية: Penicellus ومعناه اللاتيني: فرشاة، عضو التذكير، ذنب. ومن المعنى الدلالي للفرشاة وضع الاصطلاح الطبي المعروف «بنسلين» لأن عفن الخبز الذي يصنع منه الدواء ينمو على شكل خصل متشعبة.

وبعد كل هذا فللغة، أية لغة،أن تخترع ألفاظا تلبسها ما تشاء من المعاني التي تفرضها سنة الحاجة اللغوية البشرية وهذا من علامات حيويتها واستجابتها إلى كل ما يجدّ في الحياة ومتطلباتها، وعلى شدة الحاجة وعنفها تولد الفاظ جديدة ذوات دلالات جديدة يألفها الناس فتستسيغها الأسماع والأفهام. وفي العربية من هذه الألفاظ الجديدة عدد هائل ألفها الناس كالمقود والعجلة والاطار والمبردة والسخّان والهاتف والمذياع والاذاعة والدعاية والمجلة والطباعة والمصرف والمطاط والأسطوانة وما إلى ذلك. فعلى اللغة أن تسمي كل ذلك بدقة وتقربه للأفهام وليس بقادر على هذا إلا أهل العلم أنفسهم ممن أتاهم الله صبرا وحماسة: وقد وضعت اللغة أمامهم وبين أيديهم ما تملك من أدوات التعبير ووسائله كالاشتقاق من الحقيقة والمجاز وكالتشبيه والنحت والتخصيص والتعميم وكالاستعارة من اللغات بعضها من بعض أو توليد بعض الكلمات أو صرف دلالاتها اللغوية إلى دلالة جديدة . وفي القديم واجه القوم بعض ما نجد فما وهنوا ولا ضعفوا ونجحوا في تدوين الدواوين ونقل العلوم المختلفة إلى لغة الضاد ولم يكن أولئك أقدر منا في العربية ولا أفهم منا لتلك العلوم، إلا أنهم كانوا يتوفرون على شيء لا نتوفر عليه وهو الشعور بالعزة والكرامة وأنهم سادة يجب أن يخضعوا لهم لا أن يخضعوا لغيرهم وبذلك أخضعوا للغتهم في يسر، كل ما وصلوا إليه أو اتصل بهم(٥٧).

لم نزل نستعيد القول في أن الدلائل الاستقرائية لأية لغة إنسانية تشيء بأن قصورها يتأتى من ضيق الفاظها الفطرية وأن هذا القصور اللغوي لا يكمن في كون هذه اللغة أو تلك أفقر ألفاظا وأضحل مقدرة من غيرها بل لأن اللغات البشرية في فطريتها إنما كانت لغيّات عملية ساذجة(٥٨) في ابتدائيتها ثم جنح البشر إلى اطلاق الألفاظ من حتمياتها الساذجة بشحنها بدلالات جديدة حين اتسع أفق حاجتهم فاضطروا دون قصد منهم إلى كل ما عرفنا في تطور اللغات البشرية. ومع دوام هذا التطور وتشعبه فان اللغات، وأقول جميع اللغات، لم تزل قاصرة عن استيعاب كل الجوانب الدقيقة لعوالم المادة وعوالم الروح مما نلمحه ماثلا ولا نكاد ندركه في أبيات الشهرزوري التي منها :

لمعت نارهم وقد عسعس الليل وملّ الحادي وحار الدليل
فتأملتها وفكري من البين عليل ولحظ عيني كليل
ثم قابلتها وقلت لصحبي : هذه النار نار ليلى فميلوا
فرموا نحوها لحاظاً صحيحات فعادت خواسئاً وهي حول
ثم مالوا الى الملام وقالوا : خُلَّبٌ ما رأيت ام تخييلُ؟؟

فلم يكن خلبا ما رآه الشهرزوي ولا تخييلا وإنما قصرت اللغة بمفرداتها الفطرية الساذجة عن وصف عالم من الجمال والشمولية والتسامي الروحي غير المحدود الذي أحسه بمواطفه المجلوّة ورآه

يفيض تلألؤاً ببصيرته الروحية دون حجاب مما لم تره عين حتى يستطيع وصفه ولم يستطع بما توفر لديه من لغة بشرية أن ينقل تجربته إلى رفاقه بوضوح. وهل لبشر أن يخترع لغة يصف بها ما لم يره غيره من قبل؟ بل كيف يصف غير معروف ومألوف؟ إننا بذلك نطلب منه لبن العنقاء. وأنى تحيط اللحاظ الخواسيء بالعواطف المتدفقة دهشةً وفرحاً باللقاء وقد ران اليأس وغمّت المسارب على الدليل ولفّت الصحراء ركبهم «وقد عسعس الليل وملّ الحادي وحار الدليل»؟ فاذا بلغت القلوب الحناجر: هتف صوت الأمل المنعش بغرق الدجى واليأس: هذه النار نار ليلى فميلوا ... فهذه النار عندها الدفء والأمان والقرى والهدى، وهي بعد كل ذلك نار ليلى الحبيبة. أو لم تر بعد تزاحم الظلال وتلاطمها في «نار ليلى»؟ ولو قال: هذه النار نار المحلّق أو نار بني عذرة لتبدل اللوم إلا أنه رأى بباصرته ما لم تره الرفقة ببصائرهم، وهنا يتوضح اختلاف الظلال المعنوية بين النيران. فان هذا الاختناق في الألفاظ لا تخلو منه اية لغة بشرية على الاطلاق وهو أبين في أدب كل أمة وشعرها مما في لغتها السوقية أو العامية على تباين مستويات أصحابها.

ومع كل هذه الدعوات إلى التيسير والتكسير والنبذ و«التأورب في كل شيء»[٥٩]،ارتفعت أيضا معها دعوى صعوبة النحو في اللغة العربية وضرورة تيسيره أو الغائه، لأنه ــ عندهم ــ العقبة الكبرى التي تحول دون تعلم العربية. وكلما ازدادت حماسة الدعاة وقلّ المنصتون لهم تفتقت صدورهم عن نظرية جديدة. فبعد أن بليت نظرية المستشرقين القائلة بنقل النحو من اليونان الى العرب وإن النحو العربي من وضع الأعاجم لحاجة هؤلاء إلى تعلم الكتابة (*)، ابتدعوا نظرية تأثر النحاة المسلمين بالنحو السرياني ومنطق أرسطو. ولما كانت الضرورة الجدلية تقضي بعرض العلل ونكث الدلائل قالوا إن أبا الأسود الدؤلي تأثر بيعقوب الرهاوي اليعقوبي النحلة في استعمال الحركات والنقط وإن الخليل بن احمد الفراهيدي اتصل برجال الثقافة من السريان وسألهم فترجموا له مصطلحات علم النحو[٦٠]. وما بي حاجة إلى سرد هذه الحشود من النظريات السقيمة ثم تبيان خطلها فقد كفاني القول في كل هذا الدكتور محمد خير الحلواني في مقاله النفيس: بين منطق ارسطو والنحو العربي[٦١] وعلي عبد الواحد وافي[٦٢] وغيرهما. وما بي حاجة إلى سرد ما كُتِبَ فهو كثير ويجزيني جواب الخليل وقد سئل عن علله: «أعن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك»؟ فقال: «إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقامت في عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنها، وعللت أنا بما عندي انه علة لما عللته به، فان أكن اصبت فهو الذي التمست وإن تكن هناك علة أخرى غير ما ذكرت فالذي ذكرته محتمل أن يكون علة له»[٦٣]. فالخليل ــ رحمه الله ــ رأى نظاما كاملا مستتب القواعد والأسس فاخضعه لاستقرائه واستنبط منه ما استنبط وعلل ما رآه في حاجة إلى التعليل فكان أول من تنبه إلى احكام النحو العربي التي بدأها أبو الأسود الدؤلي ــ رحمه الله ــ باستعماله النقط لتثبيت نطق الحروف في قراءة القرآن الكريم وحسب وذلك لضرورة مشهورة[٦٤]. وقد كان هذا شأن النحو في كل لغة بشرية لأن اللغة سبقت تقعيد الأحكام فكان النحو ملازما بالضرورة اللغوية لكل لغة غير منفصل عنها، ثم «احتيج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علما ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل»[٦٥] ليستدل بهذه المقاييس على سلامة الكلام أو خطله. وفائدة النحو بعد ذلك هي: فتق المعاني وصحة الألفاظ وتوخي الاعراب واعتياد الصواب ومجانبة اللحن على حدود ما في غرائز العرب وطبائعها وسلائقها[٦٦]. وروى أبو حيان التوحيدي: «قلت لأبي سليمان (المنطقي السجستاني): إني أجد بين المنطق والنحو مناسبة غالبة ومشابهة قريبة، وعلى ذلك فما الفرق بينهما؟ فقال: النحو منطق عربي والمنطق نحو عقلي، وجل نظر المنطقي في المعاني، وجل نظر النحوي في الألفاظ ... فالحاجة إلى الافهام والتفهم على عادة أهل اللغة أشد من الخطابة والبلاغة لأنها مقدمة بالطبع والطبع أقرب إلينا والعقل أبعد عنا .. والنحو تحقيق المعنى باللفظ

(*) هذا أحد اصداء النظرية العرقية التي طبقها رينان وجوتيه على الحضارة الاسلامية لبذر الحقد والعداء واذكاء القومية البغيضة وبالتالي تمزيق الوحدة الاسلامية وكفى الاسلام شرفاً أنه دعا إلى الإخاء في الله والى نبذ العرقية الشائنة للبشرية.

والمنطق تحقيق المعنى بالعقل ... والنحو شكل سمعي والمنطق شكل عقلي وشهادة النحو طباعية وشهادة المنطق عقلية»(٦٧).

لعل الخطأ الفاحش في الكثير من الدراسات اللغوية يعود إلى تبعية مصنفيها الساذجة وترديدهم آراء غيرهم وتَنَحُّلهم هذه الآراء دون تكليف أنفسهم عناء تقصّيها وفحصها أو حتى عزوفهم عن محاولة اثبات ما أوردوه منها. وهذا يرجع إلى ضحالة جهدهم وسوء انتحالهم وادعاء نظريات مردودة لأنهم اقتصروا على بعض أبحاث المستشرقين المترجمة بما فيها من هنات. ولا أكاد أشك في أن كثيرا من الباحثين أطلقوا أحكامهم دون الرجوع إلى المصادر الأصيلة حتى يتحققوا في الأقل من دعوى تأثير المنطق اليوناني الأرسطي على مصطلحات النحو أو دعوى تأثير النحو السرياني أو زعم من زعم أن الخليل طلب من رجال الثقافة السريان أن يترجموا له مصطلحات علم النحو وما إلى ذلك من الدعاوى المبهرجة التي لا تقوم للنقد العلمي الموضوعي(٦٨) ولكن هذا مقام آخر ليس هنا مجال التوسع فيه.

الأصالة والظلال اللغوية :

الأصالة مصطلح عجيب موغل في الغموض يستعمله الباحثون إما للتدليل على جودة شعر هذا الشاعر أو أدب ذلك الكاتب أو خلوهما منها أو افتقارهما إليها. ولهذه الأصالة وشائج قربى ونسب لغويين بـ «الأصل»، فرجل أصيل: له أصل، ورأى أصيل: له أصل، ورجل اصيل: ثابت الرأي عاقل، وقد أصلَ (بفتح وضم وفتح) رايه أصالةً وأنه لأصيل الرأي والعقل، ومجد أصيل: أي ذو أصالة، وأَصَلَ (بفتح الهمزة والصاد واللام) الشيء قتله علما فعرف أصله(٦٩). وأصُلَ ــ ككرم ــ الرأي: جاد، والأصيل: العاقل (*) الثابت الرأي. فهل نرى في كل هذه التفسيرات اللغوية معنى الأصالة التي يستخدمها الباحثون؟ ولو تتبعنا معنى «الأصالة» في جملة من اللغات البشرية لوجدنا أن معناها لا يخرج مطلقا عن المعنى الذي أورده أصحاب المعاجم العربية من علاقة هذا المصطلح بالأصل والجدة والإتيان بالجديد الذي لم يسبق له مماثل، ففي الانكليزية:.Origin, Source genealogy, originality non-imitation, uniqueness, inimitability, والمعنى في الهولندية والألمانية والفرنسية مثلا لا يخرج عن هذا أيضا حيث يدور المعنى على اتصاف الأثر بخصائص وميزات خاصة به تدل عليه، غير أن هذا المعنى الجديد الذي اكتسبه الاصطلاح يفتقر إليه اللفظ الأول «أصل» وهذا أمر رأيناه من قبل في خروج الألفاظ على «الحتمية» الفطرية واضطرار البشرية إلى اثقال هذه الألفاظ الحتمية بظلال معنوية جديدة. والذي يعنينا من كل هذا هو اصطلاح «الأصالة» بمعناها الحديث المتداول بين الناس على تباين لغاتهم واذواقهم. فان هذا الاصطلاح يطلق على الأثر الفكري الجديد كما انه يطلق على الأثر المادي المبتكر للتدليل به على الاعجاب والمدح لجدَّة هذا الأثر وطرافته وفرادته. وقد تتعدد الأوصاف وتغزر التشبيهات لتقريب معنى المصطلح العام فيلجأ الكتّاب أو النقّاد ــ في المجال الفكري ــ إلى اصطناع الفاظ عجيبة. ففي وصفهم لشاعر معين يقولون إنه: «رائق الكلام، جيد السبك، ناصع الديباجة، يقطر منه ماء السحر»، وفي كاتب معين أنه: «كان له أسلوب ناجح في النثر، يدل دلالة واضحة على قلم رصين وأسلوب بارع وسبك متحرر» أو أن فلانا الكاتب له «أسلوب كالمرمر ناصع ثقيل مصقول تنزلق عليه الألفاظ بعضها فرادى وبعضها جملة في خيط واحد»(*). وأمثال هذا كثير(٧٠) بيد أن السؤال الملّح يتململ في اعماقنا: هل نجد في كل هذا أثرا لبارقة تدلنا على معنى الأصالة؟ الجواب: لا دون تعثر؛ لأن الأصالة شيء آخر، وهذا الشيء مستكن في كل ما قيل ويقال دون ان نستطيع الافصاح عنه الا بالاصطلاح ذاته. وإلى أن يستند الكاتب أو الشاعر إلى الخصائص الأصيلة الخالدة في النفوس البشرية وإلى العواطف والمشاعر البشرية التي لا تختص بجيل دون جيل أو لغة دون لغة أو طبقة من البشر دون طبقة، لا يشم الكاتب أو الشاعر رائحة

*) وردت في القاموس المحيط للفيروزابادي (جـ٣، ٣٢٨، طبعة دار المأمون ــ القاهرة ١٣٥٧، ط٤) وفي ترتيب القاموس المحيط للطاهر أحمد الزاوي (طبعة عيسى البابي الحلبي ــ القاهرة جـ١، ١٩٧١، ط٢، ١٥٤)، «العاقب» والظاهر أنه تصحيف.

*) أريد من الإقتباس الأخير بيان سقم الأسلوب وضحالته ووخامته، أنظر: خطوات في النقد، ليحيى حقي، ص ١١٧.

الاصطلاح. فاذا وجدت الغالبية من البشر ــ مع الإغضاء السمح عن الفوارق في البيئة القطرية ــ إن هذا الكاتب أو ذلك الشاعر عبَّر عن عواطفها ومشاعرها التي لا تتغير عبر القرون بوضوح وأبان عن قصده بجلاء ــ وينطبق هذا على كل لغة ــ كان أصيلا. وهذا الشيء الذي سميناه «أصالة» هو الذي جعل المتنبي غير أبي تمام وشكسبير غير بيرنز والجاحظ غير المبرد أو ابن قتيبة، وهنا يصح قول اسحاق الموصلي، حين سأله المعتصم العباسي عن معرفة النغمة كيف يميّز بينها على تشابهها واختلافها فقال: «يا أمير المؤمنين من الأشياء ما يحيط به العلم ولا تؤديه الصفة»(٧١). فالعلم الذي أشار إليه الموصلي يعني: المعرفة المدركة التي لا نستطيع معها الوصف، لأننا نفهم السر غير أننا لا نستطيع أن نحيط بهذا السر وصفا بما لدينا من لغة قاصرة عن التعبير عما ندركه ولا نستطيع الافصاح عنه بها، فنلجأ للعجز، والعجز عن درك الادراك إدراك. وقد أدى عجز البشر عن الافصاح الدقيق أو وضوح التعبير عما يدركون إلى الاشتقاق والكناية والمجاز والتورية وما إلى ذلك لنقل الأفكار المزدحمة المتلاطمة بلغة لا تتسع مطلقا للاحاطة الشاملة بها مما يصدق عليه قول ابن المقفع: «الكلام يزدحم في صدري فأقف لتخيّره»، وهذا العجزالذي الجأ المتنبي إلى التدحرج على أرض الغرفة لاصطياد معنى أراده هو الذي عاناه الأمير شكيب أرسلان ــ أمير البيان ــ حين قال في وصف جامع أيا صوفيا: «وإن القلم ليعجز عن اعطاء المناظر حقها من الوصف»(٧٢) فهل عجز القلم حقا أم صاحب القلم؟ ومثل هذا التعبير تجده في غالبية اللغات المعروفة بصور مختلفة.

قد تكون الأصالة في أي أثر وليدة الموهبة الفطرية عند بعض البشر وقد تكون مكتسبة بالمران والدربة والرياضة اذا تهيأت لها البيئة الثقافية الملائمة التي تعين على شحذها وصقلها عند آخرين وهي بعد هذا تحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى ترتيب ورياضة وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة(٧٣). والحق أن هذا باللغة الصق وهي إليه أحوج حتى يستقيم البيان ويحسن التعبير فتفصح الألفاظ التي عليها مدار التعبير عن العلم المدرك الذي لا تؤديه الصفة إلا على سبيل تقريب الصور للذهن (بالتصوّر والتخيّل) بما هو مألوف تصوّره وتخيّله عند البشر. إذ مهما قلنا في وصف اللذة بضروبها والألم بأنواعه فان الوصف يضيق عن الاحاطة الشاملة بهما. وقصارى الواصف أن ينعت ويشبّه بينا تبقى الظلال المتزاحمة تكتنف مثل هذه الألفاظ مثيرة علما غير مُدرَكٍ في ذهن البشر.

ومن طرائف تقريب المعنى ما رواه ابن الجوزي، قال: «دخل المنصور العباسي قصراً فرأى في جداره كتابا:

ومالي لا أبكي بعين حزينة وقد قربت للطاعنين حمول

وتحته مكتوب: إيه إيه، فقال المنصور: أي شيء إيه إيه؟ فقال له الربيع: إنه لما كتب البيت أحب أن يخبر أنه يبكي»(٧٤). فلعل المسكين كتب: إهي إهي فتصحف على النساخ.

وتلصق الأصالة بالخطيب كما تعلق بالشاعر والكاتب فيوصف الخطيب بالفصاحة والبلاغة، ويوصف الكاتب بالبراعة ولكل من هذه الأوصاف حدود مبهمة، فالفصيح عند الجاحظ: من عبّر عن نفسه بوضوح وأبان عن قصده بجلاء وإن هذا الانسان فصيح وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو الهندية أو بالرومية، وليس العربي أسوأ فهما لطمطمة الرومي من الرومي لبيان لسان العربي، فكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح(٧٥). وهذا إدراك واسع لحقيقة الفصاحة التي لا تخص لغة من اللغات أو أمة من الأمم بل هي مقسومة عليهم، والفصيح فيهم من عبر عن نفسه بلسان سليم(٧٦). أما الفصاحة عند القزويني: فهي ملكة يقتدر بها المتكلم على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح(٧٧). وأبو هلال العسكري رأى أن الفصاحة تمام آلة البيان والبلاغة إنهاء المعنى إلى القلب والكلام يسمى فصيحا بليغا إذا كان واضح المعنى سهل اللفظ جيد السبك غير مستكره فجّ ولا متكلف وخم ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف(٧٨). ولما كانت الفصاحة صنو البلاغة وهما يعتمدان على اختيار الألفاظ التي توحي بقرائنها ظلالا معنوية يستخفّها السامع أو القارىء دون عناء ذهني، كان اللفظ مدار هذه الفصاحة والبلاغة، «ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه متميزا من جنسه وكان سليما من الفضول وبريئا من التعقيد حبب إلى النفوس واتصل بالاذهان والتحم بالعقول وهشتّ إليه الأسماع وارتاحت إليه القلوب وخف على السن الرواة وشاع في الآفاق ذكره وعظم خطره وصار ذلك مادة للعالم ورياضة

للمتعلم الريض[٧٩] كما يقول الجاحظ. ولا أكاد أشك في أن الجاحظ أراد من وصفه هذا بيان أهمية اختيار المتكلم أو الكاتب للألفاظ التي تثير في ذهن السامع أو القارىء ظلالا معنوية لم يألفها من الألفاظ إلا أنه يستخفها ويأنس بها، لأن المعاني عنده إذا اكتست الفاظا حسانا وأعارها البليغ مخرجا سهلا ومنحها المتكلم دلا متعشقا صارت (الألفاظ) في قلب السامع أحلى وفي صدره أملأ. «والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة وأكسيت الأوصاف الرفيعة تحولت في العيون مقادير صورها وأربت على حقائق إقدارها بقدر ما زينت وحسب ما زخرفت»[٨٠].

وبقدر ما تزداد سيطرة الانسان على الظلال اللغوية الحائمة حول الألفاظ، وتتسع قابليته ومقدرته في حسن الاختيار وجودة الاتيان بالألفاظ مترادفة مستقة، أمازه هذا الاختيار عن غيره وأصبح سمة لازمة له يعرف بها أسلوبه ويميز الناس منحاه. وإلى هذا الأمر أشار الجاحظ فقال: «ولكل قوم الفاظ حظيت عندهم، وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون، فلا بدّ من أن يكون قد لهج وألف الفاظا بأعيانها يديرها في كلامه وإن كان واسع العلم غزير المعاني، كثير اللفظ[٨١]. فاذا تحولت في العيون مقادير صور الألفاظ وأربت على حقائق إقدارها كان إيحاء الألفاظ بظلالها المعنوية أوقع وأثرها أعمق في نفس السامع أو القارىء. وإلى هذا الوقع في النفس البشرية أشار الجرجاني في قوله: «فاذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا ثم يجعل الثناء من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق وحسن أنيق وعذب سائغ وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده وفضل يقتدحه العقل من زناده[٨٢]. وهذا مجمل طريف لمعنى الأصالة في التعبير اللغوي، إذ قد يحسّ المرء بجودة الأثر فإذا أراد التعبير عن إحساسه هذا لم يجد غير التشبيه والنعت أداة وآلة لتقريب المعنى المراد في ذهنه. فان الحلاوة والرشاقة والحسن والأناقة والعذوبة والسوغ والخلابة والروعة مسميات أطلقت مجازا على الألفاظ حين خلت اللغة من مسميات أُخر تنوب منابها. وهذا دليل آخر نسوقه على قصور اللغة البشرية بضروبها المختلفة دون استثناء. لأن هذه المسميات الصق بحاجات الانسان الحسيّة المكتسبة بالذوق كالحلاوة والعذوبة والسوغ أو بميله الحسي كالرشاقة والأناقة أو بمشاعره الخفية كالخلابة والروعة، وهي كلها حاجات عضوية أو نفسية شهوانية ولا تخرج عن نطاق حاجاته البشرية المكتسبة بالتجربة الموروثة أو الميول الغريزية.

. جريدة الاشارات

١) ابن الجوزي : الموضوعات (المدينة المنورة ١٣٨٦هـ) ١/١١١.

٢) الفرج بعد الشدة للتنوخي، تحقيق عبود الشالجي (بيروت ١٣٩٨) ٤/٦٩ــ٧٢.

٣) أنظر مقدمة عبد السلام هارون في تحقيقه: كتاب العققة والبررة لأبي عبيد (المجموعة السادسة من نوادر المخطوطات، القاهرة ١٩٥٤) ٣٣٥.

٤) أنظر مثلا معجم الادباء لياقوت ١٣/١٦٩ في رواية الخليل والكسائيْ نقلا من تاريخ بغداد، الفهرست للنديم ٦٧.

٥) الكتاب لسيبويه ١/٩٣، ١٥٣، ٤٢٣.

٦) أنظر مثلا : كتاب الملاحن لابن دريد الأزدي (القاهرة ١٣٤٧) ٧٢ الذيل، آداب آي القرآن لمؤلف مجهول (مخطوط جستربيتي ــ بدبلن، رقم ٤٧٨٨) ورقة ٤ــ٧، محمد كرد علي: المذكرات ٤/١١١٦.

٧) صنف بعض العلماء في لغة القبائل في القرآن الكريم منهم أبو القاسم اللالكائيْ الذي نشرت رسالته منسوبة لأبي عبيد القاسم بن سلام مع تفسير الجلالين للسيوطي والمحلي (القاهرة ١٣٤٥). وقد أفادني الدكتور رمضان عبدالتواب هذه المعلومة بعد أن ذكرت المعروف عنها، فله أجمل الشكر والثناء.

٨) البرهان للزركشي ١/٢١٧.

٩) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٨١، البرهان ١/٢١٩.

١٠) أسس علم اللغة لماريو باي، ترجمة أحمد مختار عمر، (طرابلس ــ ليبيا ١٩٧٣) ٤١.

١١) مذكرات محمد كرد علي ٤/١٠٨٨ ــ ١٠٩٦.

١٢) الجاحظ : المحاسن والمساوىء ٤٨٦، أنساب الأشراف للبلاذرى (القدس ١٩٧١) جـ٤، ق١، ١٠٣.

١٣) حاضر العالم الاسلامي لستودارد، ترجمة عادل نويهض (القاهرة ١٣٥٢) ٢١١/١ وهذا قول الأمير شكيب أرسلان — رحمه الله —.

١٤) مذكرات كرد علي ١٠٩٢ — ٣.

١٥) تونس ١٩٧١، ١٦، ٢٥.

١٦) مجلة التضامن الاسلامي (مقال : تعريف بكتاب البرهان لابن الزملكاني) السنة ٣٣، جـ٥، ذو القعدة، ١٣٩٨، ٨٠.

١٧) معجم الأدباء ١٩٩/٦.

١٨) أدب الدنيا والدين (القاهرة ١٣١٧هـ) ٢٥، لقد أسهب الماوردي في بيان تعليل الأسباب المانعة من فهم الكلام، انظر: صفحة ٢٣—٢٨.

١٩) المصدر نفسه ٢٣، ٢٦.

٢٠) مقدمة ابن خلدون ٢٥٦، وقد كان سبب موت ابن النحاس أنه كان جالسا على درج المقياس بشاطىء النيل فأخذ يقطع العروض من الشعر فسمعه بعض العوام فقال: هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلو (؟) الأسعار، فدفعه برجله إلى النيل فلم يوقف له على خبر (الفلاكة والمفلوكون ١٠٧).

٢١) مجلة كلية اللغة العربية (جامعة الامام محمد بن سعود) العدد الرابع ١٣٩٤هـ، ٨٨.

٢٢) المصدر نفسه ٨٧—١١٢.

٢٣) كتاب سيبويه، بولاق، ٣١٥/٢.

٢٤) الايضاح للزجاجي، تحقيق مازن المبارك (القاهرة) ٧٠، الاشباه والنظائر للسيوطي (حيدر اباد ١٣١٦هـ) ٧٩/١.

٢٥) الايضاح ٦٩، لمع الأدلة لابن الأنباري، تحقيق سعيد الأفغاني، ١٠٩، الاشباه والنظائر ٧٦/١.

٢٦) من أسرار اللغة لابراهيم أنيس، ط ٣، ٢٠٨.

٢٧) هذا ما قاله تمام حسان في بحث «القرائن اللغوية» المقدم إلى مكتب التعريب في الرباط — المغرب، نقلا من كتاب : نحو القلوب للقشيري، تحقيق أحمد علم الدين الجندي (ليبيا — تونس ١٣٩٧/١٩٧٧) ١٩٣.

٢٨) أدب الدنيا والدين ٢٣.

٢٩) أسس علم اللغة لماريو باي، ترجمة أحمد مختار عمر (منشورات جامعة طرابلس — ليبيا ١٩٧٣) ٤١.

٣٠) القول لجورج لختنبرك Lichtenburg

٣١) الحيوان للجاحظ ٣٦٨/٣.

٣٢) المصدر نفسه

٣٣) نظريات نشوء اللغة عند العرب لمحمد حسين آل ياسين، مجلة المورد مجلد٧، العدد ٣، ١٣٩٨/١٩٧٨، ٩، ١٣، ٢٢.

٣٤) المصدر نفسه ١٨.

٣٥) Mario Pei, The Story of Language, p. 31; Potter, Simon, Our Language (Penguin Books, England 1971) p.8-9.

٣٦) الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي (حيدراباد ١٣٤٩هـ)٨، الصاحبي لابن فارس، تحقيق أحمد صقر ١٩٧٧، ٨، ٥٨ «ولعل ظانا يظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد، وليس الأمر كذلك...».

٣٧) اللغة عند علماء العرب الأقدمين لاوديت بتي، مجلة الفيصل، العدد ٢١ (ربيع الأول ١٣٩٩هـ) ٦٤.

٣٨) محمود محمد شاكر في مقدمته لكتاب : الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي (نشرة الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية — شتودكارد ١٣٩٨/١٩٧٨) ٣٤.

٣٩) الظاهرة القرآنية ٢٢، ٦٤.

٤٠) ابراهيم انيس: دلالة الألفاظ، نقلا من كتاب: خطوات في النقد ليحيى حقي (القاهرة د.ت، بعد سنة ١٩٥٩) ٢٠٨ — ٢٠٩.

٤١) اللغة العربية بين القاعدة والمثال، (نشره نادي القصيم الأدبي — بريدة ١٤٠١هـ)، ١٧ وأنظر كذلك : الترادف في اللغة لحاكم مالك الزيادي (نشرته وزارة الاعلام العراقية) بغداد ١٩٨٠.

٤٢) الترادف في اللغة ١٨٧.

٤٣) خطوات في النقد ليحيى حقي ٢١٨.

٤٤) المصدر نفسه.

٤٥) ماريو باي: أسس علم اللغة ٧٠، التطور اللغوي وقوانينه لرمضان عبد التواب، مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الامام محمد بن سعود، عدد ٥ (١٣٩٥) ١٠١ — ١٩٣.

٤٦) الأسلوب لشفيق جبري، مجلة المجمع العلمي العربية بدمشق، جـ ٣—٤ (١٣٣٩هـ) صفة ٢١٧ وما بعدها.

٤٧) أنظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق: حروف التاج وعلامات الترقيم (جـ ١ مجلد ١٢ ١٩٣٢، ٢١ وما بعدها) وانظر كذلك القسم الأول من المقال (جـ١، مجلد ١٠، ١٩٣٠)، حاجة الحروف العربية إلى الاصلاح (جـ ٥—٦—٧—٨—١١—١٢ لسنة ١٣٥٤هـ).

وانظر أيضا : البحث في العربية لمارون غصن، ما هكذا يا سعد تورد الابل لسليم الجندي، النحت وسيلة لتوسع اللغة لمارون غصن، جـ ٣—٤ مجلد ١٤ لسنة ١٣٠٠ هـ ، كلمة حياد لسعيد الأفغاني، جـ٧ ، مجلد ١٥ لسنة ١٣٥٦ هـ ،بحث في اللغة لزكي مغامز، جـ١١—١٢ مجلد ٩ لسنة ١٣٤٨ هـ، كتابة الحركات بحروف عربية. ويحي حقي من الداعين المتحمسين إلى كتابة العربية بالحروف المتقطعة والى اقتباس الألفاظ الأجنبية كما هي، اندفاعا من تلهفه للوصول إلى الحتمية والصمت، انظر: خطوات في النقد ٢٢٨، ٢٣٥.

٤٨) أيار وحزيران (١٩٢٣) ١٨٣، كان الياس قدسي نصرانيا، أنظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق جـ١١، مجلد ٩ لسنة ١٣٤٨هـ، ٦٥٠ — ٦٥٢.

٤٩) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق جـ ٧، مجلد ٩ لسنة ١٩٢٩، ٤٣٨.

٥٠) التبشير والاستعمار لمصطفى الخالدي وعمر فروخ (بيروت ــ صيدا ١٩٧٣، ط٥) ٢١٢.

٥١) المصدر نفسه ٢٢٤ ــ ٢٣٢.

٥٢) مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ــ الرياض، العدد الأول لسنة ١٣٩١، ١٢٩ ــ ١٣٨، ومقال عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ في العدد نفسه ١ــ٣، ومقال عبد الخالق عضيمة في العدد السادس ١١ــ ١٠٦ «النحو بين التجديد والتقليد»، ومقال محمد محمد حسين «تطوير قواعد اللغة العربية» في المجلة نفسها، العدد السابع لسنة ١٣٩٧، ٥١ــ٦٤، ومقاله النفيس: «فقه اللغة بين الأصالة والتغريب» في المجلة نفسها، العدد ١١ (١٤٠١ هـ) ١٧٩ ــ ٢٣٤. وانظر كتاب : دفاع عن الفصحى لأحمد عبد الغفور العطار (بيروت ١٣٩٩هـ).

٥٣) من رأي انطون مطر: أن اللغة العربية لا يمكن استعمالها لأن لها طابعا دينيا وأن ليس للعرب لغة قومية علمانية، أنظر مجلة الفيصل، العدد ٢، السنة الأولى (شعبان سنة ١٣٩٧هـ) ٢٧ ــ ٢٨.

٥٤) اللغة العربية بين القاعدة والمثال (مطبوعات نادي القصيم الأدبي ــ بريدة (١٤٠١هـ) ٦٢.

٥٥) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق جـ ٩ مجلد ٢ لسنة ١٩٢٢، ٢٨٤.

٥٦) أنظر مقالة : اللغة معركة وجود ... أيضا لصالح الشهوان في جريدة الرياض السعودية الصادرة بتاريخ ١٤٠٢/٤/٩ ورد محمد علي جكاك في الجريدة نفسها في مقاله: قصور اللغة العربية من أهلها.

٥٧) مظاهر التعريب لمحمد تاويت الطنجي، مجلة اللسان العربي، جـ١ مجلد١ لسنة ١٣٩٢، ٥٦ــ٦٠.

٥٨) أنظر ما كتبه أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري ــ حفظه الله ــ في معنى السناجة في كتابه: اللغة العربية بين القاعدة والمثال ٦٦.

٥٩) زكي مغامز: بحث في اللغة العربية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، جـ٧، مجلد ١٥ لسنة ١٣٥٦، ٢٦٢، ٢٦٨.

٦٠) أنظر مقالة يوسف كركوش السرياني في مجلة الأديب البيروتية، جـ٨ لسنة ١٩٥٨.

٦١) مجلة المورد البغدادية، مجلد ٩، العدد الأول لسنة ١٤٠٠هـ، ١٩ ــ ٢٦.

٦٢) كتاب فقه اللغة لعلي عبد الواحد وافي، ط٤ (١٣٧٥/١٩٥٦) ٢٠٥ وما بعدها.

٦٣) الزجاجي : علل النحو ٦٥، نقلا من مقال: رد على كتاب المفتاح لتعريب النحو لعبد الفتاح بحيري إبراهيم (مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، العدد الأول لسنة ١٣٩٧، ٦١٨.

٦٤) أصالة النحو العربي، مقال للشيخ عبد الله بن أحمد الخثران، مجلة كلية اللغة العربية ــ جامعة الامام محمد بن سعود، العدد ١١ لسنة ١٤٠١، ٣١٥ــ٣٢٤.

٦٥) مقدمة ابن خلدون ٣٥٨.

٦٦) المقابسات، تحقيق محمد توفيق حسين (بغداد ١٩٨٠) ٥٨.

٦٧) المصدر نفسه : ١٢١، ١٢٤.

٦٨) أنظر مقال: أثر الفكر الفلسفي في الدراسات النحوية لتوفيق محمد سبع، مجلة كلية اللغة العربية/ جامعة الامام، العدد٨ لسنة ١٣٩٨، ١٨١ــ٢٣٢.

٦٩) لسان العرب «أصل»، طبعة بولاق ١٦/١٣.

٧٠) أنظر مقال: البلاغة بين اللفظ والمعنى لنعيم الحمصي، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية) مجلد ٢٥/٢٤ لسنة ١٩٤٩/١٩٥١.

٧١) لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء لأبي منصور الثعالبي (بتحقيقي ــ لايدن ١٩٧٨) ٧٩.

٧٢) حاضر العالم الاسلامي ٢٢٤/١.

٧٣) البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة ١٣٦٨/١٩٤٨)، ٢٢٤/١.

٧٤) الأذكياء لابن الجوزي (القاهرة ــ المطبعة الشرفية ١٣٠٤) ٤٤.

٧٥) كتاب الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة ١٣٥٦هـ) ٣٢/١.

٧٦) أحمد مطلوب: الجاحظ والفصاحة، مجلة المورد البغدادية، مجلد ١٤، عدد ١ (١٩٨٢) ٤٣.

٧٧) الايضاح (القاهرة د.ت.) ٩، نقلا من مجلة المورد نفسها، صفحة ٥٨.

٧٨) كتاب الصناعتين، تحقيق البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم (١٣٧١/١٩٥٢) ٨.

٧٩) البيان والتبيين ٨/٢.

٨٠) المصدر نفسه ٢٥٤/١.

٨١) الحيوان ٣٦٦/٣.

٨٢) أسرار البلاغة ٣، نقلا من دراسات في الأدب والنقد لعبدالله بن عبد الرحيم عسيلان، (دار العلوم ــ الرياض ١٤٠٢هـ) ٦٤.

هَـــدْيُ كامـــل المبـــرد

عبده عبد العزيز قلقيله
أستاذ في قسم اللغة العربية بكلية الآداب
جامعة الملك سعود

هذا الكتاب مرجوم بأثافي الشر، وقد رماه الدكتور محمود شاكر القطان بثالثة الأثافي حين حققه للمرة الثالثة على أنه «اختيار الممتع في علم الشعر وعمله» كما سماه، وما أحراه بعد أن يعرف جسامة الخطأ الذي وقع فيه وتمرس به أن يتمثل بقول خفاف بن ندبة :

وإن قصيدة شنعاء مني إذا حضرت كثالثة الأثافي

○ ○ ○

ولا يسع المرء إلا أن يسأل :

هل افقر تراثنا حتى يتعاقب على مخطوط واحد ثلاثة علماء ثانيهم وثالثهم في جامعة واحدة بل في قسم واحد؟!!.
ومن عجب أنهم قد تواردوا على الخطأ.

وهذا يعني أن الثاني قد قلّد الأول، وأن الثالث قد قلد الأول والثاني، كما يعني أن التقليدين قد تما دون تبصر.

ويعظم الخطب إذا كان التحقيق الأول رسالة ماجستير، والتحقيق الأخير رسالة دكتوراه، فأين كان المشرف؟!!.

لكن يظهر أن مشرف هذا الزمان لم يعد يحقق ويدقق، ويتابع ويراجع، بل لم يعد يقرأ، وهي مجازفة مسرفة في التفريط وممعنة في الخطر.

□

أقول ذلك وأمامي الجزء الأول من «اختيار الممتع في علم الشعر وعمله، لأبي محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي المتوفى سنة ٤٠٥هـ» تحقيق الدكتور محمود القطان.
وأبادر فأقول إن هذا العنوان خطأ.

فأبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي المتوفى سنة ٤٠٥هـ لم ينهض باختيار الممتع بل بتأليف الممتع، هذا كل ما هنالك، والقطان مخطىء في إضافة ما ليس للنهشلي إليه، بل في إضافة ما ليس بشيء أصلاً إليه، فلا يوجد في تراثنا مخطوط اسمه «اختيار الممتع». لكن وهم محمد محمود بن التلاميد الشنقيطي فزعم أن «هدى كامل المبرد» ــ ومؤلفه مجهول ــ قطعة من اختيار الممتع، وتشبث المنجى الكعبي بهذا الزعم فحققه ونشره تحت عنوان «اختيار من كتاب الممتع في علم الشعر وعمله».

وحذا محمد زغلول سلام حذوه فحققه ونشره تحت عنوان جرىء هو : «الممتع في صنعة الشعر».

وها هو ذا القطان يعيد تحقيقه ونشره منفرداً بخطأ جديد هو نسبته ــ بعد أن سماه «اختيار الممتع» ــ إلى النهشلي.

وواضح أنه لم يفطن إلى الخلل في عنوان تحقيقه الذي هو في الأصل عنوان رسالته للدكتوراه.

لكن إذا كان طالب الدكتوراه لم يفطن إلى ذلك، فلماذا لم يُفطِّنه مشرفه ؟!. بل لماذا لم تُفطِّنه لجنة المناقشة؟!.

وقد كرر الباحث هذا الخطأ في ص٣١ من مقدمة تحقيقه بقوله: «هذه المخطوطة لكتاب اختيار الممتع لأبي محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي نسخة وحيدة...».

□

وتتجاوز غلاف الكتاب وورقة عنوانه لنجد الورقة الثانية فيه قد اقتصرت على الفقرة الآتية، وهي معنونة هكذا :

الإهــداء
شكر وتقدير

« أقدم خالص شكري وعظيم تقديري للسيد الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب جامعة الإسكندرية جزاء ما قدم من نصح وإرشاد».

د. محمود شاكر القطان

ونسأل : أفي هذه الفقرة ما يشعر بإهداء ؟
ونجيب : كلا. بل خالص شكر وعظيم تقدير ليس إلا.

ولم يكن ثمة داع إلى هذا التقدير، ولا إلى ذلك الشكر، فبحسب المشرف من ذلك ما جاء في ص ٤٦ على لسان المحقق قال:

«وبعد : فهذا هو مجهودي المتواضع في هذه الرسالة، والذي [كذا] يحق لي أن أفخر بأنها تمت بإشراف العالم الجليل الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة الذي كان له الفضل الأعظم عليَّ حتى من قبل إعداد هذه الرسالة، وذلك حين اتصل بيني وبين سيادته حبل أستاذيته لي في الدراسات العليا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ــ جامعة الإسكندرية منذ سنة إحدى وسبعين وتسعمائة وألف.

فلسيادته من أجل ذلك جزيل الشكر وعظيم الامتنان وأحر الدعوات إلى الله سبحانه وتعالى بأن يحفظه للعلم سادنا، وللدراسات الأدبية راعيا وهاديا، وبأن يسبغ الله عليه وافر نعمه، ويلبسه ثياب الصحة والعافية».

ولا يسعنا إلا أن نقول : آمين.

لكن ألم يكن هذا الثوب الفضفاض من الشكر والامتنان والدعاء كافياً ومغنيا عما استقلت به الورقة الثانية من الكتاب؟.

أجيب : بلى، وما أظن الأستاذ المشرف راضيا عنه، ولعله لو استشير فيه لرفضه قانعاً بما جاء بعده وهو ما سبق ذكره.

□

وبعد ورقة الإهداء الذي ليس إهداء نجد تقديم المشرف على الرسالة، وهو يستهله بقوله: «لا تزال كنوز كثيرة من تراثنا مستورة في مكانها تحتاج إلى ذوي المنة وأولى العزم لاستخراجها، وقد اعتدت أن أوجه طلابي في الدراسات العليا ممن أثق في قدرتهم وعزمهم إلى هذا السبيل الوعر يمهدونه في ثبات وصبر، ويشقونه في دأب حتى يصل إلى غايته».

وأسأل : كيف يكون النص المحقق مرتين والمنشور في دولتين عربيتين كنزاً مستوراً يحتاج إلى ذوى المنة وأولى العزم لاستخراجه؟!!!!

ثم كيف بالله يسمح مجلس قسم اللغة العربية في آداب الإسكندرية بتسجيل موضوع للدكتوراه، سبق أن حصل به طالب على درجة الماجستير في قسم اللغة العربية بآداب القاهرة؟!!!.

أم هو الفرق بين الجامعتين والكليتين والقسمين حتى أن موضوع الماجستير في جامعة القاهرة تؤخذ به الدكتوراه في جامعة الإسكندرية ، وبعد أكثر من عشرة أعوام دراسية؟!!!!.

أقول ذلك وقد قرأت تقديم المشرف كاملاً، وأنهي إليه أنني لم أقتنع بما قاله تبريراً للمضي بتحقيق القطان إلى غايته المبيتة وهي منحه به درجة الدكتوراه، وقد فاتت عليه بذلك فرصة العمل في حقل غير موطوء بأقدام الكعبي وسلام. وليته ــ وقد مضى في اثرهما ــ قد استقل بالنظر عنهما، لكنه بكل أسف قد جاء صورة مكررة لهما، وعلى وجه التحديد للكعبي.

ونمضي في تقديم المشرف، فنرصد من تجوزه بل من تجاوزه ما يأتي:

(أ) قوله : «فوجهته إلى كتاب اختيار الممتع في صنعة الشعر لعبد الكريم النهشلي القيرواني وهو من علماء النقد البارزين في القرن الخامس الهجري».

فأولا : اختيار الممتع — على فرض وجوده — ليس لعبد الكريم النهشلي كما هو مفهوم من نص عبارة المشرف.

وثانيا : النهشلي مات سنة ٤٠٥ هـ وهو بهذا من نقاد القرن الرابع أكثر مما هو من نقاد القرن الخامس.

(ب) قوله : «وأن يحقق هذا الأثر النفيس الذي لم يشك كلانا في أنه لعبد الكريم النهشلي بتتبع نقول ابن رشيق عنه ومقابلتها بما هو موجود في هذا المنتخب».

وقد أبنت في كتابي [المقنع في أن «هدى كامل المبرد» ليس «الممتع»] إن «هذا الأثر النفيس» لا يمت بصلة إلى ممتع عبد الكريم النهشلي، وأن ما فيه مما جاء في العمدة منسوبا إلى عبد الكريم النهشلي لم يزد على ثلاثة نصوص ونصف النص، منها نص هو سطر واحد نستخلصه من قول ابن رشيق:

(وذهب قوم منهم عبد الكريم إلى أن معنى قوله «كجلمود صخر حطه السيل من عل» إنما هو الصلابة، لأن الصخر عندهم كلما كان أظهر للشمس والريح كان أصلب).

ونص هو جملة واحدة نستخلصه كذلك من قول ابن رشيق : «وزعم عبد الكريم وغيره أن يوم فيف الريح هو يوم طلح».

[العمدة جـ٢ ص٩٣، ٢١٤ وانظر المقنع ص١٦٥ — ١٩٣].

(جـ) قوله: «ولكني حرصت على مراجعة عمل المنجى الكعبي، ويشهد الله أنني وجدت فيه كثيراً من الأخطاء في تحرير النص وقراءته وفي ضبط الشعر وتخريجه حتى أيقنت أن إعادة تحقيق المخطوط أمر واجب..

ولم أشأ أن يتأثر (القطان) بعمل المنجى الكعبي فلم أضع بين يديه النسخة الوحيدة التي أمدني بها من تونس الصديق الكريم الأستاذ الحبيب اللمسي».

وأقول للدكتور هدارة :

إن تصحيح أخطاء رسالة ماجستير لاينبغي بل لا يمكن أن يكون رسالة دكتوراه.

كما أقول له: إن نسختك وحيدة لأن الإنسان لا يقتني نسختين من كتاب واحد، ثم إن حجبك عن تلميذك نسختك الوحيدة تلك ليس موقفاً سليما علمياً، وأنا متأكد من أنه جلب لنفسه نسخة خاصة به وضعها في كمه الأيمن، ووضع نسخة الدكتور سلام في كمه الأيسر وبدا كما حكى عنترة:

هزجاً يحك ذراعه بذراعه ... قدح المكب على الزناد الأجذم

○ ○ ○

وبعد المشرف نجد أنفسنا مع الباحث في [بين يديْ التحقيق] كما قال.

ونأخذ عليه قوله في ص ١١ :

« وجاء في النقد الأدبي في المغرب العربي منقولاً عن بعض المصادر ....» والنص المنقول ستة أسطر .

أقول للدكتور قطان بعدها :

إذا كان ما جاء في «النقد الأدبي في المغرب العربي» منقولاً عن بعض المصادر، فلماذا لم تستمد أنت هذه المصادر رأساً بدلاً من أن تستمد مصدراً وسيطاً؟.

وهل يجوز في شرعة التأليف أن توثق الكتاب الذي امتحنه وذكرته في الأصل لأول مرة بإعادة اسمه في الهامش مع رقمي ٦٩، ٧٠ ؟!!!

ثم أين اسم المؤلف الذي دأب كالنحلة وقطف لك ولغيرك ستة الأسطر تلك من :

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي جـ١ ص٢١٥ ومن المغرب العربي لرابح بونار صفحات ١٦٧، ١٦٨، ٢٨١.

ومن تاريخ الجزائر العام لجيلالي صفحات ٢٩٠، ٣١٥، ٣٥٢؟!!!!

إن هذا التصرف في نظري يخدش الأمانة العلمية.

□

ومن المآخذ التي نأخذها على القطان قوله في صفحتي ٢٣، ٢٤ من [بين يديْ التحقيق]: «وبعد دراسة كتاب عبد الكريم [كذا] يمكن أن نوجز بعض آرائه النقدية التي استطعنا أن نستخلصها منه وهي كما يلي :

١ ــ القرآن الكريم أفضل كلام العرب وأعزه وأكرمه.

٢ ــ عجز خطباء العرب وشعرائها عن الاتيان بمثل القرآن الكريم.

٣ ــ القرآن الكريم يجل عن سجع المتكهنين، ويعظم عن وزن المتكلفين.

٤ ــ أصل الكلام منثور، ولكن العرب لما رأته يند عليهم وينفلت من بين أيديهم، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم، تدبروا الأوزان والأعاريض فأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء فكان الشعر.

٥ ــ اغتفروا الضرورة في الشعر، ولم يغتفروها لغيره، رغبة في تخليد أخبارهم.

٦ ــ أفضل بيان العرب وأفصحه ما أداه عنها الشعر.

٧ ــ لا ينبغي لعاقل أن يتعرض لشاعر.

٨ ــ العرب تمدح فترفع، وتهجو فتضع.

٩ ــ فضّل عبد الكريم الفرزدق على جرير في الهجاء، وجعله أحسن من قال المقطعات في زمانه، وأكثر نوادر ومضحكات.

١٠ ــ لولا شعر الفرزدق لذهب كثير من أيام العرب وأخبارها.

١١ ــ كان الشاعر في الجاهلية إذا نبغ في قبيلة ركبت العرب إليها فهنأتها به لذبهم عن الأعراض.

١٢ ــ كانت العرب لا تعدل بالشعر كلاما، لما يفخم من شأنهم وينبي من ذكرهم.

١٣ ــ الشعر أدنى مروءة السرى، وأسرى مروءة الدنى.

١٤ ــ لولا الشعر ما عرف جود حاتم وكعب بن مامة وهرم ابن سنان وأولاد جفنة، وإنما أشاد بذكرهم الشعر.

١٥ ــ في الشعر التباط بالقلوب ومدخل لطيف إلى النفوس ومعز شاف وواعظ ناه يأوي إليه المحروب ويسكن إليه المحزون.

١٦ ــ خير كلام العرب وأشرفه الشعر.

١٧ ــ الشعر ترتاح له القلوب، وتجذل به النفوس، وتصغي إليه الأسماع، وتشحذ به الأذهان، وتحفظ به الآثار، وتقيد به الأخبار.

□

هذا الاسترسال الذي وصل بالمحقق أو وصل به المحقق إلى الرقم ١٧ يتوزع على بدائه وإضاءات دينية أو أدبية أو اجتماعية أو تاريخية، ولا يوجد فيها ما هو فرز فني ــ ذوقي أو عقلي ــ يمثل رأياً نقديا أو قضية نقدية تحتمل القبول والرفض ويتنازعها الإيجاب والسلب، بمبررات القبول والإيجاب ، أو بمبررات الرفض والسلب.

إذ ماذا في عجز خطباء العرب وشعرائها عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، بل بمثل سورة من سوره، أو آية واحدة من آياته؟!.

وهل تفريغ القرآن الكريم من السجع أو عدم تفريغه منه إلا موقف ديني، وعلى أحسن الفروض موقف بلاغي؟!.

وسواء كان هذا أو ذاك فالخلاف فيه لا يتعدى التسمية، وهي تتردد بين أن تكون (السجع) أو (الفواصل).

وماذا في اغتفار العرب الضرورة في الشعر، برغم الصياغة الركيكة في قول المحقق [ولم يغفروها لغيره]، وبرغم خطئه في الربط بين اغتفارهم الضرورة في الشعر ورغبتهم في تخليد أخبارهم.

فلم تكن الرغبة في تخليد الأخبار ولن تكون سببا في اغتفار الضرورة الشعرية.

إن هي إلا موسيقى الشعر الخارجية من وزن وقافية.

ومع عدم التسليم بأن رقمي (٦) و(١٦) من الآراء النقدية، أقرر أنه لا فرق بينهما وبين ما تخللهما وأتى قبلهما وبعدهما تحت أرقام [٤]، [١١]، [١٢]، [١٥]، [١٧] من حيث المضمون، وما تكرار هذا المضمون إلا تكلف وتزيد.

وأرفع صوتي سائلاً:

هل قول القائل: «لاينبغي لعاقل أن يتعرض لشاعر» رأي نقدي أو قضية نقدية؟!!!

□

ونخرج من (بين يدي التحقيق) لندخل في النص المحقق، فنصدم بأن القطان قد فعل ما فعله الكعبي مخطئا وسلام مقلداً من تنكيس الكتاب المحقق، لقد جعل الأربع عشرة ورقة الأولى من المخطوط آخره.

لماذا؟.

للشيء نفسه الذي قاله الكعبي وقلده فيه سلام وهو «أن هذا الباب [باب العفو عمن أذنب] مقحم على الكتاب؛ فموضوعه لا صلة له بموضوع اختيار الممتع الذي عقده عبد الكريم للدفاع عن الشعر [ضد مَنْ؟ لا أعرف] ولأن عنوان هذا الباب لا يشف عما فيه من مواد، فلا صلة بين العفو عمن أذنب وبين ما احتواه الباب من أشياء».

هذا ما قاله القطان في ص ٣٥ من [بين يدي التحقيق]، وقد غفل عن إحالة مؤلف «هدى كامل المبرد» في ص ٩٩ من تحقيقه على ما رآه هو مقحما على الكتاب وليس منه فأزاحه عن موضعه وجعله ملحقاً به، ولست أدري لماذا ــ وهو مقحم على الكتاب وليس منه ــ يكون ملحقاً به؟!!.

لكنه التقليد غير المبصر وغير البصير للكعبي، ولا عجب فقد سبقه إلى ذلك رئيس قسم اللغة العربية بآداب الإسكندرية الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام.

قال مؤلف (هدى كامل المبرد):

«قال الأعشى لشريح بن عمران بن السموأل بن عاديا يذكره وفاء أبيه ليتأول ذلك فيه وقد أسره بعض الملوك من قضاعة ونزل ضيفا على شريح بن السموأل:

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به:-

الأبيات، وقد تقدمت قبل هذا في ذكر من وفى لجاره».

ولنكتب بأحرف من نور قول المؤلف: [وقد تقدمت قبل هذا في ذكر من وفى لجاره]، لماذا؟.

لما قلته في [المقنع] من أنها الدليل الذي لا يدحض ولا ينقض على أن كتاب «هدى كامل المبرد» قد تعرض للحطم على أيدي محققيه الثلاثة: أما الكعبي فقد تنبه إلى هذه الإحالة، لكنه ــ ويا للعجب ــ لم ينزل على حكمها ولم يعمل بمقتضاها.

وأما مدرسة الإسكندرية: رئيس قسم اللغة العربية وطالب الدكتوراه بهذا القسم فلم ينتبها لها، وكان هذا مع تعودهما تقليد الكعبي سببا مزدوجاً لوقوعهما في الخطأ نفسه.

□

بقي لنبطل حجة الأستاذ المشرف في المضي بالتحقيق الثالث لكتاب «هدى كامل المبرد» إلى غايته المسبقة وهي منح صاحبه به درجة الدكتوراه، بعد أن حصل الكعبي بالتحقيق الأول له على درجة الماجستير.

أقول: بقي لذلك أن نأخذ ــ عشوائيا ــ ثلاثة نماذج من تحقيقَي الكعبي والقطان، وننظر فيها؛ لنرى:

أكان تحقيق القطان عملاً جديدا ومستقلاً عن تحقيق الكعبي أم أنه يشبهه حتى ليكاد أن يكونه؟!!.

وهذه الموازنة ليست مقصودة لذاتها، بل لما سيترتب عليها من موافقة الدكتور هدارة أو مخالفته.

والموافقة تعني أن من حق طالب الدراسات العليا في جامعة الإسكندرية أن يأخذ موضوعاً للدكتوراه سبق أن أخذه طالب في جامعة القاهرة موضوعاً للماجستير، بل سبق أن حصل به على درجة الماجستير وطبعه ونشره.

أما المخالفة فتعني أنه ــ احتراماً لقسم اللغة العربية بآداب الإسكندرية ــ لا يصح أن يأخذ طالب الدراسات العليا فيه موضوعاً للدكتوراه سبق أن أخذه غيره موضوعاً للماجستير أو للدكتوراه فيه أي في قسم اللغة العربية بآداب الإسكندرية نفسه، أو في أي قسم آخر في أية جامعة أخرى، ومن يخالف ذلك يكون مسيئاً إلى قسمه وكليته وجامعته قبل أن يكون مسيئاً إلى نفسه، ولمصلحة البحث العلمي وطلابه، تجب مساءلته.

□

أذكر أنني قصدت الأستاذ الدكتور شوقي ضيف ــ أطال الله عمره ــ في بيته بالروضة صحبة صديقي الحميم الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ رحمه الله ــ ليساعدني في اختيار موضوع للدكتوراه فاختار لي «شروح التلخيص دراسة تاريخية نقدية مقارنة».

لكن في صباح اليوم التالي اتصل بي وأخبرني أنه تذكر أن موضوع «شروح التلخيص..». مسجل للدكتوراه من قبل الطالب العراقي أحمد مطلوب.

وبمشورة الأستاذ الجليل أحمد الشايب ــ رحمه الله ــ سجلت «النقد الأدبي في العصر المملوكي» بعد أن تأكدت الكلية بمكاتبات رسمية من أنه لم يُسجل في جامعة أخرى. أجل فقد كان ذلك قانونا، ومبلغ علمي أنه لم يُلغ، فما بال الإخوة في قسم اللغة العربية بآداب الإسكندرية يخالفون القانون؟!!! لا أملك الإجابة.

والنماذج الثلاثة هي :

ــ ١ ــ

من باب في الأنفة عن السؤال بالشعر

«ويقال عن جميل بن معمر العذري إنه ما مدح أحداً قط أنفةً، وصحب الوليد بن عبد الملك في بعض سفره، والوليد على نجيب، فرجز به ابن العذري فقال :

يا بكر هل تعلم مَنْ علاكا   خليفة الله على ذراكا

فقال الوليد لجميل : انزل فارجز، وظنه يمدحه، فقال:

أنا جميل في السنام من معد   في الذروة العلياء والركن الأشد

وأخذ في مدح نفسه وقومه، فقال : اركب لا حملك الله.

وعامة قضاعة لا يزعمون أنهم من معد، وإنما ينسبون في قحطان، وجميل عذرى من قضاعة يزعم أنه من معد كما ترى، وكذلك يقول نسّابو ربيعة ومضر، يقولون : قضاعة من معد بن عدنان، وبقضاعة كان يكنى معد. قال الزبير بن بكار: وعلماء قضاعة يرون أنهم من معد، والشعراء منهم كذلك مثل جميل والقطامي والكميت بن زيد وإبراهيم بن هرمة».

[اللوحة ٨٨ ب من المخطوط والكعبي ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤ والقطان جـ١ ص ٣٠١ ــ ٣٠٢]

انتهى النص الأول.

وهذه هوامش الكعبي عليه :

(أ) انزل فارجز وظنه يمدحه فقال[٢].

يا بكر هل تعلم مَنْ علاكا   خليفة الله على ذراكا

وهامش رقم (٢) هذا هو : «البحر الرجز) ص ٢٣٣.

(ب) أنا جميل في السنام من معد
في الذروة العلياء والركن الأشد
وأخذ في مدح نفسه وقومه فقال : اركب لا حَمَّلك الله»[١] ص٢٣٤ وهامش رقم (١) هذا هو:

«ديوانه : ٥٦ و١٥٤، الأغاني: ٩٩/٧ [دار ١٣٣/٨]، تاريخ دمشق ٣٩٥/٣، العمدة : ٥١/١ = ٨٤/١، الأشراف : ١٧ ويروى عجز بيت جميل من الأغاني :

[في الأسرة الحصداء والعيص الأشد]

الحصداء : القوية، العيص: الأصل، وابن العذري هو : مكين العذري الشاعر، وأخباره في الأغاني: ٤٨/٥ و ٧٣/٦ و٩٣/٧. والخبر الذي أورده المؤلف هنا منقول خطأ في تاريخ دمشق والعمدة، ففيهما أن البيت :

يا بكر هل تعلم ....

لجميل، وليس له في الحقيقة، إنما هو لمكين العذري، وفي العمدة، وكذلك في أنساب الأشراف أن الوليد قال لجميل: «اركب لا حُملت»، وفي الأغاني «اركب لا حملك الله» وفي كليهما بالحاء المهملة، وليس كذلك كما يعطي السياق، وإنما الوليد يعرض باسم جميل فقال له: «اركب لا جَمَّلك الله».

(جـ) «وبقضاعة كان يُكنى معد» (٢) ص٢٣٤.

وهامش رقم [٢] هذا هو :

«الجمهرة : ٤١١، صبح الأعشى: ٣١٦/١، نهاية الأرب: ٢٩٤/٢، العبر: ٢٤٧/٢».

ثم هذه هوامش القطان :

(أ) ترجمتان موجزتان لكل من جميل والكميت مع ذكر مصادر هاتين الترجمتين وقد وردت الترجمة الأولى في ص٣٠١ والترجمة الثانية في ص ٣٠٢.

(ب) فرجز به ابن العذري فقال (٣) ص ٣٠١.

وهامش رقم (٣) هذا هو : انظر نسب قريش (٦) وفيه أن البيت لابن العذري مكين.

(جـ) فقال الوليد لجميل : انزل فارجز وظنه يمدحه فقال (٤) ص٣٠١، وهامش رقم (٤) هذا هو :

«أنظر ديوان جميل بثينة ٢٥ (ضمن خمسة دواوين) ونسب قريش٦، والأغاني جـ ٩٠/٨».

(د) أنا جميل في السنام من معد

في الذروة العلياء والركن الأشد (٥)

ص٣٠١.

وهامش رقم (٥) هذا هو :

«في الأغاني

.... في الأسرة الحصداء والعيص الأشد».

(هـ) فقال : اركب لا حملك الله [٦] ص٣٠١.

وهامش رقم (٦) هذا هو :

«انظر الخبر في نسب قريش ٦، والأغاني جـ١٣٣/٨، والعمدة جـ٥١/١».

(و) وعامة قضاعة (أ) يزعمون أنهم من معد ص٣٠١.

وهامش رقم (أ) هذا هو :

«زاد الناسخ «لا» سهواً فحذفناها».

(ز) قضاعة من معد بن عدنان (٧) ص ٣٠١.

وهامش رقم (٧) هذا هو :

«انظر المعارف لابن قتيبة ٦٣، وأنساب الأشراف جـ١٥/١، وجمهرة أنساب العرب ٤٤٠».

(ح) وبقضاعة كان يكنى معد (١) ص ٣٠٢.

وهامش رقم (١) هذا هو :

«انظر أنساب الأشراف جـ١٥/١ وجاء فيه زيادة على ذلك أن معداً كان يكنى أبا نزار وأبا حيدة».

(ط) والشعراء منهم (٢) كذلك ص٣٠٢.

وهامش رقم [٢] هذا هو :

«انظر نسب قريش ٥، والأغاني جـ٩٠/٨».

□

وبالموازنة بين هوامش النص لدى المحققين : الكعبي أولاً والقطان ثانياً نجد أن هوامش الكعبي ذات إفادات أكثر وأكبر من إفادات القطان، فمعظم هوامش القطان عبارة عن: انظر انظر انظر.

وأغلب إحالاته على كتب سبق أن ذكرها الكعبي.

وتخصّص أكثر فنقول :

الهامش (ب) موجود بنصه في الكعبي ويمكن لهذا أن نقول: أنه مأخوذ منه، وكذلك الهامشان (د)، (هـ).

أما الهامش (و) فخطأ محض، وجرأة على النص المحقق لا تقرها أصول التحقيق.

وإذا كان الكعبي قد تمرس بالخطأ نفسه صامتاً فإن القطان قد تمرس به صاخباً.

لقد حذف [لا] من قول المؤلف: «وعامة قضاعة لا يزعمون أنهم من معد».

ثم قال بتفتك يُحسد عليه : «زاد الناسخ [لا] سهواً فحذفناها».

والحقيقة أن الناسخ لم يسه؛ فعامة قضاعة لا يزعمون أنهم من معد كما كتب المؤلف أولا والناسخ ثانيا، وهم لذلك ينسبون في قحطان.

وإذا كان جميل قد زعم أنه من معد، فلأنه ليس من عامة قضاعة بل من خاصتها لخصاله الذاتية التي منها أنه لم يمدح أحداً قط أنفةً، ثم هو شاعر، وقد قال الزبير بن بكار في النص الذي معنا:

«وعلماء قضاعة يرون أنهم من معد، والشعراء منهم كذلك مثل جميل والقطامي والكميت بن زيد وإبراهيم بن هرمة».

□

ويحق لنا الآن أن نسأل :

هل ما بين التحقيقين من فروق في الهوامش يصلح مبرراً كافياً لإعادة تحقيق المخطوط للمرة الثالثة؟!.

وأسرح من ذلك أن نقول :

هل أضاف القطان إلى هوامش الكعبي إضافةً كانت تعوزنا في فهم النص المحقق؟!.

وإذا لم يكن قد أضاف شيئاً كما رأينا وكما كان متوقعاً بل أخذ. فلماذا حكم على نفسه أو حكم عليه بأن يجلس إلى مائدة سبقه إليها اثنان هما الكعبي وسلام؟!!!.

ولو أن سلاماً لم يمنح النص الذي معنا بل لم يمنح الصفحات ١٦٢ ـــ ١٦٤ في تحقيقه إلا هامشاً واحداً مستمدا من أحد هوامش الكعبي قال:

«أورده ابن رشيق في العمدة مع تصرف في رواية الخبر٨٤/١». لكنه ـــ والحق يقال ـــ كان على مستوى الفهم للنص حين لم يحذف منه (لا) التي حذفها القطان تقليداً للكعبي لكن بعد أن تحذلق فتزحلق.

— ٢ —

من باب [النهي عن تعرض الشعراء]

«قال ابن سلام : كان الفرزدق إذا أصاب دراهم أتى بها النوار فتمسك بعضها وتعطيه بعضاً ....»

[لوحة رقم ١١٣ ب والكعبي ص٣٠٥ ـــ ٣٠٦ والقطان جـ١ ص٣٧٧].

يقول الكعبي في الهامش رقم (٢) ص ٣٠٥ تعليقاً على [قال ابن سلام]:

«هذا الخبر مما لا يوجد في الأخبار المنقولة عن ابن سلام في كتابه طبقات فحول الشعراء، ولكن محقق الكتاب الأستاذ محمود شاكر أدخله ضمنه [ص ٢٨٢ ـــ ٢٨٣] في ترجمة الفرزدق لما وجده معزواً لابن سلام في الأغاني: ٤٧/١٩ والمبرد: ٧٠ ـــ ٧٢ على أن الخبر في هذين المصدرين غير كامل كما أورده النهشلي (كذا) هنا، وفيه اختلاف في العبارة انظر المبرد تحقيق محمد أبوالفضل ١١٩/١».

أما القطان فقد علق على (قال ابن سلام) نفسها بالآتي:

«في طبقات فحول الشعراء ص ٢٨٢ ـــ ٢٨٣ وانظر كذلك الأغاني جـ٣٩١/٢١ والكشكول ١٥٦».

□

وأجدني بعد النظر في هذين الهامشين متوجها بالسؤالين الآتيين إلى الأستاذ الدكتور هدارة وهما :

أي الهامشين أجدر بأن يكون في رسالة دكتوراه:

هامش الكعبي أم هامش القطان؟؟.

ثم ألا زلت عند رأيك من أن إعادة تحقيق المخطوط كان أمراً واجباً؟!!.

ـ ٣ ـ

من باب [المهيرات والسراري]

«قال الزبير: حج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وحج معه بأبي حزرة القاضي يعقوب بن مجاهد وأسعث بن جبير مولى ابن الزبير في جماعة من ولد عثمان، فظن العرجي أن محمد بن عبدالله يتكلم فيه ويخرجه فلم يفعل، وخرجوا في النفر الأول فقال العرجي:

عذرتني عمي إلى الضعف ماهم … وخالي فما بال ابن عمي تنكبا
تعجل في يومين عني بنفسه … وآثر يعقوبا على وأشعبا
ولو كنت من آل الزبير وجدتني … بمندوحة عن ضيم من ضام أجنبا
بأمن فلا تحتاثي الطير ساعة … وناط على البدر قارن كوكبا
ولكن قومي عزهم ذل أمرهم … أراذلهم من بين سقطي وأجربا

○ ○ ○

عولت في نقل هذا النص على المخطوط فقط، وهو في اللوحة ١١٩ب، ولما قرأته في تحقيقي الكعبي والقطان، وجدت أن الكعبي قد التزم بما جاء في الأصل عدا نقط الشين في [أشعب] وهو عنده في ص ٣٢٤.

أما القطان فقد أحدث به تغييرات منها:

(أ) قال المؤلف: «حج محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان وحج معه بأبي حزرة القاضي يعقوب بن مجاهد...».

والتغيير الذي أحدثه القطان في كلام المؤلف هو: «وحج معه أبو حزرة....».

وكلام المؤلف معناه عجز أبي حزرة عن الحج، ومن أجل عجزه عن الحج حُجَّ به على نفقة أو برعاية محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان، وهو معنى سليم ومستقيم، لا بأس به ولا غبار عليه.

والكلام بعد تغيير القطان له معناه أن أبا حزرة حَجَّ قادراً على الحج في ركب محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان.

وهو كذلك معنى سليم ومستقيم، لا بأس به ولا غبار عليه.

لكن ما الذي يلجئنا إلى التغيير والمعنى على ما جاء في الأصل صحيح؟!.

وقد علق الدكتور القطان على التغيير الذي أحدثه بقوله في هامش رقم (أ) ص ٣٩٤: «في الأصل أبى».

والحقيقة ليست كذلك بل (بأبى)، ولست أدري لِمَ لمْ يقل الصدق؟!.

(ب) جاءت كلمة [أشعث] لدى الكعبي، و[أشعب] لدى القطان في الأصل هكذا [أسعث].

أما الكعبي فقد كمَّل الشين من عنده، لكنه ملَّك الياء النقاط التي فوقها، وكان الناسخ قد أبهمها بعدم نقطها فصارت ثاءً وصار الاسم [أشعث].

أما القطان فقد استفاد من قافية البيت الثاني في جعل الكلمة [أشعب] ولو أنه ضبط [عليَّ] هكذا [علَى] بإسقاط الشدة، ولعله خطأ مطبعي.

(جـ) في الأصل «فظن العرجي أن محمد بن عبدالله يتكلم فيه ويخرجه فلم يفعل» وقد جعل الكعبي كلمة (يُخْرجه) مضمومة الياء ساكنة الخاء ثم راء وجيم وهاء: مادة [خرج].

أما القطان فجعلها [يَجْرحه] مفتوحة الياء ساكنة الجيم ثم راء وحاء وهاء: مادة [جرح].

ومعنى القطان صحيح وواضح وملائم للمعطوف عليه قبله، لكنه خلاف الأصل، وكان عليه أن يثبت الأصل ثم يشير في الهامش إلى ما يريد الإشارة إليه، لا أن يُغَيِّر في صمتٍ وكأن ما أمامنا هو الأصل.

(د) غير القطان كلمة [تحتاثي] في البيت الرابع، وهي من أحاثت الخيل الأرض إذا دقتها كما قال الكعبي عن اللسان مادة (حوث) إلى (تحتانني) وهو غير محق في هذا التغيير الذي نفذه بالطريقة السابقة نفسها أي في صمت وكأن ما أمامنا هو الأصل.

ومن الأخطاء المطبعية عند القطان ما نجده:

في كلمة [يعقوبا] في البيت الثاني؛ فالعين مضمومة.

وفي كلمة [الزبير] في البيت الثالث؛ فقد جاءت بالزاي المشددة المفتوحة وبياء بعد الزاي.

وفي كلمة [وجدتني] في البيت نفسه؛ فتحت يائها كسرتان.

وفي كلمة [بمندوحة] بعد [وجدتني] فباؤها ساكنة ومفتوحة معاً.

وفي كلمة [قومي] في البيت الخامس، ففوق واوها ضمة.

□

وقد جارى القطان الكعبي في النقل بأمانة عن الأصل دون فهم حين استبدل [عزهم] ـــ من العز ـــ بالفعل [غرَّهم] ـــ من الغرور ـــ في البيت الخامس، مع أن الشاعر قد أعقب هذا الفعل بجملة دعائية معترضة بينه وبين فاعله [أراذلهم]، والجملة المعترضة وهي [ذلَّ أمرهم] فعل وفاعل، فالراء مضمومة، لكن الكعبي أخطأ فضبطها بالفتح، وسلم القطان من الخطأ بعدم الضبط.

□

وعن هوامش النص :

فهذه هوامش الكعبي :

(أ) قال الزبير (١) ص ٣٢٤.

وهامش رقم (١) هذا هو :

«لا وجود لهذا الخبر الذي ذكره الزبير بن بكار في أي كتاب من الكتب التي رجعنا إليها، وكذلك لم يشر محققا ديوانه إليه رغم كثرة مصادرهما وتنوعها، بل لقد أسفنا [انظر دراستنا على هذا الكتاب وصاحبه]لافتقاد الكتاب الذي ألفه الزبير بن بكار عن العرجي وأشعاره، وفي احتفاظ الممتع [كذا] بهذا النص أهمية كبيرة تضاف إلى أهميانه الكثيرة [انظر التعليق (١) في ص٣٢١].

والتعليق (١) في ص ٣٢١ يتعلق كذلك بشعر للعرجي أوله:

زارتك ليلى وكالى السجن قد رقدا
ولم تخف من عدو كاشح رصدا

قال الكعبي :

«البحر البسيط. هذه الأبيات لا توجد في ديوانه برواية ابن جنى ولا ذيله المكون من أشعاره المتفرقة في كتب الأدب، والمصادر التي روجعت عليهاأخباره وقصائد ديوانه، تحقيق خضر الطائي ورشيدالعبيدي ، طبع بغداد ١٩٥٦، وليس في ديوانه سوى ثلاث قصائد بهذا الروى، إحداها من هذا البحر وهو البسيط (ص١٣٢)، ورغم أن جوها متوافق، واسم ليلى مذكور بها إلا أن هذه القطعة قد تكون من قصيدة أخرى.

ثم لا مجال لأن نشك في نسبة هذه الأبيات للعرجي ما لم نقف عليها أو على غيرها ـــ على الأقل ـــ منسوبا لغير العرجي.إذن فقد احتفظ لنا كتاب الممتع (كذا) بشيء من شعر العرجي مما لا يوجد في ديوانه، ولا في المصادر الأدبية التي بين أيدينا.

(ب) وخرجوا في النفر الأول فقال العرجي [٢] ص٣٢٤.

وهامش رقم [٢] هذا هو :

«يخلو ديوانه من هذه الأبيات، ولا يوجد به غير قصيدة واحدة من هذا البحر الطويل، وبهذا الروى (ص١٢٤) ولكنها في الغزل وليست منها هذه الأبيات قطعا».

□

انتهت هوامش الكعبي.

وليس للقطان على هذا النص إلا هامشان هشّان هما:

(أ) مولى ابن الزبير [٧] ص ٣٩٤.

وهامش رقم [٧] هذا هو :

«انظر الأغاني جـ ١٣٦/١٩، ١٣٧».

(ب) فقال العرجي [٨] ص ٣٩٤.

وهامش رقم [٨] هذا هو :

«لم أجدها في ديوان العرجي».

□

وقبل أن أضع القلم أقول بكل الصدق :

إن الأخطاء بجميع أنواعها في تحقيق القطان أكثر من مثيلاتها في تحقيق الكعبي.

ولو طبقنا كلام الدكتور هدارة عن تحقيق الكعبي على تحقيق القطان لمنحنا من يصححه له درجة دكتوراه أخرى.

□

وأنبه إلى أن مقالي هذا إنما هو ردُّ فعل لتحقيق القطان.

أما تحقيق الكعبي أولاً وسلام ثانيا، فد تكفل بالرد عليهما والتصحيح لهما كتابي :

[المقنع في أن «هدى كامل المبرد» ليس «الممتع»].

[دار الرياض للنشر والتوزيع ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م]

وأستأذن الدكتور القطان في أن أهديه إليه، لأنه ــ بتحقيقه «هدى كامل المبرد» على أنه اختيار الممتع ــ قد صار مقصوداً به كالدكتورين الكعبي وسلام.

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت.

ألا هل بلغت ؟.

اللهم فاشهد.

مشروع البحث ومصادر المعلومات في علم المكتبات والمعلومات

أحمد بدر
أستاذ المكتبات والمعلومات
جامعة الملك عبد العزيز بجدة

تقديم :

يعتبر إعداد اقتراح البحث أو مشروع البحث مرحلة هامة من مراحل العملية البحثية. ولعل كلمة اقتراح أقرب إلى ما يقصده الكاتب هنا، فاقتراح البحث هو الذي يزودنا بالسمات الأساسية Profile للمشروع المتوقع. وعلى الرغم من أن البحث العلمي يتضمن خطوات عديدة،[1] إلا أن الكاتب قد ربط في هذا المقال بين اقتراح البحث وإعداده، وتعرف الباحث الكامل على مصادر المعلومات في مجاله، ولعل ما دفع الكاتب إلى هذا الربط والاهتمام، هو إندفاع العديد من طلاب الدراسات العليا إلى تسجيل موضوع أو اقتراح بحث غير مدروس، أملاً في إحراز السبق على زملائهم .. وإذا كان هذا السلوك نفسه بعيداً عن الأخلاقيات التي ينبغي أن يتحلى بها الباحث العلمي، إلا أن هذا السلوك يعكس عدم المعرفة بالأصول العلمية الواجب اتباعها أيضا.

فاقتراح البحث هو بمثابة وثيقة تصف العناصر الأساسية للدراسة التي سيقوم بها الباحث في المستقبل، ويمكن تشبيهها بالرسم التخطيطي للمهندس المعماري Blueprint الذي يقدمه قبل أن يبدأ في البناء. فمشروع البحث الجيد في النهاية هو نتيجة طبيعية عادة لاقتراح البحث الأولى المصمم بدرجة عالية من الدقة.

وتعتبر العديد من الجامعات أن تقديم «اقتراح البحث» هو أحد المتطلبات التي يكمل بها الطالب إجراءات تسجيله لدرجة الماجستير أو الدكتوراه[2] .. حيث يقدم هذا الاقتراح للجنة بحوث مشكلة من بعض أعضاء هيئة التدريس لقبوله أو رفضه. ويعتبر هذا الاقتراح ــ بعد قبوله ــ بمثابة تعاقد بين الطالب والمعهد العلمي التابع له، كما يعتبر أيضا كمرشد للباحث أثناء بحثه المستقبلي.

إن مرحلة اختيار موضوع البحث وتخطيط مشروعه، تعتبر من أكثر مراحل البحث أهمية، إذ قد تتطلب هذه المرحلة وقتا أطول من البحث نفسه، كما أن مراجعة الانتاج الفكري في المجال يعتبر نقطة الانطلاق الأساسية للقيام بالبحث الجاد .. ذلك لأن فحص الانتاج الفكري بعناية، سوف لا يساعد الباحث فقط بالنسبة للعثور على موضوع لبحثه لم يسبقه إليه أحد، ولكن هذه القراءة ستساعده على تحديد المنهج الملائم للمشكلة المختارة، والأدوات اللازمة لتجميع البيانات وكيفية تحليلها وتقديمها.

---

١ ــ ينبغي للقارىء أن يراجع هذه الخطوات في كتاب المؤلف : **أصول البحث العلمي ومناهجه**. ط٧. الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٨٤م، خصوصا الفصول الخاصة بخطوات البحث واختيار المشكلة ووضع الفروض وإعداد التقرير النهائي، وذلك للارتباط العضوي بين هذه الموضوعات واقتراح البحث.

2 - George R. ALLEN. **The Graduate Students Guide to Theses and Dissertations:** A Practical Manual for Writing and Research. San Francisco, Calif.: Jossey Bass, 1973, p. 34.

وعلى الرغم من اختلاف مشروعات أو اقتراحات البحوث في الشكل، إلا أنها تتضمن عادة : تحديداً للمشكلة ــ مراجعة للانتاج الفكري ــ تحديد البيانات اللازمة ومصادرها ــ مناهج البحث وأدواته ــ كيفية تحليل البيانات المجمعة وعرضها وتقديمها.(٣). كما يمكن للطالب الاستعانة بالمرجعين التاليين لاعداد المشروع الناجح :

★ Ammon - Wexler, Jill and apCarmel, C. **How to write a Winning Proposel**, Santa Cruz, Calif. : Mercury Communications, 1976.

★ Orlich, D. and Orlich, Patricia. **The Art of Writing Successful R & D Proposals**, Pleasant ville, N.Y. Redgrane, 1977.

أولا : المكونات العامة لمقترح البحث(٤) Research Proposal

أ ــ العنوان :

يجب أن يعكس العنوان بدقة المحتوى الموضوعي لمشروع الرسالة ومجالها، ويجب أن يكون العنوان معبرا بوضوح عن الموضوع، أي ألا يكون في العنوان غموض أو لبس. وعلى سبيل المثال، فإن عنوانا مثل «المكتبات والقراءة» يعتبر عنوانا غامضا وعاما بدرجة كبيرة، ولكن العنوان التالي «تأثير برامج القراءة الصيفية المكتبية على التحصيل العلمي للطالب» يعتبر أكثر تحديدا ووضوحا ويعكس طبيعة الدراسة بدقة وتحديد، ولكن يجب التأكيد على تجنب العناوين المسرفة في الطول كلما أمكن ذلك.

ب ــ مشكلة البحث

وهذه قد يضعها الباحث على هيئة سؤال، أو على هيئة بيان واضح Declarative Statement. إن محاولة الباحث التركيز على هدف واضح سيبين لنا الاتجاه الذي ستسير فيه العملية البحثية .. ويجب أن تكون المشكلة ذاتها محددة في نطاقها وذلك حتى يتمكن الباحث في النهاية من أن يضع نتائج محددة .. وقد يتلو السؤال أو البيان الرئيسي بعض الأسئلة أو الفقرات الفرعية. إن المشكلة المحددة التي يضعها الباحث توحي عادة بإجابة أو نتيجة محددة. ويمكن للباحث عند عرضه لمختلف وجهات النظر المتعارضة أن يقترح هو علاقة سبب وأثر Cause - Effect Relationship بناء على ملاحظاته أو خبرته.

ومن بين الأسئلة التي يمكن أن تصلح كمشكلة للبحث [هل يظهر الطلاب الذين درسوا «مقررا في كيفية استخدام المكتبة» تفوقا أكاديميا على الطلاب الذين لم يدرسوا هذا المقرر؟].

جـ ــ الفرض :

من الملائم في هذه المرحلة صياغة فرض رئيسي وربما عدة فروض أخرى فرعية. وهذا المسلك يوضح طبيعة المشكلة ومنطقية البحث، كما يعطى مؤشرا لعملية تجميع البيانات ومن المعروف أن الفرض الجيد له عدة شروط منها :

ــ أن يكون معقولا.
ــ أن يتفق مع الحقائق والنظريات المعروفة في المجال.
ــ أن يوضع بطريقة تسمح باختباره لاثبات صحته أو خطئه.
ــ أن يعبر عنه بمصطلحات بسيطة.

وفرض البحث هو إجابة مبدئية على سؤال البحث، أي أنه تخمين معقول للحل المتوقع، ويتم إثبات صحته أو خطئه عن طريق اختباره بالمعلومات والبيانات المجمعة.

ولعل وضع الفرض قبل تجميع البيانات يكون أكثر ملاءمة، حتى لا يتهم الباحث بالتحيز، ويمكن للباحث أن يضع فروض إضافية بعد تجميعه للبيانات ولكن هذه الفروض الجديدة، لابد

---

٣ ــ يمكن للقارىء مراجعة أحد هذه الأشكال في كتاب المؤلف: **دراسات في المكتبة والثقافين**. ط٢. جدة، دار عكاظ، ١٩٨٤م، هذا وقد أعد الأخ الزميل الدكتور هشام عباس عميد شئون المكتبات بجامعة الملك عبد العزيز حاليا، أعد «مشروعا للبحث» أثناء توليه منصب وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث، ويعتبر اقتراح البحث هذا هو المعتمد رسميا بكلية آداب جامعة الملك عبد العزيز في الوقت الحاضر.

٤ ــ أنظر في ذلك على سبيل المثال : Best, J.W. **Research in Education**. 4thed. New Jersey, Prentice, Hall, 1981, pp. 38-41.

أن يتم اختيارها بناء على بيانات ومعلومات جديدة أيضا، وليس بناء على المعلومات القديمة التي أدت إلى اقتراحها.

د ــ دلالة المشكلة وأهميتها :

لابد أن يكون الباحث قادرا على بيان أهمية المشكلة ودلالتها، وذلك عندما يوضح لنا كيفية الاجابة على السؤال الذي وضعه أو الوصول إلى حل للمشكلة التي يتصدى لدراستها، وكيف يؤدي ذلك إلى الاسهام في النظرية أو الممارسة في مجال المكتبات والمعلومات؟ أي كيف يمكن للباحث أن يبرر دراسته لهذه المشكلة على اعتبار أن حلها سيملأ فراغا في المعرفة العلمية في المجال وأنه بالتالي سوف لا ينفق الوقت والمال والجهد بلا مبرر علمي.

ما أكثر الرسائل التي تملأ رفوف المكتبات الجامعية، دون أن يقترب منها أحد، لا لجهلهم بها، بل لأن هذه الرسالات لا تحمل معها معيارا هاما هو «الدلالة» Significance .. ومع اتساع نطاق علم المكتبات والمعلومات وحدوده التي تتصل بمختلف فروع العلوم الاجتماعية وتخدم وتفيد كل الباحثين في جميع أنواع المعرفة .. فإن الباحث لن يعدم المشكلات ذات الدلالة التي يتصدى لحلها أو على الأقل إعطاء البدائل والاختيارات الأفضل.

إن صدق الباحث وتمكنه من مادته، سيتأكد من مناقشة الخلفية التاريخية للمشكلة، وبالتالي فإن مشروعات البحوث المتكاملة، تتضمن عادة شرحا لكيفية الوصول إلى «المشكلة موضع الدراسة» مع بيان المناهج والأساليب التي سبق اتباعها في الماضي، لمحاولة حل هذه المشكلة أو المشكلات القريبة منها.

هـ ــ التعاريف والافتراضات والصعوبات التي تواجهها الدراسة وحدودها :

Definitions, Assumptions, Limitations and Delimitations:

من الواجب على الباحث أن يقوم **بتعريف** جميع المصطلحات غير العادية التي يمكن اساءة تفسيرها، وهذه التعاريف نفسها من شأنها توضيح مسلك الباحث في معالجته للمشكلة. هذا وينبغي تعريف المتغيرات Variables تعريفا إجرائيا In operational Terms والتعبير الذي قد يستخدمه الباحث مثل «التفوق الأكاديمي» أو «الذكاء» هو تعبير يعكس مفهوما مفيدا، ولكنه لا يستخدم كمعيار إلا إذا تم تعريف هذا التعبير كسلوك يمكن ملاحظته (وهذا هو معنى التعريف الاجرائي). وفي هذه الحالة فإن الدرجات الأكاديمية التي يضعها الأستاذ يعتبر تعريفا إجرائيا للتفوق الأكاديمي وهكذا بالنسبة للذكاء فإن التعريف الاجرائي يتضمن بيان العمليات التي يقوم بها الباحث ليكشف عن وجود الصفة التي تمثل مفهوم الذكاء، وفي هذه الحالة فإن الباحث يعطي عددا من الأطفال فصلا من كتاب ليقوموا بقراءته وتلخيصه والذين يقومون بهذا العمل بنجاح يمكن وصفهم بالذكاء.

أما **الافتراضات** Assumptions **فهي** بيانات يعتقد الباحث أنها حقائق ولكنه لا يستطيع التحقق منها وعلى كل حال فقد يعتبر الافتراض في دراسة معينة هو نفسه الفرض (أي الحل المبدئي للمشكلة) كما هو الحال في الجملة التالية «عندما تضاف المواد السمعية والبصرية لمجموعة المكتبة فإن الأشخاص الذين لم تكن تجذبهم الأوعية المطبوعة، سيزيد استخدامهم للمكتبة».

أما الصعوبات Limitations **فهي** تعنى الظروف التي لا يستطيع الباحث السيطرة عليها وهذه الظروف قد تضع بعض التحفظات على نتائج الدراسة وتطبيقاتها على مواقف أخرى.

أما حدود الدراسة Delimitations **فهي** تدل على الحدود التي تقوم الدراسة بداخلها وبالتالي فإن النتائج لا تنسحب إلا على المجتمع الذي تم عمل معاينة له.

و ــ مراجعة الانتاج الفكري:

إن إعداد ملخصات لكتابات المؤلفين المعروفين في المجال وللبحوث السابقة، يزودنا بالدليل على معرفة الباحث بما هو معروف مسبقا وما هو غير معروف ولم يتم اختباره. والبحث

الجاد لابد أن يعتمد على المعرفة المسبقة، وذلك للمعاونة في عدم تكرار ما سبق بحثه، وكذلك تزويد الباحث بالفروض المفيدة.

إن تسجيل الباحث للاشارات البيليوجرافية والأعمال التي تتفق مع وجهة نظره والأعمال التي تقدم نتائج مختلفة يساعد في تحديد ووضوح مجال مشكلة البحث ووضع القارىء في الصورة الحاضرة. إن استعراض قائمة طويلة من الدراسات المشروحة والمتعلقة بالمشكلة لا يعتبر صحيحا كما أنه غير مؤثر على القارىء الواعي.

وينبغي أن تتضمن هذه المراجعة الدراسات القريبة من دراسته مع بيان الاجراءات التي اتبعتها في تجميع البيانات وكذلك المعاينة ونوعها والمتغيرات الداخلية والخارجية فضلا عن التوصيات ببحوث أخرى.

إن إبراز مراجعات وتعليقات الباحثين الخبراء المشهورين يمكن أن يفيد في تقديم الأفكار والمقترحات ... وعلى الرغم من أن الكاتب قد أورد «مراجعة الانتاج الفكري» كخطوة سادسة في مشروع البحث، فإن مراجعة الانتاج الفكري هي إحدى الخطوات الأولى في عملية البحث نفسها وهي تصاحب الباحث بعد ذلك حتى يصل إلى النتيجة.

ز ــ التحليل التفصيلي لاجراءات البحث المقترحة :

وهذا الجزء من اقتراح البحث يضع الإطار العام لخطة البحث فهو يشرح ما سيتم عمله وكيف سيتم وما هي البيانات المطلوبة وما هي وسائل التجميع وكيف ستختار العينات وطريقة تحليل البيانات وما إذا كان سيستخدم الحاسب الآلي مثلا .. الخ.

ح ــ الجدول الزمني :

على الرغم من أن هذه الخطوة غير مطلوبة للجنة الحكم على اقتراح أو مشروع البحث، إلا أنها مفيدة للباحث حيث تجعله يستخدم وقته وميزانيته بكفاءة. وهناك بعض المراحل التي لا يمكن أن تبدأ إلا بعد انتهاء مراحل أخرى .. وبعض الأجزاء كمراجعة الانتاج الفكري يمكن أن تتم وأن تطبع أثناء تجميع الطالب لبياناته الخام..

وقد يطلب المشرف من وقت إلى آخر تقرير تقدم بحث Progress Report وربما يكون ذلك حافزا للطالب ومعاونا له في التقدم برسالته بطريقة أكثر منهجية وتنظيم.

ثانيا : مصادر المعلومات في علم المكتبات والمعلومات:

مقدمــــــة :

إن المعرفة الانسانية كلها يمكن أن توجد في المكتبات ومصادر المعلومات، وذلك فيما عدا البيانات والمعلومات الخام والتي يجمعها الباحث لأول مرة كمعلومات أولوية لم يسبق أن جمعت ووضعت في كتاب أو وثيقة أو مقال..

فالانسان يبني معلوماته على المعلومات المسجلة والمجمعة من قبل وإن كان البعض يذهب إلى القول بأن الباحث المعاصر يفضل بداية البحوث واجرائها من جديد، عجزا عن الوصول إلى ما سبق من معلومات أمام ثورة المعلومات وتفجرها، وإن كان هذا الأمر مبالغا فيه نظرا لتوفر مراصد المعلومات المحسبة إلى جانب أشكال المراجع المختلفة التي تسعف الباحث في جميع أنواع المعلومات ما دام يعرف كيف يستخدمها.

وإذا كانت الجامعات العربية الحديثة كجامعة الملك عبد العزيز بجدة وجامعة الكويت وغيرهما تقدم مقررات إجبارية أو اختيارية عن مناهج البحث وكيفية استخدام المكتبة والمراجع أملا في مزيد من استخدام مصادر المعلومات في إعداد تكليفاتهم وبحوثهم، فما أكثر الذين تخرجوا من جامعاتنا العربية، ولم تطأ أقدامهم أرض المكتبة الجامعية!.

ولما كان هذا المقال الذي بين أيدينا **موجه لخريجي أقسام المكتبات والمعلومات** أو للذين سيقومون ببحوث عن المكتبات والمعلومات بعد اجتيازهم لمقررات منهجية مهنية لن يتطرق الكاتب إلى ما ينبغي أن يعرفه الطالب عن كيفية استخدام فهرس المكتبة والفهرس الموحد الذي يضم مجموعات عديدة من المكتبات المشتركة في هذا المشروع التعاوني، وكذلك نظام

التصنيف المتبع [ديوي أو الكونجرس أو العالمي. ألخ]. وكذلك أشكال أوعية المعلومات المختلفة [الميكروفورم ــ الوسائل السمعية والبصرية ــ الرسائل ــ المخطوطات ــ التقارير الفنية .. الخ].

ولكن الكاتب سيذكر هنا بعض مصادر المعلومات التي تعكس التحكم البيليوجرافي في الانتاج الفكري ومعظم هذه المصادر باللغة الانجليزية، وإن كان على الطالب أن يبدأ بحثه **بفحص وتجميع الدراسات المسبقة المنشورة باللغة العربية** من المصادر التالية :

المصادر العربية :

- ☐ عبد الهادي، محمد فتحي. الانتاج الفكري العربي في مجال المكتبات والمعلومات. ــ ط٢. الرياض : دار المريخ للنشر، ١٩٨١. ــ ٣٩٤ ص. وهو يغطي الفترة من ١٩٠٠ ــ ١٩٧٥ م.
- ☐ عبد الهادي، محمد فتحي. الدليل البيليوغرافي للانتاج الفكري العربي في مجال المعلومات : ١٩٧٦ ــ ١٩٨٠. ــ تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ادارة التوثيق والمعلومات، ١٩٨٣. ــ ٢٣١ ص.
- ☐ عبد الهادي، محمد فتحي. الانتاج الفكري العربي في مجال المكتبات والمعلومات: ١٩٨١، **القسم الأول**. ــ عالم الكتب ، مج٤، ع٣ (اكتوبر ١٩٨٣). ــ ص ٤١٤ ــ ٤٣٣.
- ☐ **القسم الثاني** : ــ عالم الكتب ، مج٤، ع٤ (يناير ١٩٨٤).
- ☐ كشاف تحليلي لمجلة التوثيق التربوي (بالعراق) للأعداد من ١ ــ ٢٣/ إعداد عاصم داود خطاب وليلى قدوري صالح. ــ بغداد، ١٩٨١. ١٦٦ ص.
- ☐ الكشاف التراكمي لمجلة رسالة المكتبة : ١٩٦٥ ــ ١٩٨١/ إعداد ربحي عليان، نجيب الشربجي.ــ رسالة المكتبة. ــ مج١٦، ع٤ (ديسمبر ١٩٨١). ــ ٨٤، ٢٦ ص.
- ☐ إبراهيم ، زاهدة
كشاف تحليلي لمجلة عالم المكتبات.ــ بغداد: المكتبة المركزية لجامعة بغداد، ١٩٧٢. ــ ٩٢ ص.
- ☐ عالم المكتبات. الفهرس الجامع للموضوعات والمقالات والبحوث التي نشرت في عالم المكتبات خلال السنوات الخمس الماضية ١٩٥٩ ــ ١٩٦٣. ــ القاهرة: دار عالم المكتبات، ١٩٦٣. ــ ٥٠ ص.
- ☐ المغرب. مدرسة علوم الاعلام.
دليل رسائل سلك الاعلاميين المتخصصين.ــ الرباط: المدرسة، ١٩٨٢. ــ ٤٢ ص.
- ☐ الرضاوني، أحمد
الرسائل المهيأة في السلك العالي لمدرسة علوم الاعلام: ببليوجرافيا. ــ الاعلامي. ــ س١، ع١ (اكتوبر ١٩٨١). ــ ص ٦٦ ــ ٧١.
- ☐ البكري، الجياد عباس
ثبت بالمؤلفات العراقية المتعلقة بالكتب والمكتبات: ١٩٧٥ ــ ١٩٧٩. ــ المكتبة العربية. ــ ع١ (١٩٨١).ــ ص ٦٧ ــ ١١٥.
- ☐ كشاف مجلة الكتاب العربي. ــ عالم الكتب.ــ مج١، ع٢. (اغسطس ١٩٨٠) ــ ص ٢٥٥ ــ ٢٨١.
- ☐ كشاف مكتبة الادارة : ٢ ــ المكتبات والمعلومات.ــ مكتبة الادارة. ــ س٧، ع١ (شوال ١٣٩٩[١٩٧٩]).ــ ص ١٣٥ ــ ١٤١.

لقد تضمنت هذه المصادر خصوصا مرجع الدكتور محمد فتحي عبد الهادي الأول بيانات عن المعاجم والتراجم والبيليوجرافيات والكشافات التي ظهرت منذ عام ١٩٠٠ وحتى أوائل الثمانينات.. كما يوصى القارىء بالرجوع

للبليوجرافيات الوطنية لمختلف الأقطار العربية مثل النشرة المصرية للمطبوعات، والنشرة العربية للمطبوعات (تونس) لمتابعة المطبوعات والكتب الحديثة.

وعلى كل حال فإلى جانب هذه المصادر، فإن أفضل مكان لاستكمال بحث الانتاج الفكري هو المراجع والبليوجرافيات الموجودة في الكتب والمقالات وتقارير البحوث. ومعظم التقارير عن الدراسات المكتملة، تحتوي على مراجع وبليوجرافيات عديدة وقوائم المطبوعات المتعلقة.

ويمكن فيما يلي أن نشير إلى البليوجرافيا المنشورة باللغة الانجليزية التالية حيث تكمل الانتاج الفكري العربي السابق الاشارة إليه :

★ Pantelidis, Veronica S.

The Arab World Libraries **and Librarianship** 1960 - 1976. A Bibliography. London, Mansell, 1979.

المصادر الأجنبية :

وينبغي قبل أن يشير الكاتب إلى **المصادر الأجنبية** أن يبين أن الطلاب عادة يضيعون وقتهم في البحث عن المراجع دون اتباع الطرق المنتظمة المنهجية.. فالبحث عن المصادر هي عملية لا تكاد تنتهي، ذلك لأن كل مصدر يؤدي عادة إلى قائمة من المراجع وهكذا..

البليوجرافيات والكشافات والمستخلصات :

1 - **Library Literature** : An Author and Subject Index (H. W. Wilson Co., 1934 to date).

يعتبر هذا الكشاف أهم المصادر الخاصة بالانتاج الفكري الجاري للدوريات والمقالات. وهو يصدر كل شهرين شاملا تحليلا لأكثر من مائتي دورية علمية في مجالات المكتبات والمعلومات. وينبغي الاشارة إلى أنه من بين الدوريات التي يتم تكشيفها الدوريات التالية التي تنشر بصفة دورية تقارير البحوث:

— The Library Quarterly
— Journal of the American Society for Information Science.
— Library Resources and Technical Services.
— Journal of Library History
— School Media Quarterly
— Journal of Academic Librarianship
— Special Libraries
— Journal of Library Automation
— Journal of Documentation
— College and Research Libraries.
— Information Processing and Management
— Drexel Library Quarterly.

والكشافات التي تنشرها شركة ولسن Wilson في المجالات الاجتماعية أو التربوية أو العلمية والتكنولوجية وغيرها تعتبر ذات أهمية للباحث خصوصا في المجالات التي تتزاوج مع المكتبات والمعلومات [كالتربية والمكتبة واجتماعيات المعرفة والحرية والرقابة في مجال نشر الكتاب والعلاقات العامة بمراكز المعلومات والتوثيق وإدارة المكتبات فضلا عن استخدام الحاسبات والبرمجة والأجهزة في مجال المكتبات والمعلومات... الخ] ويمكن فيما يلي أن نشير إلى هذه الكشافات مع نبذة تفسيرية عنها :

— **Education Index** (1929 to date)

هذا الكشاف التربوي ينشر بصفة شهرية وله تجميع سنوي وهو يكشف أكثر من مائتين وخمسين دورية بالاضافة إلى الكتب السنوية والنشرات المنشورة في أمريكا وكندا وإنجلترا.

— **Social Sciences Index** (1974 - date)

ويكشف حوالى (٢٦٣) دورية.

— **Humanities Index** (1974 - date)

وكان هذا الكشاف ضمن كشاف العلوم الاجتماعية والانسانية وذلك من عام ١٩٦٥ وحتى ١٩٧٣. وكشاف الانسانيات هذا يكشف حوالى (٢٦٠) مئتين وستون دورية.

— **New Studies:** A Guide to Recent Publications in the Social and Behavioral Sciences.

Beverly Hills, Calif.: Sage Publications, 1966- date.

وهذا المرجع يكشف ويشمل شارحات Annotations من أكثر من أربعمائة دورية وكذلك المراجعات والكتب والنشرات الأمريكية والأجنبية. ومما يذكر أن الشارحات تظهر في الدورية المسماة American Behavioral Scientist وتجلد كل سنة في مجلد واحد.

— **Applied Science and Technology Index** 1958- date.

وقد كان هذا الكشاف قبل هذا التاريخ جزءاً من Industrial Arts Index ، وهو يصدر شهريا ويجمع سنويا ويغطي أكثر من (٢٢٥) مائتين وخمسة وعشرين دورية في النواحي العلمية والتكنولوجية وكذلك الموضوعات المتعلقة.

— **Business Periodicals Index (1958 - date).**

وهو يصدر شهريا ويجمع سنويا، وهو يغطي أكثر من مائة وعشرين دورية في مجالات الادارة والتجارة والمحاسبة والتسويق والبنوك والمالية والادارة العامة وهي ما تهمنا.

إن الميزة الكبرى لهذه الكشافات أنها تنظم حسب مداخل المؤلفين والموضوعات في ترتيب هجائي واحد .. وهذا الترتيب يجعل الوصول إلى المواد المطلوبة بسرعة معقولة.

هذا وهناك العديد من **مراصد المعلومات** وهذه المراصد ــ كما هو معروف ــ تحتوي على تسجيلات مقروءة بالآلة Machine - Readable Records ويستخدم معظمها **على الخط المباشر** On - Line وهذه المراصد تحتوي على تغطية كافية للانتاج الفكري في مجال علم المكتبات والمعلومات.

ومن بين هذه المراصد ما يلي :

— Social Sciences Citation Index

☐ وهو كشاف الاستشهادات المرجعية **في العلوم الاجتماعية (امريكي).**

— INSPEC ☐ خدمات المعلومات

في الفيزياء وتكنولوجيا الالكترونيات والحاسبات والتحكم (انجليزي) والحروف الاستهلالية تدل على :

Information Services in Physics Electrotechnology, Computer, and Control (U.K.).

— ISA مستخلصات علم المعلومات

Information Science Abstracts

— LISA ☐ مستخلصات علوم المكتبات والمعلومات

Library and Information Science Abstracts.

— ERIC ☐ مركز معلومات المصادر التربوية (أمريكي)

Educational Resources Information Centre.

والقارىء يستطيع أن يستزيد من تفاصيل الافادة من مراصد المعلومات هذه والتعرف على تغطيتها في مقال هوكينز وميلر(٥). ولكن يمكن الافادة أيضا من المصادر المرجعية الالكترونية التالية:

— School Reseach Information Science (SRIS)

☐ خدمات معلومات البحوث عن المدارس. وتقوم جماعة في دلتا كابا Phi Delta Kappa بهذه الخدمة الاسترجاعية ومقرها في بلومنجتون، إنديانا.

وتستخدم أشرطة مركز معلومات المصادر التربوية (ايريك) وأشرطة الكشاف الجاري للدوريات في مجال التعليم ومصادر التربية كمراصد للمعلومات في خدمة (SRIS) . وتقدم هذه الخدمة صفحات مطبوعة بالحاسب الآلي Print Out بأجور رمزية.

5 - Hawkins, D.T. and Miller, B., «On-line Data Base Coverage of the On-line Information Retrieval Literature», **On - line Review,** 1 (1977): 59-64.

— Direct Access to Reference Information (DATRIX)

□ الدخول المباشر للمعلومات المرجعية

لقد انشأت مؤسسة University Microfilms في أن أربر ميشجان هذا النظام المحسب لاسترجاع معلومات عن مستخلصات الرسالات العلمية منذ عام ١٩٢٨ وحتى الآن. حيث يختار الباحث بعض الكلمات المفتاحية من قائمة المصطلحات الخاصة بنظام داتركس ,DATRIX وتقدم له الرسالات بالعنوان والمؤلف والصفحة والمجلد الموجودة فيه ضمن مستخلصات الرسالات واسم الجامعة المانحة للدرجة، وإذا ما أراد الباحث نسخة زيروكس أو ميكروفيش من هذه الرسالة فيمكنه الاتصال بمؤسسة Univ. Microfilms.

— Pschological Abstracts Search and Retrieval Service (PASAR).

□ خدمة استرجاع وبحث المستخلصات في علم النفس

ويمكن استشارة **الفهرس التجميعي** للمستخلصات النفسية لاختيار المصطلحات **الدالة المناسبة** لاستخدامها في طلب البحث والخدمة مقابل أجر رمزي.

هذا وهناك العديد من **القوائم البيليوجرافية** في علم المكتبات سواء **الجارية منها أو الراجعة** ومنها على سبيل المثال:

— Paul Wasserman's library Bibliographies and Indexes, A Subject Guide to Reference Materials (Gale Research CO., 1975).

— Library and Information Science Abstracts, Cumulative Index 1929 - 1973 (Learned Information, 1975).

وهناك أيضا اثنان من **المسلسلات الجارية** والصادرتان بواسطة Science Associates, International Inc. وهما تحتويان على **قوائم بالرسالات العلمية** والمؤتمرات القادمة والمنح والعقود المبرمة لاجراء البحوث فضلا عن الأخبار الحديثة بالنسبة لصناعة المعلومات.

ولمقارنة أدوات التكشيف الصادرة باللغة الانجليزية بالأدوات الصادرة باللغات الأخرى، يمكن للقارىء أن يرجع إلى المقال التالي:

— Tom Edwards, «Comparative Analysis of the **Major Abstracting and Indexing Services** for library Science,». **UNESCO Bulletin for Libraries**, 30: 18-25, January, 1976.

هذا وينبغي على الباحثين في الانتاج الفكري أن يكونوا على دراية بالبيليوجرافيات المتخصصة في مختلف فروع علم المكتبات والمعلومات والمنشورة في الدوريات العلمية أو الصادرة كأعمال منفصلة ومن أمثلتها ما يلي:

— Cooperation between types of libraries, 1940 - 68 (ALA, 1970), by Ralph H. Stenstrom.

— Bibliography on **Standards** for Evaluating Libraries, **College and Research Libraries** 32:127 - 144, March 1971 (By Signe Ottersen).

— Index to **User Studies** (The Hague, Netherlands: FID, 1974).

— **Instructional Materials** for Teaching the Use of the Library: A Selected Bibliography (San Jose, Calif: Clarmont House, 1975), by Shirley Hopkinson.

— **Programmed Instruction** in Librarianship: A Classified Bibliography of Programmed Texts and Other Materials (1960-1974).

Graduate School of Library Science, University of Illinois, (Occassional Papers, no. 124, 1976), by Henry M. Yaple.

— **Communication Research** in Library and information Science: A Bibliography on Communication in the Sciences, Social Sciences, andTechnology (Libraries Unlimited, 1975) by Thomas J. Waldhart and E.S. Waldhart.

— **Library Acquisitions:** A classified Guide to the literature and reference Tools, 2nd ed. (Libraries Unlimited, 1971), by Bohdan S. Wynar.

— Library **Technical Services:** A Selected Annotated Bibliography (Greenwood Press, 1977) by R.M. Magrill & C. Rinehart.

— «**Classification** Literature,» International Classification 5:47 - 62, March, 1976.

— **Map Librarianship**, Map Libraires, and Maps: A Bibliography 1921 - 1973.

(SLA, Geography and Map Div. Bull. 95: 2-35 +, March, 1974), by A. E. Schorr.

— «**Academic Library Cooperation** : A Selected Amnotated Bibliography,» **Library Resources and Technical Services**, 20: 270-286, Summer 1976), by Diane M. Chang.

— **Academic Library Instruction:** A Bibliography, 1960 - 1790 (Drexel Library Quartelrly 7: 327-335, July - Oct. 1971), by Allen Mirwis.

— Index to Research in **School Librarianship** 1960 - 1974 (U.S.

Dept of Health, Education and Welfare, National Institute of Education, 1976).

— **Reference Service** : An Annotated Bibliographic Guide (Libraries Unlimited, 1977), by Marjorie E. Munfin and L. R. Wynar.

— Planning, Programming, Budgeting Systems and **Management by Objectives, 3rd. (Smoothee Publications, 1974)**, by John I.. Noyce.

— Continuing **Professional Education** in Librarianship and other Fields: A Classification and Annotated Bibliography 1965-1974 (Garland Publishing, 1975) by Mary E. Michal.

وتنبغي الاشارة هنا إلى الخدمات التي يقوم بها مركز المعلومات التربوية (ERIC) والذي سبق ذكره، **فهو يصدر بعض** المطبوعات الهامة للباحثين في مجال المكتبات والمعلومات ومن بينها:

★ Resources in Education (RIE)

وهذه تحتوي على مستخلصات مطولة للانتاج الفكري وتقارير البحوث بما في ذلك دراسات المكتبات، كما أن طبعات الميكروفيش متوفرة بأسعار مناسبة ويمكن الحصول على قوائم مجموعات أريك للميكروفيش من العنوان التالي :

ERIC Documents Reproduction Services, Customer Services, P.O. Box 190, Arlington, VA 22210).

★ Current Index to Journals in Education (CIJE) (V. 1-1969-).

وهذا الكشاف يقدم لنا إشارات ببليوجرافية لحوالي (٧٨٠) دورية هامة في التربية والمجالات المتصلة.

ومن المفيد للباحثين الاطلاع على مكنز واصفات أريك Thesaurus & ERIC Desriptors الطبعة السابعة عام ١٩٧٧ حيث يستطيع الباحث تحديد الكلمات المفتاحية المتعلقة بموضوع بحثه، كما أن البحث الآلي متوفر أيضا في أريك بالحاسب الآلي في أي مكتبة بحثية كبيرة ومركز التوزيع Clearinghouse والخاص بمصادر المعلومات وهو موجود حاليا في جامعة سيراكيوز.

ومن المعروف أن المركز الوطني للعلوم والتكنولوجيا بالرياض وكذلك بعض مراكز المعلومات الوطنية كما هو الحال في الكويت ومصر والمغرب. لها خطوط اتصال مباشرة مع مراصد المعلومات العالمية ومن بينها أريك .

الرسالات العلمية ...

تعتبر الرسالات إحدى مصادر المعلومات عن البحوث المنتهية وهناك مصادر للرسالات المجمعة الراجعة ومصادر للرسالات الجارية ومنها :

★ Library Science Dissertations, 1925-1972: An Annotated Bibliography (Libraries Unlimited, 1974) by Gail A. Schlachter and Dennis Thomison.

★ Guide to theses and Dissertations An Annotated Bibliography of Bibliographies (Gale Research, 1975) by Michael Reynolds.

★ Doctoral Dissertations in Library Science: Titles Accepted by Accerdited Library Schools, 1930-1972 (Xerox University Microfilms, 1973).

★ Library and Information Studies in the United Kingdom and Ireland, 1950-74 (London, Aslib, 1976) edited by Peter Taylor.

وللتعرف على مشروعات **رسالات الدكتوراه الجارية فهناك** قوائم للموضوعات الموافق عليها وهذه تنشر بصفة دورية في:

Journal of Education for Librarianship

وينبغي أخيرا الاشارة إلى بعض رسالات الدكتوراه التي تحلل بحوث علم المكتبات والمعلومات وهي :

★ Library Education and Library Research: An Analysis of Institutional and Organizational Context (Rutgers Univ., 1975), by Ruth M. Katz.

★ Research in Library Science as Reflected in Core Journals of the Profession: A Quantitative Analysis (1950-1975) (Univ. of California, Berkeley, 1977), by Bluma C. Peritz.

★ Characteristics related to Productivity among Doctoral graduates in Librarinaship (Univ. of California, Berkeley, 1975) by Nancy Lane.

مصادر بيانات السير الذاتية

المعلومات عن الأمناء واخصائي المعلومات الذين أسهموا في تطوير المهنة يمكن الحصول عليها من مصادر عديدة من بينها:

★ **The Library Quarterly.**

حيث تحتوي أعدادها على قسم للسيرة الذاتية للمسهمين في بحوثها المنشورة :

* Dictionary of American Library Biography (Libraries Unlimited, 1977), Bohdan S. Wynar. (ed).
* Directory of American Scholars, 4vols (1978), Bowker CO.
* Contempory Authors (Gale Research, 1962 to date).

حيث يحتوي على معلومات بيليوجرافية وعن السيرة الذاتية أيضا:

* Biography Index (Wilson, 1946...)

ويبحث فيه الطالب الباحث عندما لا تتوفر له المادة في المصادر السابقة.

القواميس والموسوعات

تفيد العديد من الموسوعات والقواميس الطالب في كتابة مقترح البحث أو مشروع البحث ومنها ما يلي:

* Elsevier's Dictionary of Library Science, Information and Documentation in six languages (Elsevier Scientific, 1973) Compiled by W.E. Clason.
* Encyclopedia of library and information Science, vol I - (Dekker, 1968 to persent...) edited by Allan Kent, Harold Lancour and Jay E. Daily

وهي تحتوي على مقالات مطولة يعقبها بيليوجرافيا والطالب الباحث يستطيع أن يفيد من مختلف الموسوعات في التربية والعلوم الاجتماعية والعلوم والتكنولوجيا خصوصا مع الموضوعات ذات الترابط بين المكتبات وهذه الدراسات.

الأدلة والموجزات المرشدة

أهم المصادر التجميعية ما يلي :

* American Library Directory, 1979-1980, 32nd ed. (Bowker, 1979) ed. by Jaques C. Press.
* AL A Handbook of Organization 1978-79 (ALA, 1978).
* Directory of Special Libraries and Information Centers, 3vols. 5thed. (Gale. Research, 1979).
* Alice H. Songe's International Guide to Library, Achival and Information Science Associations (Bowker Co, 1976).
* British Library Rersources: A Bibliographic Guide (Mansell, 1973), by Robert B. Downs.

مصادر دراسة الحضارة الإسلامية

مصطفى أبو شعيشع
أستاذ مساعد في قسم المكتبات والمعلومات
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
بجامعة الملك عبد العزيز — جدة

إن الحضارة (١) الاسلامية التي ازدهرت وأخذت شكلها النهائي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، لم تأت عفواً. فقد كان للعرب قبل الاسلام حضارة لم تكن دون حضارة الآشوريين والبابليين تقدما. وكان لهم عدا الآثار القليلة التي كشف عنها، لغة ناضجة وآداب راقية، كما كان لهم أيضا صلاتهم التجارية بدول العالم خارج جزيرتهم. فالعرب كان لهم ثقافة سابقة مستمرة، وقد استطاعوا أن يبدعوا حضارتهم الزاهرة بعد خروجهم من جزيرتهم في مدة قصيرة.(٢)

فالحضارة القائمة تكون دائما خلاصة أو انتقاء لما في الحضارات السابقة، وإن أضافت إليها عناصر جديدة، حتى تتميز بشخصية خاصة، فالحضارة أخذ وعطاء، ونتيجة مشتركة لعناصر قديمة وأخرى جديدة، وأن القديم والجديد يوجد بعضه بجانب بعض كما يحجب بعضه البعض، وأحيانا يغير بعضه على بعض.(٣) فبعثة النبي صلى الله عليه وسلم في الجزيرة العربية ودعوته الى الاسلام، بدأت تظهر حضارة جديدة مرتبطة بالاسلام كدين ودولة وتاريخ سواء في نشأتها أو خلال نموها أو حين إزدهارها، وصار لها أثر كبير في تقدم البشرية يفوق أثر أية حضارة أخرى من الناحية الانسانية.(٤)

ونبعت هذه الحضارة من أصول وأسس كان لكل منها دوره في نشأتها وخصائصها ومُثلها؛ أهمها القرآن الكريم، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته، وأمة العرب، واللغة العربية، والشعوب التي اعتنقت الاسلام والاطار الجغرافي. وذلك بالاضافة إلى بعض التأثيرات الأجنبية التي وصلتها من الحضارات السابقة عليها والمعاصرة لها.(٥)

فلقد ظهر الاسلام بين العرب في القرن السابع الميلادي، ثم انتشر في العالم بين أقوام مختلفين في عاداتهم وأخلاقهم وثقافاتهم وتفكيرهم وأديانهم. فامتد من أواسط الصين إلى المحيط الأطلسي وبين بحر القلزم إلى أواسط الهند، واشترك هؤلاء الأقوام في بناء حضارة جديدة هي الحضارة الاسلامية. وقد أخذت هذه الحضارة خلاصة الحضارات التي سبقتها وكونت حضارة جديدة تختلف عنها جميعا.(٦)

ولقد بلغت الحضارة الاسلامية — كما سبق القول — أوجها وازدهارها في القرنين الرابع والخامس الهجريين. فما من أمير إلا وقامت حوله حاشية انخرط فيها جماعة من أهل الفكر، وما من حاضرة إلا وقام فيها للأدب والفن أسواق رائجة. وكان عظماء القوم وعليتهم يتبارون في تشجيع الأدباء والعلماء. وكانت بغداد والقاهرة والقيروان وبالرمو وقرطبة وغيرها من الحواضر الاسلامية مراكز إشعاع فكري. فكثر التأليف في العالم الاسلامي وساعد على ذلك وفرة الكاغد أو الورق الذي أخذ العرب صناعته من الصين وطوروها. وما إن جاء القرن العاشر الميلادي حتى انتشرت صناعته في جميع أنحاء العالم الاسلامي، فتلاشت أمامه صناعة البردى كما قلت الحاجة إلى الرقوق الجلدية.(٧)

وقامت في حواضر البلاد الاسلامية الكبرى دور للكتب، غصّت بعشرات الألوف من الكتب جرى تصنيفها على نظم فنية خاصة روعي فيها تصنيف العلوم على أبواب ومطالب. وقام على خدمتها جيش من النساخ والوراقين والخطاطين. والمزوقين والمنمقين. وبلغ من كثرتها ما جعل الناس يشعرون بحاجة ماسة لمن ينهض ويعرف بها في فهارس علمية(٨).

ونتيجة لهذا التطور العظيم والهائل الذي حققته الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى، يجد الباحثون والدارسون لها أنفسهم أمام مصادر عديدة ومتنوعة لهذه الحضارة. غير أن العلماء يقسمون هذه المصادر إلى قسمين رئيسيين هما: المصادر غير المقصودة أو المادية، والمصادر المقصودة أو الروائية.

أولا ــ المصادر المادية غير المقصودة

هي التي لم يقصد أصحابها أن تكون شواهد تاريخية كالوثائق والأوراق البردية والمسكوكات والنقوش والتحف الأثرية. وتتميز بوفرتها، لأنها ترتبط بمظاهر الحياة اليومية. وهي أوثق وأضمن لأنها تخلو من عامل الهوى أو تخضع لرقابة الجهة التي تصدرها أو تشارك في إصدارها كالموثق أو القاضي أو الديوان أو الأطراف المتعاقدة، وليس لأي منهم مصلحة في أن يغش أو يخدع إلا في القليل النادر(٩).

١ ــ الوثائق والأوراق البردية :

الوثيقة هي كل مكتوب يساعد على إعادة كتابة تاريخ وطن ما. ويرى البعض أن الوثيقة في العربية كلمة غير محددة المعنى وتطلق على المستند قانونيا كان أو غير قانوني. وأنه من الضروري استخدام لفظ أكثر دقة وهو «الوثيقة الدبلوماتية» نسبة إلى علم الدبلوماتيك Diplomatique وهو العلم الذي يدرس ــ دراسة تحليلية نقدية ــ المكتوب الذي صيغ في قالب معين، ويتضمن تصرفا أو واقعة قانونية(١٠).

والوثيقة الدبلوماتية بهذا المعنى يدرسها علم الوثائق أو الدبلوماتيك من ناحيتين: الناحية الأولى من حيث الشكل بهدف التعرف على صحتها، والأخرى من حيث المحتوى من أجل استخراج شاهد تاريخي منها، وتحديد قيمة هذا الشاهد كمصدر للتاريخ. ولذلك فعلم الدبلوماتيك أو الوثائق من العلوم المساعدة للتاريخ(١١).

لذلك قد تصلنا بيانات في مؤلفات تاريخية أو أدبية أو اجتماعية لها قيمة كبيرة في دراسة الشعوب الاسلامية وحضاراتها ولكنها لا ترق من حيث الثقة إلى قيمة الوثائق نفسها(١٢).

والواقع أن الأمم الاسلامية فقيرة في المخطوطات والوثائق التي يمكن الرجوع إليها في دراسة حياة الشعب وأموره الادارية والقضائية والاجتماعية في العصور الوسطى. وهذا أمر يثير الدهشة، وخاصة إذا تذكرنا كثرة الوثائق والمخطوطات في العصور الوسطى الأوربية، فقد كان من المنتظر أن يصل إلينا من العصور الوسطى الاسلامية أكثر لأن المسلمين كانوا يتفوقون في ميدان الحضارة والثقافة بوجه عام، ولأن الكتابات كانت أكثر انتشاراً بينهم منها بين الأوربيين(١٣).

وترجع ندرة الوثائق العربية التي تعود إلى العصور الوسطى الاسلامية إلى أسباب من أهمها أن الشريعة الاسلامية التي تمثل النظام الدستوري، والتي يعول عليها في الأحكام القانونية كانت تعتمد أساسا على القرآن الكريم والحديث. ولذلك لم يكن من الضروري أن يحتفظ صاحب الحق بالوثائق التي تثبت ما له من حق، إذ أن المجتمع الاسلامي كان مجتمعا يقوم على المساواة أمام الشريعة الاسلامية التي لم تفرق بين مختلف طبقاته في الحقوق، فلم يكن فيه هيئات كنسية ولا نظام الطوائف والنقابات والاقطاع الذي كان سائداً في العصور الوسطى الأوربية، وكلها هيئات كانت تحتفظ بالوثائق التي تثبت ما تكتسبه من حقوق. كما كانت تحتفظ بكثير من الأوراق الخاصة بشئونها الاقتصادية والمالية والاجتماعية(١٤).

وحتى في الشئون القضائية كان اعتماد القضاة في الاسلام على سماع الشهود العدول، ولم تكن هناك وثائق كثيرة مكتوبة في هذا الميدان اللهم إلا في أمور الوقف(١٥). كما أدى قيام الدول المستقلة

عن الخلافة العباسية وسقوطها وقيام دول أخرى على أنقاضها إلى ضياع الكثير من الوثائق الرسمية للحكومات البائدة أو تلفها بسبب الخصومات السياسية أو المذهبية القائمة بين الدولة الجديدة والدولة السابقة عليها. هذا بالاضافة إلى ما تعرضت له الدواوين التي كانت تحفظ فيها الوثائق الرسمية في عصر الدولة الأموية للحرق، مثل ديوان الكوفة الذي احترق بما كان يضمه من وثائق في سنة ٨٢ هـ، وديوان الفسطاط الذي تعرض للحريق في عصر الدولة الأموية[١٦].

ومع ذلك فقد وصلتنا مجموعة من الوثائق ، إلا أنها مع كثرتها لا نستطيع أن نظفر منها بمثل ما يظفر به المؤرخون في تاريخ العصور الوسطى الأوروبية من الوثائق التي خلفتها تلك العصور. وذلك لأن الوثائق الاسلامية قليلة النوع، فمعظمها وثائق تتعلق بالادارة وليس بينها وثائق كثيرة خاصة بالنظم الاجتماعية والأصول الاقتصادية والنظم المالية.[١٧]

أما أوراق البردى العربية فهي كذلك مصدر أصيل لدراسة تطور الحضارة الاسلامية. وترجع الأهمية الكبرى للبرديات باعتبارها مصدراً صادقا لدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الاسلام.[١٨] إذ تتعرض نصوص الكثير من هذه الأوراق البردية للجزية والخراج واسناد المناصب وأنظمة الادارة وطرق التجارة وبناء العمائر والمساجد وإنشاء الأساطيل وأثمان البضائع والبيوت والأرض فضلا عن عقود الزواج والبيع والشراء، وما إلى ذلك من المكاتبات الخاصة التي تكشف عن بعض العادات والنظم الاجتماعية[١٩].

وكان نبات البردى ينمو بصورة طبيعية في دلتا وادي النيل بمصر[٢٠]. وفي أماكن أخرى منها، وقد سميت الأوراق التي صنعت من البردى بأسماء متعددة، منها ورق القصب[٢١] والقرطاس[٢٢] والطومار[٢٣].. الخ. وكان نبات البردى تأخذ سوقه (جمع ساق) فتشق شقا طوليا، وتوضع طبقة طولية من الشرائح فوق طبقة أخرى عرضية ويضغط عليها بحجر ناعم فتلتصق الطبقة العليا بالسفلى، وتترك بعد ذلك لتجف في الشمس، وبذلك تخرج ورقة البردى التي يكتب عليها.[٢٤]

ولم تكن أوراق البردى التي تنتج متساوية دائما، فكانت تلصق بعض الأوراق من أطرافها بأوراق أخرى للحصول على الطول المطلوب من ورقة البردى.[٢٥]

وظل استعمال البردى مستمراً في العالم منذ الأزمنة القديمة حتى نهاية القرن الخامس الهجري (العاشر الميلادي تقريبا) عندما حل محله الورق في الاستعمال[٢٦].

وقد اتجهت العناية إلى دراسة الأوراق البردية منذ عثر بعض الفلاحين في مصر في أوائل القرن التاسع عشر (سنة ١٨٢٤) على جرة صغيرة فيها ورقتان من البردى مكتوبتان باللغة العربية. وأرسلهما دروفتي Drovetti قنصل فرنسا في مصر حينذاك إلى المستشرق سلفستر دي ساس Silvestre De Sacy فكتب مقالا عنهما في صحيفة العلماء Journal des Savants في باريس سنة ١٨٢٥[٢٧]. وفي النصف الثاني من القرن الماضي ازداد العثور ــ وخاصة في إقليم الفيوم ــ على الأوراق البردية المكتوبة باليونانية والقبطية والعربية.[٢٨] كما اكتشفت مجموعات أخرى من تلك الأوراق في اخميم والأشمونين والبهنساوميت رهينة[٢٩].

وقد وجدت بعض هذه المجموعات من أوراق البردى متلاصقة متماسكة إلى حد يقرب من تحجرها مطموسة بالتراب. ووصل إلينا البعض الآخر ممزقا كله أو بعضه لرطوبة الأرض أو بفعل النيران. وهذه الأوراق الممزقة قد تكون الأكثر قيمة. وكثيراً ما توجد أوراق البردى محفوظة في جرار أو سلال أو ملفوفة في ادراج مربوطة في دوبار أو برباطات صغيرة من البردى عليها طابع المؤلف وخاتمه[٣٠].

وقد تفرقت معظم هذه الأوراق البردية العربية في المكتبات والمتاحف ولا سيما في فيينا وبرلين ولندن وباريس. ولكن دار الكتب القومية بالقاهرة لا تزال تحتفظ بمجموعة كبيرة[٣١].

ولقد اهتم المستشرقون اهتماما بالغا بدراسة البرديات باعتبارها وثائق هامة ومعاصرة للأحداث التي تسجلها ومحايدة في نفس الوقت، بالاضافة إلى قيمتها الكبرى في تصوير النظم الاجتماعية والاقتصادية للعصر الذي كتبت فيه. ومن بين المشتغلين من

المستشرقين بأوراق البردى العربية أدلف جروهمان A. Grohmann ومارجليوث Margoliouth ، وبيكر Baker وبل Bell ، وهوفمير Hofmeier ، ودي ساس De Sacy ، وماسبيرو Maspero ، وأبوت Abbot.[٣٢]

ولكن المستشرق جروهمان ــ دونهم جميعا ــ كرس حياته لدراسة هذا النوع من الوثائق ، بحيث أصبح بحق الحجة في دراسة الأوراق البردية، وقد نشر أبحاثا وكتبا كثيرة عنها.[٣٣]

٢ ــ النقوش أو الكتابات الأثرية

تعتبر النقوش الكتابية الأثرية من أهم مصادر الحضارة الاسلامية، لأن أكثر ما وصل إلينا من العصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام في المصادر العربية المدونة لا يعدو أن يكون روايات يغلب عليها الطابع الأسطوري، وتختلط فيها الحقيقة بالخيال.[٣٤] فالنقوش الكتابية كتابات محايدة ومعاصرة للأحداث التي تسجلها لم تتغير من ناقل إلى ناقل أو من راو إلى راو.[٣٥] علاوة على أنها مصدر ذو فائدة محققة يحل محل غيره من المصادر غير المقصودة الأخرى (الوثائق) التي قد لا تصل إلينا لضياعها نتيجة للفتن والثورات.[٣٦]

ولذلك فطن الباحثون إلى أنه في الامكان تصحيح الكثير من الأخطاء التاريخية التي وقع فيها بعض الاخباريين والمؤرخين في العصر الاسلامي. وإماطة اللثام عن حقائق تاريخية جديدة كانت خافية عنهم، عن طريق النقوش الكتابية التي وصلت إلينا[٣٧].

وهذه الكتابات كتبت على جدران المساجد وفي التحف الأثرية وعلى شواهد القبور،وفي الأضرحة والتكايا والمنازل وسائر العمائر. وقد وصل إلينا الألوف من هذه الكتابات المليئة بالأدعية والآيات القرآنية والحقائق المؤرخة. فقد أقبل المسلمون على الكتابة إلى حد كبير كالفراعنة القدماء، لأنهم اتخذوا الكتابة عنصراً من العناصر الزخرفية.[٣٨] وأننا لو شاهدنا آثاراً أو نقشاً من هذه النقوش، أمكننا أن نقف على العصر الذي ينتسب إليه هذا الأثر، بعد أن ندرس ما عليه من كتابات.[٣٩]

فتمدنا هذه الكتابات بمعلومات هامة عن أسماء هذه المنشآت من الأمراء والمهندسين والمزوقين الذين أشرفوا على إنشائها وتزيينها، وهي أمور غفلت الوثائق التاريخية عن ذكرها على هذا النحو من الدقة.[٤٠]

ولا تقتصر أهمية الكتابات الأثرية على النواحي السياسية فحسب، بل تتجلى أهميتها في النواحي الدينية والاقتصادية أيضا: فصلاح الدين قضى على الدولة الفاطمية وقضى في نفس الوقت على مذهبها الشيعي الاسماعيلي في مصر وسجل ذلك في كثير من النقوش. ومن الناحية الاقتصادية كان سلاطين المماليك يسجلون مراسيمهم الخاصة بالغاء بعض الضرائب أو تخفيف بعض المكوس، على جدران الآثار[٤١].

وقد اهتم المستشرقون بالنقوش والكتابات الأثرية الاسلامية اهتماما خاصا، فصنفوا فيها الكتب، واهتموا بجمعها وترتيبها. ومن أشهر المستشرقين المشتغلين بها ماكس فان برشم Max van Berchem ، وإدمون فاتيو Edmon Fatio ، وكومب Combe ، وجاستون فييت Wiet وغيرهم[٤٢].

٣ ــ المسكوكات أو النميات[٤٣] أو النقود

يعبر لفظ السكة عن معان متعددة تدور كلها حول العملة، فيقصد بها قوالب السك التي تضرب بها النقود، كما يقصد به أيضا تلك النقوش التي تزين بها العملة المضروبة، ولكن الشائع هو إطلاق اللفظ على النقود المتعامل بها على اختلاف أنواعها من دنانير ذهبية ودراهم فضية وفلوس نحاسية أو برونزية[٤٤].

ولم يكن للعرب قبل الاسلام سكة خاصة بهم، فكانت السكة المتداولة في جزيرة العرب هي الدنانير والفلوس البيزنطية تأتي مع رجال القوافل التجارية من سوريا، كما تأتي الدراهم الساسانية من العراق، وكان يرد إلى الحجاز سكة يمنية حميرية أيضا. وهكذا عرف العرب قبل الاسلام الدينار والدرهم.[٤٥]

ولما جاء الاسلام أقر الرسول صلى الله عليه وسلم السكة على ما كانت عليه، وقد تعامل النبي نفسه بهذه السكة، كما وردت له

بصفة خاصة دنانير بيزنطية هرقلية(٤٦).

وأول من سك العملات العربية الاسلامية الخالصة هو الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٧٧ هـ، الذي رأى في ضرب عملات عربية اسلامية خالصة ضرورة لازمة لتدعيم البناء الاقتصادي للدولة العربية. فلقد شهد عبد الملك ظاهرة جديدة هي صبغ الدولة بصبغة عربية قومية في جميع الشئون الادارية والمالية. فإليه يرجع الفضل الأعظم في تعريب الدواوين، وكذلك في تعريب السكة الاسلامية، وكان ذلك ضرورة من ضرورات الحكم في مرحلة الاستقرار التي أعقبت مرحلة الفتوحات(٤٧).

ولقد كان ضرب النقود في ديار الاسلام من اختصاص رئيس الجماعة السياسية من خليفة أو سلطان أو أمير أو الذين يمثلونه من الولاة والحكام. ولذا تعتبر دراسة العملات الاسلامية أساسا هاما لدراسة التاريخ السياسي والاقتصادي للدولة الاسلامية. فالكتابات المنقوشة على السكة تشتمل على ألقاب الأمراء والحكام وتاريخ الضرب وبعض عبارات خاصة بمذهبهم الديني، فهي بذلك سجل للألقاب والأسماء، كما أنها تبين تبعية الولاة للخلافة أو استقلالهم عنها ومدى هذا الاستقلال(٤٨).

وبالاضافة إلى ذلك فإن السكة الاسلامية تخلد أسماء مدن كانت تضم دوراً لضرب النقود مما يشهد بما كان لهذه المدن من شأن إداري كبير. ثم أن العثور على كميات من السكة الاسلامية يشير في كثير من الأحيان إلى الآفاق البعيدة التي امتدت إليها التجارة الاسلامية، كما يشير في الوقت نفسه إلى أنواع السكة التي كان الاقبال عليها عظيما وأسبابه الاقتصادية(٤٩).

وإلى جانب العملات العديدة التي كشفت عنها البحوث الأثرية في البلدان الاسلامية، فقد وصلتنا بعض المراجع المفيدة في تتبع تاريخ النقود الاسلامية تعتبر مصادر هامة للباحثين في علم النميات وأهمها كتاب «الخراج» لأبي يوسف بن يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ)، وكتاب «فتوح البلدان» للبلاذري (ت ٢٧٩ هـ)، وكتاب «الأحكام السلطانية» للماوردي (ت ٤٥٠ هـ)، وكتاب «قوانين الدواوين» لابن مماتي (ت ٦٠٦ هـ)، وكتاب «الحيوان» للدميري (ت ٨٠٨ هـ)، وكتاب «المحاسن والمساوىء» للبيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، ومقدمة ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ)، وكتب المقريزي المتوفى (٨٤٥ هـ): «إغاثة الأمة بكشف الغمة» و«شذور العقود في ذكر النقود» و«الأوزان والأكيال الشرعية»(٥٠).

وقد أخرج العالم العراقي الأب انستاس الكرملي سنة ١٩٣٩ كتاب «النقود العربية علم النميات» جمع فيه أهم ما كتبه في هذا الميدان المؤلفون العرب في العصور الوسطى(٥١).

وكتب كثير من المستشرقين كتبا وبحوثا لها قيمتها في دراسة النقود والنميات الاسلامية منهم ستانلي لين بول St. Lane - Poole ولافوا Lavoix ، وسوفير Sauvaire ، ومايلز Miles وغيرهم(٥٢).

٤ ــ الآثار المعمارية والتحف

إن دراسة العمائر والتحف بأنواعها المختلفة المعدنية والخشبية والعاجية والخزفية، وأدوات الزينة والترف ــ تلقي الضوء على الكثير من الأمور ذات الصلة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية. وتكشف عن مستوى المعيشة وازدهار الصناعة أو تدهورها. كما تبين تطور العلاقات بين الاقاليم المختلفة في ديار الاسلام وبينها وبين بلاد العالم الأخرى(٥٣).

وإذا أردنا أن ندرس الأزياء والمنسوجات والاسلحة والحلي، لا يكفي أن ندرس ما وصل إلينا منها لأنه قليل، وإنما ينبغي أن ندرس الرسوم الموجودة على التحف والملابس، لأنها هي التي تساعدنا على أن نقف على العصر الذي تنتمي إليه هذه التحف والملابس(٥٤).

كما أن دراسة الرنوك(٥٥) الاسلامية ــ أي الشارات التي كان يتخذها الأمراء رمزاً لهم ــ على العمائر والتحف تكشف عن كثير من نظم الفروسية والاقطاع في العصور الوسطى. فلقد تطور فن الشعارات لدى المسلمين في سوريا وفلسطين ومصر منذ بداية العصر الاسلامي وخلال الفترة التي سبقت الحكم العثماني(٥٦).

فمنذ بداية العصر العباسي أصبحت الرنوك تتخذ على البيارق والرايات، فكان شعار العباسيين السواد، ثم عدّله الخليفة المأمون وجعل شعاره ورايته الخضرة. كما كان شعار الفاطميين رايات يظهر على كل منها ثلاثة أشرطة كتابية تقرأ (نصر من الله وفتح قريب) ويزخرفها أسد باللون الأحمر والأصفر(٥٧).

أما رنوك العصر الايوبي فكانت نوعين: احداهما تعبر عن القوة والشجاعة، وهي خاصة بالسلاطين مثل رنك النسر الذي وجد ممثلا على قلعة صلاح الدين بالقاهرة، والأخرى ترمز إلى وظائف الأمراء المختلفة، فقد اتخذ الأمير أيبك التركماني شعار المنضدة رمزاً لوظيفته عندما كان يعمل جاشنكيرا للملك الصالح نجم الدين أيوب(٥٨).

وقد لعبت الرنوك دوراً كبيراً في العصر المملوكي لم تلعبه من قبل لما تميز به هذا العصر من رقي ورفاهية انعكس أثره على حياة الأمراء ورجال البلاط الذين تعددت وظائفهم بما يتناسب وحياة الأبهة التي عاشها سلاطين المماليك، فكانوا يضعون شارات خاصة على تروسهم وألويتهم وأعلامهم وأحيانا على مسكوكاتهم، بل أيضا على ملابس عبيدهم، وكثيرا ما كانوا يضعونها على المباني والآثار كالزهريات النحاسية، والأواني المصنوعة من الزجاج أو «المينا»(٥٩).

وكان الأمير هو صاحب امتياز منح الشعارات واختيار شاراتها التي كانت تمثل في الغالب وظيفة المملوك. فالمنديل هو شارة المكلف بخزانة الملابس، والقلم للكاتب، والقوس للرامي، والسيف للفارس، والكأس للساقي(٦٠).

ولذلك يجد المشتغلون بدراسة الحضارة الاسلامية أن العمائر والتحف من المصادر الأصلية التي يمكنهم أن يستنبطوا منها كثيرا من الحقائق الهامة في هذا الميدان. ومن أشهر المستشرقين المهتمين بالدراسات الأثرية: جورج مارسيه، وليفي لامبير،وتوريس بلباس، وميجون، وهرتسفيلد، وسلادان، وجاستون فييت، وسوفاجيه، وديماند، وجروهمان(٦١).

* * * * * * * *

وفيما يتعلق بالمصادر الروائية المقصودة فسوف يتم تناولها في دراسة قادمة بإذن الله.

التعليقات العلمية والحواشي

١ الحضارة ــ بصفة عامة ــ هي المجهود الذي يبذله المجتمع الانساني للمزيد من السيطرة على الطبيعة وتحسين أحوال معيشته المادية والمعنوية.

أنظر، محمد زنبير: مفهوم الحضارة الاسلامية؛ مجلة المؤرخ العربي. بغداد، ع١٧، ١٩٨١، ص ٢٣٠، عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى. القاهرة، ١٩٧٨، ص ص ٩ ــ ١٠.

والحضارة الاسلامية توصف بالعربية أو الاسلامية، ولكن هذا لا يعني أن سكان الجزيرة العربية، الذين إعتنقوا رسالة الاسلام، هم وحدهم الذين أسهموا فيها. ولكن المقصود جميع الشعوب والأمم التي تكلمت العربية، وعاشت في دار الاسلام في ظل حكم الخلافة الإسلامية؛ بصرف النظر عن الجنس أو الدين. ولذلك يدخل فيها مع العرب الفرس والمصريون والسوريون والمغاربة والأسبان والأرمن، كما يدخل فيها مع المسلمين النصارى واليهود وأيضا المجوس والصابئة. نفس المرجع، ص ص ١٠ ــ ١١.

٢ ــ لوبون، غستاف : حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر. القاهرة، ١٩٦٩، ص ص ٦ ــ ٧.

٣ ــ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ١١.

٤ ــ حسن الباشا : أصول الحضارة الاسلامية؛ الدارة. الرياض، ع١، ربيع ١٣٩٥ هـ (مارس ١٩٧٥م)، ص ٦٤، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ص ١١ ــ ١٩.

٥ ــ حسن الباشا : المرجع السابق، ص ٦٤.

٦ ــ يوسف العش : روح الحضارة الاسلامية؛ مجلة حضارة الاسلام. دمشق، ع١٠، شوال ١٣٨٠ هـ (ابريل ١٩٦١م)، ص ٤١.

٧ ــ بروى، إدوار وآخرون : القرون الوسطى؛ تاريخ الحضارات العام، باشراف موريس كروزيه، ترجمة يوسف أسعد داغر وفريد داغر. بيروت، ١٩٦٥، ص ٢٢٤.

٨ ــ نفس المرجع، ص ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥، عبد الستار الحلوجي: المخطوط العربي منذ نشأته إلى أواخر القرن الرابع الهجري. الرياض، ١٣٩٨هـ، ص ص ١١٦ ــ ١١٧.

٩ ــ حسن الحلوة : الدبلوماتيقا؛ مجلة كلية الآداب/ جامعة القاهرة. مج٢٧، جـ١، ١٩٦٥، ص ٢٠٤.

١٠ ــعبد اللطيف ابراهيم : الوثائق القومية؛ الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوراقة «البليوجرافيا» والتوثيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية. دمشق، ١٩٧٢، ص ص ٣٤٩ ــ ٣٥٠، حسن الحلوة: المرجع السابق، ص ٢٠١.

١١ ــعبد اللطيف إبراهيم : المرجع السابق، ص ٣٥٠، حسن الحلوة: المرجع السابق، ص ٢٠٢.

١٢ ــسيدة إسماعيل كاشف: مصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه. القاهرة، ١٩٧٦، ص ٨٣.

١٣ ــالسيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب. الاسكندرية، ١٩٨١، ص ١٣٥، سيدة إسماعيل كاشف: المرجع السابق، ص ص ٨٣ ــ ٨٤.

١٤ ــأنظر، زكي محمد حسن: دراسات في مناهج البحث في التاريخ الاسلامي؛ مجلة كلية الآداب / جامعة القاهرة. مج١٢، جـ١، مايو ١٩٥٠، ص ص ١٥٧ ــ ١٦٠، السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص٣٥، سيدة إسماعيل كاشف: المرجع السابق، ص ٨٤.

١٥ ــنفس المرجع.

١٦ ــالسيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص ١٣٦.

١٧ ــسيدة إسماعيل كاشف : المرجع السابق، ص ٨٥.

١٨ ــالسيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٣٦.

١٩ ــأنظر على سبيل المثال مجموعة الأوراق البردية التي تحتفظ بها دار الكتب القومية بالقاهرة، علي إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث. القاهرة، ١٩٦٣، ص ٥٤، سيدة إسماعيل كاشف: المرجع السابق، ص ٨٦، علي محمد فهمي شتا: أهمية البرديات في تاريخ مصر الاسلامية؛ مجلة الدارة. الرياض، ع٣، شوال ١٣٩٧هـ (سبتمبر ١٩٧٧م)، ص ص ١٥٩ ــ ١٦٠، عبد العزيز الدالي: عن أوراق البردى العربية؛ مجلة الدارة، ع٣، شعبان ١٣٩٥هـ (سبتمبر ١٩٧٥)، ص ١٢٤.

٢٠ ــأحمد الشامي: أوراق البردى العربي مصدر أصيل للتأريخ الاسلامي؛ مجلة المؤرخ العربي، ع٩، ١٩٧٨، ص ١١٨.

٢١ ــالطبري : تاريخ الطبري، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، جـ٨. القاهرة، ١٩٦٠، ص ٥٤٤.

٢٢ ــالسيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة، جـ٢. القاهرة، ١٢٩٩هـ، ص ٢٣٠.

٢٣ ــالجهشياري : الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا. القاهرة، ١٩٣٨، ص ١٣٨.

٢٤ ــالسيوطي : المرجع السابق، جـ٢،ص ٢٣٠.

٢٥ ــأحمد الشامي : المرجع السابق، ص ١١٨.

٢٦ ــنفس المرجع.

٢٧ ــسيدة إسماعيل كاشف : المرجع السابق، ص ٨٦، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ص ١٣٦ ــ ١٣٧، أحمد الشامي: المرجع السابق، ص ص ١٢١ ــ ١٢٢.

٢٨ ــسيدة إسماعيل كاشف : المرجع السابق، ص ٨٦.

٢٩ ــعلي إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص ٥٣.

٣٠ ــنفس المرجع ، ص ص ٥٣ ــ ٥٤.

٣١ ــسيدة اسماعيل كاشف : المرجع السابق، ص ٨٦، علي إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص ٥٣.

٣٢ ـــ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٣٧ ـــ ١٣٨، سيدة إسماعيل كاشف : المرجع السابق، ص ص ٨٦ ـــ ٨٧.

٣٣ ـــ ومن أشهر مؤلفات أدولف جروهمان كتاب «أوراق البردى العربية» الذي يقع في ستة مجلدات، وقد نشر المجلد الأول سنة ١٩٣٤ عن «البرتوكول والوثائق القانونية». وفي سنة ١٩٣٦ نشر المجلد الثاني، وقد استكمل فيه دراسة الوثائق القانونية. وفي سنة ١٩٣٩ نشر المجلد الثالث، ويحتوي على دراسة مستفيضة عن تاريخ النظم الادارية في مصر. وفي سنة ١٩٥٣ نشر المجلد الرابع واكمل به تاريخ النظم الادارية في مصر. ثم نشر المجلدين الخامس والسادس، ويضمان نصوص ١٤١ بردية تنصب كلها على دراسة تاريخ الاقتصاد المصري من واقع المكاتبات الحكومية.

وقد قام المرحوم الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن ومعه آخرون بترجمة هذه المجلدات الستة إلى اللغة العربية.

أحمد الشامي : المرجع السابق، ص ١٣٦.

٣٤ ـــ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٥١.

٣٥ ـــ سيدة إسماعيل كاشف : المرجع السابق، ص ٩٣.

٣٦ ـــ علي إبراهيم حسن . المرجع السابق، ص ٥٦.

٣٧ ـــ السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق، ص ١٥١.

٣٨ ـــ سيدة إسماعيل كاشف : المرجع السابق، ص ٩٣.

٣٩ ـــ علي إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص٥٦.

٤٠ ـــ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٥٢.

٤١ ـــ نفس المرجع ، ص ص ١٥٢ ـــ ١٥٣.

٤٢ ـــ سيدة إسماعيل كاشف : المرجع السابق ، ص ص ٩٥ ـــ ٩٦، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ص ١٥٣ ـــ ١٥٤.

٤٣ ـــ الفيات جمع الفى بمعنى الفلوس أو الدراهم، من اللاتينية واليونانية (Nummus) بمعنى الفضة المضروبة أو النقد. ومنها (Numismatique) بالفرنسية.

زكي محمد حسن : دراسات في مناهج البحث والمراجع في التاريخ الاسلامي ؛ مجلة كلية الآداب/ جامعة القاهرة،مج١٢، جـ١، مايو ١٩٥٠، ص ١٦٧.

٤٤ ـــ أنظر، عبد الرحمن فهمي محمد : **الشارات المسيحية والرموز القبطية على شارات السكة الاسلامية؛ دراسات في الآثار الاسلامية. القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة، ١٩٧٩، ص ٣٣٧**، ابن خلدون: المقدمة. القاهرة، د.ت، ص ٦٣٩، الماوردي : الأحكام السلطانية. القاهرة، ١٣٢٨ هـ ص ١٤٠، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٥٦.

٤٥ ـــ سعاد ماهر : شارات الخلافة في الفن الاسلامي؛ مجلة الدارة، ٣٤، شوال ١٣٧٩هـ (سبتمبر ١٩٧٧م)، ص ٦٠.

٤٦ ـــ عبد الرحمن فهمي محمد : المرجع السابق، ص ٣٣٧.

٤٧ ـــ عبد الرحمن فهمي محمد : فجر السكة العربية. القاهرة، ١٩٦٥، ص ٣٨، سعاد ماهر: المرجع السابق، ص ٦٠.

٤٨ ـــ زكي محمد حسن : المرجع السابق، ص ١٦٧، سيدة إسماعيل كاشف، المرجع السابق، ص ٩٩، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ص ١٥٧ ـــ ١٥٨.

٤٩ ـــ نفس المرجع السابق، ص ١٥٧.

٥٠ ـــ نفس المرجع، ص ١٥٩.

٥١ ـــ زكي محمد حسن : المرجع السابق، ص ١٦٧.

٥٢ ـــ السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ص ١٦٠ ـــ ١٦١، سيدة إسماعيل كاشف : المرجع السابق، ص ١٠١.

٥٣ ـــ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٦٢، سيدة إسماعيل كاشف : المرجع السابق، ص ١٠٣.

٥٤ ـــ نفس المرجع.

٥٥ ـــ الرنك كلمة فارسية تعني الشعار، وقد استخدمت في العصور الاسلامية للدلالة على الشعار الخاص بالوظيفة.

أنظر ، علي ابراهيم حسن: المرجع السابق، ص ٦٠.

وقد عرف الشرق الاسلامي هذه الرنوك واستخدمها السلاجقة والأيوبيون والمماليك والعثمانيون للدلالة على أرباب

السيف.

حسن عثمان: منهج البحث التاريخي. القاهرة، ١٩٧٠، ص ٣١.

٥٦ ــ طارادبل، ماريانو : التعريف بفن الشعارات الاسلامية، ترجمة عبدالله الخطيب؛ من أبحاث المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية ــ فاس (١٩٥٩م). القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٦١، ص ٤٧١.

٥٧ ــ مايسة محمود داود: الرنوك الاسلامية؛ الدارة، ع٣، ربيع الثاني ١٤٠٢ هـ (فبراير ١٩٨٢م)، ص ٢٨.

٥٨ ــ نفس المرجع.

٥٩ ــ أحمد عبد الرازق أحمد : الرنوك في عصر المماليك، المجلة التاريخية المصرية، مج ٢١، ١٩٧٤م، ص ص ٦٨ ــ ٦٩.

٦٠ ــ طارادبل، ماريانو: المرجع السابق، ص ص ٤٧١ ــ ٤٧٣، مايسة محمود داود: المرجع السابق، ص ٢٨.

٦١ ــ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٦٤.

الأسماء المستعارة ــ غرام الكتّاب .. وتحدي المكتبيين

شكري العناني
إدارة الشئون العامة ــ مديرية الأمن العام

من الظواهر التي تستلفت الأنظار لدى الدارسين والباحثين والمكتبيين هذا الكم الهائل من الانتاج الحديث بألوانه المختلفة، والمصنفات في كل مجال، التي تقذف بها المطابع لتستقر بين أيدي قرائها وهي لا تحمل أسماء أصحابها صريحة، مستعيضين عن ذلك بأسماء مستعارة Pseudonyms ارتضوها لأنفسهم، فأثبتوها في صدور كتبهم، أو مهروا بها مقالاتهم وبحوثهم.

وتكاد هذه الظاهرة تكوّن سمة من سمات العصر، وموقفاً جديراً بالتأمل والدراسة والتتبع بالنسبة للأدب العربي الحديث. فالباحث المدقق، والدارس الذكي، والقارىء النهم، والمؤرخ الذي يسعى لاماطة اللثام عن غوامض التطور في مجال من المجالات، والمكتبي الذي يسعى من خلال أمانة حملها الإعلام عن مقتنيات مكتبته بأي شكل من اشكال التسجيل أو الرصد أو التكشيف، أوالفهرسة، أو الانتاج الببليوجرافي كل هؤلاء يجابههم تحدّي الاسم المستعار المثبت هنا أو هناك على عمل من الأعمال..

ونتساءل، ما الذي يرجوه هؤلاء من إثبات هذا الاسم المستعار على انتاجهم؟ ماذا يدفعهم إلى التستّر وراء صيغة لا تكشف عن هويتهم؟ وما هي الرغبة التي تتحكم بهم فتدفعهم إلى سلوك هذا المنحى، مؤثرين إياه دون أسمائهم الحقيقية؟.

أهو الغموض في حد ذاته كفيل بأن يجذب الأدباء والشعراء والكتاب لعبور ساحته، وارتداء لباسه!! أم أنها أسباب أخرى ذات وجاهة وقدر تكمن وراء ذلك..

إن واقع الأمر يؤكد أن هناك أسباباً شتّى تدفع هذه الكثرة من المؤلفين والمبدعين لأن يثبتوا أسماءهم المستعارة على انتاجهم .. فقد يكون الدافع لذلك الهيبة أو التحرج في إعلان رأي ما أو وجهة نظر تخالف تقليداً معينا أو مفهوماً سائداً، أو أمر اصطلح الناس على قبوله، واستقراره، وقد تكون شهرة الكاتب أو مكانته المرموقة، ومركزه الأدبي، أو ارتقاؤه في السلم الاجتماعي، أو انتماؤه إلى هيئة لها أجلال وتقدير، باعثاً لأن يتستر الكاتب وراء اسم مستعار حين يرغب في الكشف عن أمر أو تناول موضوع يلقي بظلال غير محببة لدى معجبيه إن طالعهم بهذا الأمر ممهوراً بتوقيعه أو اسمه الصريح، وقد يكون الخوف من النقد، ومواجهة جمهور عريض من الناس، دافعاً لأن يتستر كاتب مرموق وراء الاسم المستعار إمعاناً في التعمية، وضماناً لعدم انصراف جمهوره عنه، وقد يكون المجد الباطل باعثاً على التستر وراء اسم مستعار(1) حتى إذا ما اطمأن الكاتب إلى سلامة نهجه، وقبول جمهور القراء لما يكتبه، وتبينه لمعالم الدرب الموصل إلى الشهرة، كشف الكاتب عن هويته، وحسر عن اسمه الحقيقي، وقد أورد الاستاذ (وديع فلسطين) في إحدى مقالاته بمجلة (قافلة الزيت) تحت عنوان (امضاءات وألقاب) أن الروائي ابراهيم الورداني، بدأ حياته بتوقيع أقاصيصه باسم (مي الصغيرة) اثارة لفضول القراء، ولما تساءل الناس عمن تكون «مي الصغيرة» رفع القناع عن اسمه الصحيح، ومثله كان محمد فهمي عبد اللطيف الذي كان يكثر من الطعان في مجلة (الرسالة) ثم (الصباح) متستراً وراء اسم «الجاحظ» وأيضا فإن الصحفي والأديب المصري عباس حافظ

وقّع (صاحب مبدأ) على أول مقال كتبه في مجلة (العلم)[٢]، وقد يكون الجنس (ذكراً / أو أنثى) داعيا في بعض الأحيان، وتحت وطأة بعض الظروف، لأن يظهر الاسم المستعار بديلاً عن الاسم الحقيقي، فهناك كاتبات اتخذن اسماً مستعارا من اسماء الرجال، فالكاتبة الفرنسية جورج صاند اتخذت هذا الاسم المستعار (لاحظ اسم جورج) من اسم زميلها Jules Sandrau أما اسمها الحقيقي فهو أرمادين لوسيل أورو دوبان Armadine Lucile Aurore Dupin ، وعلى العكس من ذلك فإننا نجد (أم عليوى) اسماً مستعاراً لأديب كويتي هو الأستاذ عبد العزيز النمش، وقّع به مقالاته في الصحافة الكويتية[٣].

ولعل أكثر الصيغ إثارة للابهام هي تلك الحروف المختصرة التي تظهر على بعض الألوان الأدبية خاصة القصائد الشعرية والمقالات مثل (ت.ع.) وهو صيغة توقيع الروائي والصحفي اللبناني توفيق عواد، و أ.س.أ التي وقّع بها الأستاذ ألبير أديب في مجلته (الأديب)، و(ف.ك.) صيغة توقيع الأديب والصحفي فريد كامل، و (ع.ش) التي وقّع بها الشاعر عبد الرحمن شكري في (المقتطف)، وهناك صيغ (مطلقه) استخدمت في التوقيعات مثل: محقق، ناقد، باحث، علم، عليم، وتوقيع الكاتب اسماعيل أباظة في جريدة الأهرام[٤]، منصف، متألم، قارىء[٥].

ومما يثير مزيداً من التساؤل والعجب، ويتطلب مزيداً من الجهد والركض وراء الكشف عن غوامض ما يتخذه أديب أو كاتب واحد من صيغ متعددة لأسماء مستعارة، يكتب بهذا الاسم هنا، ويوقع بهذه الصيغة هناك، تاركا هذا العبء لمن يتصدى للكشف عن هوية هذه الصيغ جميعاً، ونسبتها إلى صاحبها الحقيقي. فالكاتب المصري حافظ عوض كانت له أكثر من صيغة اتخذها لنشر مقالاته مثل: (خان بها دور) في جريدتي اللواء والمؤيد، و(شِطْرَنج) و(متشكك) في جريدة اللواء على سلسلة مقالاته تحت عنوان (هل كان الحق مع الأغلبية؟) وكان له توقيع (محمدين) على مقالاته الانتقادية اللاذعة في جريدة (النظام).

وإذا كانت كثرة الأسماء المستعارة التي يتخذها أديب واحد مدعاة للعناء لمن يتصدّى للكشف عن هذا الكم من الصيغ وربطها بصاحبها الفعلي - كما ذكرنا - فحريّ بنا أن نغبط البحاثة الأستاذ يوسف أسعد داغر على جهده الرائع في احصاء ما يقارب الأربعين اسماً من الأسماء المستعارة اتخذها الأب انستاس ماري الكرملي لنفسه[٦] ونشر بها أبحاثه وكتبه العديدة، وأيضاً مقالات معاركه الأدبية التي كان كثيراً ما يزج بنفسه في دائرتها والتي منها: ابن الخضراء ـــ ابن العصر ـــ أبو الخير فهر ابن جابر الطائي ـــ أحد القُرّاء، الأخ أنستاس ماري - أمْكح ـــ باحث ـــ بُعَيث الخضري ـــ الجابري ـــ الجزويتي ـــ الخضري ـــ متطفل ـــ مستهلّ ـــ مبتدىء ـــ مستفيد.

وماذا في صدور الكتب من هذه الأسماء المستعارة؟ إن من يتتبع سلسلة الأسماء المستعارة التي يثبتها المؤلفون على الصفحات الأولى من مؤلفاتهم سوف يدهش لهذا الكم الهائل منها، ولسوف تأخذه الشفقة بالمكتبي الذي لا تسعفه الوسائل المرجعية للكشف عن غوامض هذه الأسماء، ربما لقلة مجموعته المرجعية، وربما لأن من يتصدى لهذه القضايا لم يأت بعد، اللهم إلا اشارات متفرقة هنا أو هناك تضيع في ثنايا حصر متكامل لإنتاج قطر بعينه، أو مجال بالذات، ولكن القضية على أية حال تستحق أن يتوفر عليها أولو العزم والجلد، لجمع شوارد هذا المجال وتقييدها، ولا أشك أن هناك من ذوي الهمم من يستطيع أن يشمر عن ساعديه، ويلقي بنفسه في بحار البحث المتأني الواعي المدقق، حاملاً في يده مصباح الحقيقة، ومتدثراً بلباس الجلد والصبر .. لرحلة طويلة، وثمارها بكل التأكيد رائعة العطاء..

وهأنذا أقدم نذراً متواضعاً من هذه السلسلة من الأوعية التي تحمل أسماء مستعارة لأصحابها :

كتب مؤلفة نشرت بأسماء مستعارة :

نشر الأب أنستاس ماري الكرملي (١٨٦٦ ـــ ١٩٤٧م)، كتابه المعنون (الفوز بالمراد في تاريخ بغداد. بغداد، ١٩١١م) بتوقيع مستعار ـــ هو (ساتسنا) وعلّل البعضُ هذا التوقيع المستعار أنه مقلوب اسمه (أنستاس)[٧].

وكان أمين بن حسن الحلواني المدني[٨] (ت ١٨٩٨م) رحالة، عمل مدرساً في الحرم النبوي بالمدينة المنورة ، قد أصدر كتابه (السيول المغرقة على الصواعق المحرقة) في نقد السيد أحمد أسعد الرافعي، باسم مستعار اتخذه لنفسه هو (عبد الباسط المنوفي).

وصدر كتاب (المذهب الروحاني، بغداد، ١٩٦٦م) باسم مستعار هو (عبدالله أباجي) كان اتخذه مؤلفه (أمين الهلالي — عراقي)[٩].

و (كاتب عراقي) اسم مستعار اتخذه عبد الرزاق الحسيني على كتابه (الخلاف العراقي — البريطاني، بيروت ١٩٤١م)[١٠].

ونشر الأديب العراقي أمين أحمد كتابه (الملكة عالية.، بغداد، د.ت.) بتوقيع (كاتب عربي معروف)[١١].

أما البطريرك اغناطيوس أفرام الأول (١٨٨٧ — ١٩٥٧م) فقد اتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو (الراهب أفرام السرياني) أثبته على كتابه (كلمة انتقادية على الزهرة الذكية. بيروت، ١٩١٠م)[١٢].

والأديب اللبناني أسعد مفلح داغر (١٨٨٦ — ١٩٥٨م)، كان له نشاط بارز في خدمة قضايا الوطن العربي، وعلى الأخص قضية فلسطين، أصدر كتابه (ثورة العرب — مقدماتها، أسبابها، نتائجها. مصر، مطبعة المقطم، ١٩١٦م) ولم يوقع عليه باسمه الحقيقي، بل بصيغة غير صريحة هي (أحد أعضاء الجمعيات العربية)[١٣].

وصدر لصاحب جريدة أبو الهول الصحفي شكري الخوري كتابه (التحفة العامية. سان باولو (البرازيل)، ١٩٠٢م) باسم مستعار اتخذه لنفسه هو (زيد) — ومن عجب أنه وضع هذا الاسم المستعار تحت صورته التي تصدرت صفحات كتابه هذا[١٤].

وفي بغداد في عام ١٩٦٩ صدر كتاب بعنوان (فلسطين العربية تناجي)[١٥] باسم مستعار هو (أبو مجاهد) واتخذ الدكتور أحمد سوسة (ولد ١٩٠٢م)[١٦]، اسماً مستعاراً هو (ابن ألطف)

— كما صدر له كتاب (مأساة اللطيفية، أو صفحات من ذكريات الماضي. بغداد، ١٩٦٤م) وأثبت عليه اسماً مستعاراً آخر هو (ابن الفرات).

وظهر كتاب (بين الشرق والغرب، صفحات ذهبية من تاريخ الكنيسة المسيحية. الموصل، ١٩٤٩م) لمؤلفه اغناطيوس الأول بتوني، الكردينال البطريرك (١٨٧٩ — ١٩٦٨م)، حاملاً اسمه المستعار (الأب عبد الأحد توما السرياني البرطلي)، وهذا اسمه يوم أن كان كاهناً[١٧].

وهناك مؤلفون آخرون نشروا انتاجهم في كتب عديدة، وطاب لهم أن يُثبتوا على أكثر من كتاب منها أسماءهم المستعارة.

فقد نشر الأديب العراقي هاشم البنّاء بعض كتبه بأسماء مستعارة، فكتابه (حياة يسوع. بغداد، ١٩٦١م) نشره بتوقيع (أبو رياض) وكذلك مسرحية (قصة الميلاد، أو الثلاثة الكبار. بغداد، ١٩٥٣م)، أما اسمه المستعار (رياض هاشم) فقد أثبته على كتابه (الطاعون الأحمر، أو الشيوعية في الميزان. بغداد، ١٩٥٤م)، وكذلك كتابه (فلسفة الوجودية. بغداد، ١٩٥٢م)[١٨].

وكذلك فعل المجاهد الليبي الأديب الطاهر أحمد الزاوي (ولد ١٨٩٠م)، وكان له دور بارز في الجهاد ضد الاحتلال الايطالي لبلاده[١٩]. ولقد كان للتواطؤ الملموس بين نظامي الاحتلال الايطالي في ليبيا والانجليزي في مصر أثر بعيد في إذكاء الروح الوطنية بين شباب الأمتين. وقد دفع ذلك الأديب المجاهد الطاهر أحمد الزاوي إلى اصدار كتابه (عمر المختار. القاهرة، مطابع دار احياء الكتب العربية، د.ت.) باسم مستعار هو (محمد محمود) — وكان الطاهر الزاوي قد انتهى من تأليف هذا الكتاب سنة ١٩٣٢م، إلا أنه في عام ١٩٧٠م صدرت طبعة أخرى من نفس الكتاب ولكنها نشرت هذه المرة باسم مؤلفه الحقيقي (عن مكتبة الفرجاني بطرابلس، في ٢٢٦ ص). كما صدر لنفس المؤلف كتاب آخر بعنوان (نبذة عن أعمال ايطاليا في طرابلس الغرب. القاهرة، د.ت.) باسم مستعار هو (الشيخ عبد الحميد محمود).

وأيضاً من الأدباء الليبيين الذين نشروا مؤلفاتهم — وظهرت بأكثر من اسم مستعار لهم الأديب الطيب الطاهر المصراتي (ولد

١٣٣٦هـ). فقد صدرت له ثلاثة كتب بأسماء مختلفة : فإن كتابه (فتح العلي الأكبر في تاريخ حياة سيدي عبد السلام الأسمر) صدر باسمٍ مستعار له هو (أبو الطيب طاهر المصراتي)، واختار اسماً مستعاراً آخر هو (عثمان طاهر المصراتي) نشر به كتابه (الإسلام عقيدة وسلوك) أما كتابه (حلية البصائر على عقيدة الأكابر) فقد صدر باسمه (الطيب الطاهر المصراتي)[٢٠].

وقام جعفر مال الله (عراقي) بتحقيق كتاب (تبديد الظلام، أو أصل الماسونية لعوض الخوري. بغداد، ١٩٦٥م) ونشره بهذه الصيغة (تحقيق : أبو صادق)، وكذلك كتابه «التفليم (بالفاء)» أو تعاليم الحاخامين اليهود. بغداد، ١٩٦٧م فانه حمل نفس الاسم المستعار السابق، أما اسمه المستعار (أبو خليل) فقد أخرج به كتابه (المساعد في كتابة أنواع الرسائل والعرائض. بغداد، ١٩٦٢م)[٢١].

ونشرت الكاتبة العراقية آمنة حيدر الصدر (ولدت ١٩٣٧م) بعض كتبها بأسماء مستعارة، فإن كتابها (المرأة وحديث المفاهيم الاسلامية. النجف، ١٩٦٦م)، نشر بتوقيعها المستعار (أم الولاء)، ولها تواقيع أخرى نشرت بها بعض مؤلفاتها مثل (بنت الهدى) و(أ.ح).[٢٢].

كما ظهر كتاب (الشيوعية على السفود. بغداد، ١٩٦٣م) بتوقيع صاحبه المستعار وهو (عبدالله أمين) وأيضاً كتاب (نحن والشيوعية. بغداد، د.ت) نشر بتوقيع مستعار هو (عبدالله الكميت)[٢٣].

أما الدكتور محمد جواد رضا فقد اختار لنفسه اسماً مستعاراً (دِعْبِل) أصدر به كتابه (أبو نواس: عالم حُرّ. بغداد، ١٩٥٠م). وأيضا كتابه (نحو الثورة الفكرية. بغداد، ١٩٥٢م)[٢٤].

مترجمات صدرت بأسماء مستعارة :

لم يقتصر اللجوء إلى الاسماء المستعارة على أصحاب الكتب المؤلفة فقط، لينشروا بها انتاجهم وكتبهم بقصد التعمية والتنكر، وإشاعة الابهام والغموض حيال شخصياتهم الحقيقية، ودوافع ذلك كثيرة كما سبق أن نوهنا عنها. فإننا نجد أيضاً رجالاً قاموا بترجمة بعض الأعمال الأدبية أو التاريخية، أو الدينية، أو الاجتماعية، ونقلوها من لغاتها إلى العربية، ثم تستروا وراء اسم مستعار اتخذوه لأنفسهم لينشروا به هذه الأعمال. فنجد مثلاً يوسف الريحاني (عراقي) وقد لجأ إلى اتخاذ عدد من الأسماء المستعارة التي صدرت بها كتبه المترجمة مثل كتاب (هل انهزمت ألمانيا في سنة ١٩١٨م، تأليف فللز. (ترجمة: يوسف رزق الله). بغداد، ١٩٤٠م، وأيضا كتاب (هل تستطيع ألمانيا أن تقاوم الضغط؟ تأليف إل. بي. تومْسُن، ترجمة (يوسف رزق الله). بغداد، ١٩٤٠م).

وكذلك فعل موسى حبيب في ترجمته لكتاب (هتلر يريد العالم. تأليف هرمان روشنك، بغداد، ١٩٤١م) فحمل توقيع (م. حبيب)[٢٥].

وتبعهم في ذلك النهج محمد رءوف العطار، إذ حملت ترجمته لكتاب (الانجيل والصليب. القاهرة، ١٣٥١هـ) توقيع (ترجمة وتعليق: مسلم عراقي)[٢٦].

والدكتور معروف خزنه دار نشر ترجمته (من الكردية إلى العربية) لكتاب (العدل الاجتماعي. تأليف بكر دلير. بغداد، ١٩٥٤) باسم مستعار هو (مَفْخَر)[٢٧].

وقام الكاتب صموئيل بن انطونيوس بن جرجس بني، من أهل طرابلس الشام (١٨٦٥ ــ ١٩١٩م) بترجمة كتاب (التمدن الحديث) لمؤلفه (سنيوبوس) من الفرنسية إلى العربية ونشره باسم مستعار هو (الكاتب المحجوب)[٢٨].

كتب نشرت غُفْلاً من اسماء أصحابها :

ومن الكتب التي تضع المفهرس والباحث والقارىء في حيرة من أمرها، هذا الصنف منها الذي ينشر غفلاً من اسماء أصحابها، دون اسم مستعار أو حتى مجرد توقيع بالأحرف عليها، مما قد يكشف عن هوية صاحبها، ونسبة الكتاب إليه بشكل أو بآخر وعلى سبيل المثال نسوق هذه النماذج:

ظهر كتاب (الأكراد والعرب. بغداد، ١٩٣٧م) غُفْلاً من اسم مؤلفه الكاتب والمحامي العراقي ابراهيم أحمد (ولد ١٩١٢م)[٢٩]، وكذلك كتاب (نداء إلى عموم أبناء الطائفة الكلدانية في العراق، وسائر الطوائف المسيحية الأخرى. بغداد، ١٩٥٦م) ومؤلفه هو اسكندر معروف[٣٠]. ولم يظهر اسم حازم المفتي على كتابه المعنون (في الحمدانية، وكيف عينت الحكومة نوابها؟ الموصل ١٩٥٣م)[٣١]، كما نشر روفائيل بطي مؤلفه (تقويم العراق لسنة ١٩٢٣م. بغداد) دون أن يظهر اسمه عليه[٣٢]. وظهرت عدة كتب لساطع الحصري (١٨٨٢ — ١٩٦٨م) غفلاً من اسمه، وقد بلغ عدد مؤلفاته ٤٧ كتاباً، ومن هذه المجموعة التي لم تحمل اسم مؤلفها: (الأخيضر. بغداد، ١٩٣٧م) و(باب الغيبة في سامراء. بغداد، ١٩٣٨م) و(بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد. ١٩٣٥م) و(جسر حَرْبَى. بغداد، ١٩٣٥م) و(حفريات سامراء. بغداد، ١٩٤٠م) وغيرها[٣٣]. وأمثلة ذلك كثيرة فمنها كذلك كتاب (الإمام السيد أبو الحسن. النجف، ١٣٦٦هـ) لمؤلفه صالح الجعفري[٣٤]، وكتاب (فلسطين والغزو التتري الجديد. بغداد، ١٩٦٤م) لمؤلفه ابراهيم الخال[٣٥]، وكتاب (سحر العيون) للبدري: أبو بكر بن عبدالله بن محمد بن أحمد أبو البقاء، تقي الدين البدري الدمشقي (١٤٤٣ — ١٤٨٩م)[٣٦]. ويذكر أن المويلحي (ابراهيم بن عبد الخالق بن ابراهيم بن أحمد المويلحي) سافر إلى الآستانة سنة ١٣٠٣هـ فجعل عضوا في مجلس المعارف، وأقام نحو عشر سنوات، وعاد إلى مصر وأصدر كتابه (ما هنالك) دون أن يحمل اسمه[٣٧].

وبعضهم وقّع على كتبه بالحروف الأولى من اسمه :

فهذا أحمد بن علي الحسيني الأشكوري (عراقي — ولد ١٩٣١م) ظهر اسمه على كتابه (منهاج الزائر. النجف، ١٩٦٣م) بهذه الصيغة المختصرة (ا.ع. الحسيني)[٣٨]. ونشر مير بصري كتابه (غرس زكي: زهرتان. بغداد، ١٩٤٢م) بتوقيع (م.ب.)، وظهر كتاب الفضيلة تنتصر. النجف ، ١٩٦٤م) بتوقيع (أ.ح.) والمؤلفة هي آمنة حيدر الصدر[٣٩]، وأيضاً الكاتبة العراقية حورية هاشم نوري نشرت مجموعتها القصصية باسم مستعار هو (فتاة بغداد: ح.هـ.ن.) وكانت هذه المجموعة بعنوان (دماء ودموع)[٤٠]، وكذلك فعل جعفر الخليلي حين صدر له كتاب (آل فتله كما عرفتهم. النجف، ١٩٣٦م) إذ نشره بتوقيع مستعار (أ.س.ح.ح.)[٤١].

ألوان أدبية مختلفة ظهرت بأسماء مستعارة :

هناك شعراء وأدباء وكُتّاب أثبتوا أسماءهم المستعارة على أعمالهم الأدبية من قصص أو شعر أو مقالات ، وأمثلة ذلك كثيرة لا يطالها مجال الحصر والتقييد. وعلى سبيل المثال نجد أن عبد القادر اسماعيل البستاني (عراقي) ظهرت له قصة بعنوان (بنات الناس. دمشق، المطبعة العصرية، ١٩٣٩م) باسم مستعار هو (عربي عراقي)[٤٢]. واتخذ الدكتور موسى محمود الشابنداري اسماً مستعاراً أثبته على قصته (وحيدة. بغداد، ١٩٣٠م) وهو (علوان أبو شرارة)[٤٣]، وهناك كثيرون من الكتاب ظهرت مقالاتهم بأسماء مستعارة، فالطبيب والكاتب الاجتماعي اللبناني الدكتور جورج حنا (١٨٩٣ — ١٩٦٩م) كتب في بعض الصحف خلال عهد الانتداب تحت اسم مستعار (ابن سينا) وأصدر الطبعة الأولى من كتابه «من الاحتلال الى الاستقلال» تحت اسم مستعار هو (الحارث بن يحيى) ومنه أخذ اسم (الحارثيات) لمجموعة كتبه التي ظهرت بهذا العنوان[٤٤]. أما الشاعر اللبناني بشارة عبدالله الخوري (١٨٨٥ — ١٩٦٨م) أصدر جريدة البرق عند إعلان الدستور العثماني في أيلول ١٩٠٨م ولقب بالأخطل الصغير عقب نشره قصيدته (أيا هند لو ترين) بهذا الاسم المستعار، وكتب أيضا باسم مستعار هو (حنّا فياض) مذكراته عن حقبة الحرب الكبرى في لبنان بعنوان (عشرون يوماً في ريفون)[٤٥]، وحين صدرت (جريدة العرب ١٩١٧ — ١٩٢٠م) بعد ثلاثة أشهر من احتلال بغداد. وقد أصدرتها قوى الاحتلال البريطاني، وقد اختير لها هذا الاسم لإغراء الشباب المتشبعين بهذه الروح ... وقد عهد بادارة سياستها وتحريرها إلى المستر جون فلبي، أما محرروها وكتابها فقد كانوا من خيرة رجال العلم والأدب أغرتهم السلطات المحتلة بأنها

وسيلة لبث الروح الوطنية وخدمة اللغة وتثقيف الشعب، كما أنها أغرتهم بالأموال التي أغدقتها عليهم، فقد حرّر فيها: شكري الفضلي وكاظم الدجيلي، وعبد الحسين الأزري، وجميل صدقي الزهاوي، ومحمد مهدي البصير، والأب انستاس ماري الكرملي، وكانوا يزّيلون مقالاتهم بأسماء مستعارة منها: ابن العراق، ابن الفراتين، ابن ماء السماء، ابن جلا، ابن ذي الكنيتين، ومطالع، وغير ذلك. «وسبب هذا التنكر والتستر أن الظروف ظروف حرب وأن المشرفين والمنفقين عليها هم الانجليز المحتلون، وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى انكشفت تلك الأسماء»[٤٦] وصار كل منهم يوقع باسمه الصريح في ذيل مقاله، وكان الكاتب اللبناني جورج طنوس (١٨٨٠ ــ ١٩٢٦م) يوقع مقالاته بأسماء مستعارة، وخاصة تلك التي كان يكتبها بتوقيع (محمدين) في (كوكب الشرق)، ومما يذكر أنه جمع هذه المقالات ونشرها في كتاب بعنوان (كلمات محمدين) دون أن يشير إلى ما يكشف عن اسمه الحقيقي، كما كان يكتب في مجلة (اللطائف المصورة) مقالات ضافية يوقعها بامضاء (روميو) تنشر تحت ترويسة كبيرة تحمل العبارة التالية (لأمير من أمراء البيان) دون الاشارة إلى اسمه الحقيقي[٤٧].

ولم يَخْلُ مجال الشعر من هذه التواقيع المستعارة أو يكاد يكون هو أيضاً واحداً من أحفل الميادين التي تغصّ بأمثلة كثيرة جداً، فللشعراء دائماً صولات وجولات، وهم أصوات أوطانهم، وحاملو لواء الكلمة في وجه كل طامع خارجي ينشد احتلال بلادهم، ولذا فهم يطلقون قصائدهم النارية، وكلماتهم التي تجيش بانفعالات الغضب والتمرد حاملة تواقيعهم المستعارة أملاً في عدم الكشف عن هويتهم واستمرارهم في إلهاب مشاعر مواطنيهم حتى يتحقق لهم مرادهم، فالأديب العراقي مهدي الشباسي نشر أشعاره (جبال وفاكهة. القاهرة) وأيضا (الحمأ المسنون. القاهرة، ١٩٥٢م) بتوقيع مستعار هو (الشاعر المجهول)[٤٨]، وكذلك الشاعر الشعبي اللبناني عمر الزعني (١٨٩٨ ــ ١٩٦١م). الذي كان صاحب مدرسة خاصة في أغانيه الشعبية النقدية الاجتماعية والتي عبّر فيها عن صميم الواقع اللبناني وحياة الناس هناك والتناقضات الاجتماعية والسياسية ولذا وقّع ما كان ينشره باسم (حُنين).

إن الأسماء المستعار تشكل عالماً غريباً وطريفاً .. يلذ لكل سائر في دروبه أن يمتد به المسير .. ويعشق كل من يغوص في أعماقه الثرية أن يصل إلى مسافات أبعد حيث درر ولالىء هذا العالم .. ولعله من المناسب أن نعلنها من منبر هذه المجلة الأثيرة (عالم الكتب) دعوة لكل الباحثين والمكتبيين وكل المهتمين بهذا اللون من الدراسات أن تتكاثف الجهود للكشف عن مكنونات عالم الأسماء المستعارة في أدبنا العربي قديمه وحديثه، وأنعم بها من خدمة للتراث والأجيال القادمة.

المصادر والمراجع

١ ــ داغر، يوسف أسعد: الأسماء المستعارة في الأدب العربي. الأديب. س٧، حـ٤، نيسان ١٩٤٨، ص ٣٩.

٢ ــ الجندي، أنور : الكُتّاب المعاصرون أضواء على حياتهم. القاهرة، مطبعة الرسالة، ١٩٥٧م، ص ٢٦.

٣ ــ عبد الله، محمد حسن: الصحافة الكويتية في ربع قرن، كشاف تحليلي. الكويت، جامعة الكويت، ١٩٧٤م، ص ٤٩٩/٥٢٢.

٤ ــ الجندي، أنور : تطور الصحافة العربية في مصر. القاهرة، مطبعة الرسالة، ١٩٦٧م، ص ٣٤٥.

٥ ــ الحازمي، منصور ابراهيم : معجم المصادر الصحفية، لدراسة الأدب والفكر في المملكة العربية السعودية، صحيفة أم القرى. الرياض، جامعة الرياض، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٦ ــ عواد، كوركيس : الأب انستاس ماري الكرملي، حياته ومؤلفاته

(١٨٦٦ ــ ١٩٤٧م). بغداد، مطبعة العاني، ١٣٨٦ هـ /١٩٦٦م، ص ٣٠٣ .

٧ ــ عواد، كوركيس : معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٨٠٠ ــ ١٩٦٩م. بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٦٩م، حـ١، ص ١٥٣.

٨ ــ الزركلي، خير الدين : الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط٣، حـ١، ص ٣٥٦.

٩ ــ عواد، كوركيس : معجم المؤلفين العراقيين حـ١، ص ١٥١.

١٠ ــ نفس المرجع السابق : حـ٢، ص ٢٥٨.

١١ ــ نفس المرجع السابق حـ ١، ص ١٤٩.

١٢ ــ نفس المرجع السابق حـ ١، ص ١٢٤.

١٣ ــ داغر، يوسف أسعد : مصادر الدراسة الأدبية، الفكر العربي الحديث في سير أعلامه الراحلين (١٨٠٠ ــ ١٩٧٢م)، بيروت، الجامعة اللبنانية، ١٩٧٢م. حـ٣، ص ص ٤١٦ ــ ٤١٧.

١٤ ــ دي طرازي، فيليب : تاريخ الصحافة العربية، بيروت، المطبعة الأدبية، ١٩١٣م. حـ١، ص ٢٤.

١٥ ــ عواد، كوركيس : معجم المؤلفين العراقيين، حـ٣، ص ٥٠٨.

١٦ ــ نفس المرجع السابق : حـ١، ص ٧٨.

١٧ ــ نفس المرجع السابق : حـ١، ص ص ١٢٨ ــ ١٢٩.

١٨ ــ نفس المرجع السابق حـ٣، ص ٤٢٩.

١٩ ــ دار الكتب، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية : دليل المؤلفين العرب الليبيين، طرابلس، مطابع الثورة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م. ص ص ١٦٩ ــ ١٧٣.

٢٠ ــ نفس المرجع السابق : ص ١٧٦.

٢١ ــ عواد، كوركيس : معجم المؤلفين العراقيين، حـ١، ص٢٥٢.

٢٢ ــ نفس المرجع السابق : حـ١، ص ٣٤ ــ ٣٥.

٢٣ ــ نفس المرجع السابق : حـ٣، ص ٧٩.

٢٤ ــ نفس المرجع السابق حـ٣، ص ص ١٢٦ ــ ١٢٧

٢٥ ــ نفس المرجع السابق حـ٣، ص ٣٥٢.

٢٦ ــ نفس المرجع السابق حـ٣، ص ١٧٣.

٢٧ ــ نفس المرجع السابق حـ٣، ص ٣١٧.

٢٨ ــ الزركلي، الاعلام حـ٣، ص ٣٠٠.

٢٩ ــ عواد، كوركيس : معجم المؤلفين العراقيين حـ١، ص ٣٦.

٣٠ ــ نفس المرجع السابق حـ ١، ص ١١٢.

٣١ ــ نفس المرجع السابق حـ ١، ص ٢٩٦.

٣٢ ــ نفس المرجع السابق حـ ١، ص ٤٧٩.

٣٣ ــ نفس المرجع السابق حـ ٢، ص ص ١٦ ــ ١٩.

٣٤ ــ نفس المرجع السابق حـ٢، ص ١٢٠.

٣٥ ــ نفس المرجع السابق حـ ٣، ص ٥٠٢.

٣٦ ــ الزركلي : الأعلام حـ٢، ص ٤١.

٣٧ ــ نفس المرجع السابق حـ١، ص ٣٨.

٣٨ ــ عواد، كوركيس : معجم المؤلفين العراقيين حـ١، ص ٩٢.

٣٩ ــ نفس المرجع السابق : حـ١، ص ص ٣٤ ــ ٣٥.

٤٠ ــ أحمد، عبدالإله : فهرست القصة العراقية. بغداد، وزارة الإعلام، ١٩٧٣م. ص ٥٣.

٤١ ــ عواد، كوركيس : معجم المؤلفين العراقيين. حـ ١، ص ٢٤٥.

٤٢ ــ أحمد، عبد الإله : فهرست القصة العراقية ص ٥١.

٤٣ ــ عواد، كوركيس : معجم المؤلفين العراقيين حـ٣، ص ٣٥٤.

٤٤ ــ داغر، يوسف أسعد : مصادر الدراسة الأدبية حـ٣، ص ٣٤١.

٤٥ ــ نفس المرجع السابق : حـ٣، ص ٣٨٧.

٤٦ ــ التكريتي : منير بكر: الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية (١٨٦٩ ــ ١٩٢١م)، ص ١١٨.

٤٧ ــ داغر، يوسف أسعد: مصادر الدراسة الأدبية حـ٣، ص ٧٣٢.

٤٨ ــ عواد، كوركيس: معجم المؤلفين العراقيين حـ٣، ص ٣٤٠.

مكتبات جامعة الملك سعود في الميـزان

فـؤاد أحمد اسماعيل
رئيس قسم المطبوعات الحكومية والتوثيق
عمادة شئون المكتبات ـــ جامعة الملك سعود

١ . مقدمــة

تقع هذه الدراسة بين المقال الاعلامي والمقال العلمي، يتمثل الجانب الاعلامي في التعرف بامكانات ونشاطات مكتبات جامعة الملك سعود وهي أقدم وأكبر مكتبات الجامعات السعودية السبع، حيث أنشئت أولى مكتباتها مع إنشاء الجامعة عام ١٣٧٧هـ، ثم توالى انشاء مكتبات الكليات حتى بلغ عددها أربع عشرة مكتبة عام ١٤٠٣هـ، منها مكتبة مركزية للطلاب وأخرى للطالبات، وفي بداية هذا العام الدراسي الجامعي (١٤٠٤/١٤٠٥هـ) تم انتقال تسع من هذه المكتبات إلى موقع المكتبة المركزية الجديد ضمن المباني الحديثة لكليات ومرافق الجامعة، أما الجانب العلمي في هذا المقال فيتمثل في تقييم هذه المكتبات عن طريق مطابقة المعايير الموحدة على واقع هذه المكتبات وفقا لما جاء في تقريرها السنوي الأخير والتقارير الاحصائية للجامعة، وقد أشتقت هذه المعايير من رسالة دكتوراه أعدها الباحث السعودي عبدالله صالح بن عيسى، وتم نشر عرض لهذه الرسالة بالمجلد الرابع من السنة الثالثة من هذه المجلة الغراء، ويتضمن التقييم عناصر الأهداف، المقتنيات، والموظفين العمليات الفنية، المباني والأثاث والأجهزة، الادارة، الميزانية، ومعايير أخرى. هذا وقد أشارت آخر الاحصاءات إلى أن عدد طلاب الجامعة قد بلغ ١٩١١٩ طالباً وطالبة، بالاضافة إلى ٥٦٧ طالباً وطالبة في الدراسات العليا، بينا بلغ عدد اعضاء هيئة التدريس ٢١٣٢ عضوا وعضوة.

٢ . الأهداف :

تتلخص أهداف الجامعة بصفة عامة في النقاط الست التالية :

○ الحفاظ على التراث العلمي والثقافي ○ الدراسة والتعليم ○ البحث العلمي ○ نشر البحوث والدراسات ○ خدمة المجتمع ○ المساهمة في تطبيق الاختراعات والاكتشافات العلمية.

بينا تنص المادة الرابعة من الباب الأول من اللائحة الأساسية لمكتبات جامعة الملك سعود الصادرة بقرار المجلس الأعلى للجامعة بتاريخ ١٣٩٥/٤/١٦ هـ على أن تقوم المكتبة بالوظائف الأساسية الآتية :

أ . تقديم الخدمات المكتبية والتوثيقية والاعلامية في مجالات المكتبة، والعمل على تيسير سبل البحث العلمي للباحثين وذلك باصدار الفهارس والمعاجم وتقريب المواد لهم وتوفير أماكن القراءة والاطلاع للطلاب وغيرهم.

ب . التعريف بالانتاج العلمي والفكري عن طريق الطباعة والتبادل والاهداء والاشتراك في معارض الكتاب الدولية والمؤتمرات المكتبية.

جـ . التعاون مع المكتبات المحلية في المملكة ومكتبات الجامعات والمؤسسات العلمية العربية والعالمية.

بمقارنة هذه الوظائف بما ذكر برسالة الدكتوراه من أهداف معيارية للمكتبات الجامعية نجد أنها تتطابق معها تطابقا تاما غير أنه قد لوحظ أن الأهداف المعيارية قد تركزت حول الفقرة ــ أ ــ من الوظائف السابق الاشارة اليها، كما أن هذه الوظائف تساعد على تحقيق الأهداف العامة للجامعة ومن المعروف أن المكتبة الجامعية المثالية هي التي تساهم مساهمة فعالة في تحقيق أهداف الجامعة .

٣ . المجموعات

بلغت جملة مقتنيات مكتبات جامعة الملك سعود ١٫١٥٠٫٨٥١ مجلداً ومادة تشتمل على جميع أشكال أوعية المعلومات من الكتب والدوريات والمخطوطات والمطبوعات الحكومية وملفات المعلومات والرسائل الجامعية والوسائل السمعية والبصرية وفقا للبيان التالي:

نوع الوعاء	العدد				
الكتب	٤١٩٠٥٤	عنوانا	تقع في	٨٦٠٦٥٣	مجلدا
الدوريات	١٢٤٥٦	نسخة	تقع في	٢٠٦٥١٣	مجلدا
المخطوطات	١٧٨٩٣	عنوانا	تقع في	١٠٠٨٣	مجلدا ومادة
المطبوعات الحكومية	١٥١٣١	عنوانا	تقع في	٣٨٧٦١	مجلدا ومادة
ملفات المعلومات	١١٥٨٦	عنوانا	تقع في	١١٥٨٦	ملفا
الرسائل الجامعية والكتب النادرة	٤٧٤٥	عنوانا	تقع في	٥٧٣١	مجلدا
المواد السمعية والبصرية	٧٧٦٠	عنوانا	تقع في	١٧٥٢٤	مادة

١/٣ . تنص المعايير على أن المكتبة الجامعية يجب أن تحتوي على ١٣٠٫٠٠٠ مجلد، وبتطبيق هذا النص على مقتنيات مكتبات جامعة الملك سعود نجد أنها تحتوي على أكثر من ست مرات ونصف من هذا العدد من الكتب فقط بدون الاشارة إلى مقتنياتها من أوعية المعلومات الأخرى.

٢/٣ . يخص كل طالب بالجامعة ٤٥ مجلدا من الكتب فقط، بينا تنص المعايير على ٢٥ مجلدا فقط لكل طالب، أي بزيادة مقدارها ٤٤ ٪.

٣/٣ . يخص كل عضو هيئة تدريس ٤٠٣ مجلدات من الكتب فقط بينا تنص المعايير على ١٦٠ مجلدا فقط لكل عضو، أي بزيادة مقدارها ١٥٢ ٪.

٤/٣ . يخص كل تخصص في البكالوريوس بكليات ومعاهد الجامعة ١٤٣٤ مجلدا من الكتب بينا تنص المعايير على ٦٠٠ مجلد فقط أي بزيادة مقدارها ١٣٩٪ (عدد تخصصات البكالوريوس الحالية بالجامعة قد بلغ ٧٣ تخصصا).

٥/٣ . بلغ عدد تخصصات الماجستير بالجامعة ٢٩ تخصصا، يخص كل منها ٢٩٫٦٧٧ مجلدا بينا تنص المعايير على ٦٠٠٠ مجلد فقط لكل تخصص ماجستير، وهذا يعني زيادة مقدارها ٣٩٠٪.

٦/٣ . تنص المعايير على أنه يجب أن تحتوي مكتبات الجامعة على أوعية المعلومات الخاصة بالمملكة، وهذا ما نجده موضع اهتمام المسؤولين، فالمواد الخاصة بالمملكة نجدها بأقسام المجموعات الخاصة والكتب النادرة والمخطوطات والمطبوعات الحكومية وملفات المعلومات بالاضافة إلى المقتنيات العادية من الكتب، ولقد خصصت القاعات المستقلة لحفظ هذا التراث مثل قاعة ومركز معلومات الخليج والجزيرة العربية والقاعات التذكارية التي تتضمن مقتنياتها الانتاج

الفكري للأدباء السعوديين الحاصلين على جوائز الدولة التقديرية في الأدب.

٤ ــ الموظفون

عدد العاملين الفنيين وفقا لآخر احصاءات التقرير السنوي للعمادة بلغ ١٥٩ عاملا فنيا، وقد ذُكر بهذا التقرير أن العاملين الفنيين هم الحاصلون على مؤهلات متخصصة أو مؤهلات أخرى مع خبرة أو تدريب في أعمال المكتبات، كما أن هذا العدد يشتمل على العاملين في بعض الأقسام غير المتخصصة في أعمال المكتبات مثل أقسام النشر والتصوير والتجليد والتشغيل الآلي للمكتبات، وبذلك فاذا أحصينا عدد العاملين المؤهلين علميا لأعمال المكتبات سنجدهم يمثلون ثلث هذا العدد تقريبا، أي حوالى ٥٥ متخصصا، معظمهم حاصل على ليسانس أو بكالوريوس في المكتبات والتوثيق وقليل منهم يحمل الدبلوم العالي أو درجة الماجستير في هذا التخصص، بالاضافة إلى بعض المبتعثين من الجامعة للخارج للحصول على درجتي الماجستير أو الدكتوراه في المكتبات والتوثيق والمعلومات.

٤/١ . تنص المعايير على أنه يجب أن يكون في المكتبة الجامعية ثلاثة من المهنيين المكتبيين لكل ١٠٠٠ طالب، وبتطبيق هذا المقياس نجد أن عدد طلاب جامعة الملك سعود والبالغ عددهم حوالى ٢٠٫٠٠٠ طالب وطالبة يحتاجون إلى ستين متخصصا ومتخصصة وهو رقم قريب من الواقع.

٤/٢ . تنص المعايير على أنه يجب أن يكون في المكتبة الجامعية خمسة من المهنيين المكتبيين لكل ١٠٠٫٠٠٠ مجلد من مجموعات المكتبة، وبتطبيق هذا المقياس على جملة مقتنيات المكتبة من أوعية المعلومات المختلفة والبالغ عددها حوالى مليون مجلد ومادة نجد أن المكتبة تحتاج إلى خمسين مهنيا وهو رقم قريب من الواقع الحالي أيضا.

٤/٣ . تنص القواعد على ضرورة توفير خدمات المواد السمعية والبصرية وخدمة القراء والخدمات المرجعية وكلها خدمات متاحة بمكتبات الجامعة.

٤/٤ . تنص المعايير على أنه يجب أن تكون هناك نسبة بمعدل واحد من الموظفين المكتبيين إلى اثنين على الأقل من غير الموظفين المكتبيين، وذلك في العدد الكلي لموظفي المكتبة الجامعية، وهذا ما لاحظناه من احصاءات العمالة بمكتبات جامعة الملك سعود والتي سبق الاشارة إليها.

٤/٥ . وقد نصت المعايير على وجوب أن يحصل المكتبي المهني المتخصص على نفس المستوى من المزايا والراتب والحوافز المادية والمعنوية الأخرى التي يحصل عليها المعيدون والمحاضرون وأعضاء هيئة التدريس في الكادر الاكاديمي!!.

٥ ــ ترتيب وتصنيف أوعية المعلومات

تنص المعايير على ما يلي :

- فهرسة وتصنيف وترتيب محتويات المكتبة الجامعية حسب الطرق المعروفة.
- احتواء المكتبة الجامعية على الفهرس البطاقي العام الشامل على جميع أوعية المعلومات المختلفة الموجودة بالمكتبة بصرف النظر عن الشكل.
- ترتيب أوعية المعلومات المختلفة حسب الموضوع ما عدا بعض الفئات.
- العمل على ايجاد فهرس موحد لمحتويات المكتبات الجامعية في المملكة لتحقيق التعاون بين الجامعات خصوصا فيما يتعلق بين المكتبات وتبادل الخبرة والمعلومات.

٥/١ . تستخدم مكتبات جامعة الملك سعود الوسائل العلمية

المقتنة في فهرسة وتصنيف مقتنياتها، فهي تستخدم القواعد الانجلوأمريكية المتفقة مع قواعد التقنية الدولي للوصف البيليوجرافي، بينما تستخدم تصنيف ديوى العشري في تصنيف وترتيب مقتنياتها بنظام الأرفف المفتوحة (تستخدم التعديلات العربية لخطة التصنيف في تصنيف المقتنيات العربية). تخضع جميع أوعية المعلومات لتصنيف ديوى العشري فيما عدا المطبوعات الحكومية التي تخضع لنظام تصنيف خاص يتناسب مع الصفة الجوهرية لهذا النوع من الأوعية وهي جهة اصدار المطبوع ثم شكل المطبوع من الناحية الاستخدامية.

٢/٥ . تشتمل مكتبات الجامعة على مجموعات من الفهارس البطاقية المستقلة، كل مجموعة تتعلق بأحد أوعية المعلومات، وتشتمل كل مجموعة من هذه البطاقات على مداخل بالمؤلفين وبالعناوين وبرؤوس الموضوعات، ويجري ترتيبها إما ترتيبا مجزءاً (فهارس المؤلفين والعناوين والموضوعات في نسق هجائي واحد)، ولم تنظر مكتبات الجامعة في موضوع دمج فهارس الأوعية المختلفة في فهرس واحد حيث ترى أن الدمج لن يكون في مصلحة المستفيد لتيسير الاسترجاع نظرا لضخامة المقتنيات ومعدل تنميتها الضخم.

ولكنه من المؤمل بعد الانتهاء من مشروع التشغيل الآلي لمكتبات الجامعة أن يتم الربط آليا بين فهارس الأوعية المختلفة.

٣/٥ . ترتب أوعية المعلومات بمكتبات جامعة الملك سعود ترتيبا موضوعيا على الأرفف المفتوحة طبقا لنظام تصنيف ديوى العشري فيما عدا المطبوعات الحكومية التي يجري ترتيب مطبوعاتها طبقاً لنظام خاص يعتمد على اسماء الجهات التي تصدر هذه المطبوعات (الدول ــ الوزارات ــ الهيئات والمؤسسات ــ المنظمات والجمعيات الوطنية والاقليمية والدولية .... الخ).

٤/٥ . في مجال التعاون بين المكتبات الجامعية فانه يعقد منذ عام ١٤٠٣هـ اجتماع سنوي يحضره عمداء شؤون المكتبات بالجامعات السبع بالمملكة، هذا بخلاف الاجتماعات الطارئة التي يحضرها العمداء ــ وتهدف هذه الاجتماعات إلى التنسيق والتعاون بين هذه المكتبات وتنمية الحركة المكتبية وتطويرها بالمملكة، وكان من ثمرة هذا التعاون إعداد الفهرس الموحد للدوريات العربية بجامعات المملكة (تم اعداده ويجري طباعته بجامعة الملك سعود)، كما يجري حاليا اعداد الفهرس الموحد للدوريات الأجنبية بجامعات المملكة (يجري إعداده بالمركز الوطني للعلوم والتكنولوجيا)، هذا بالاضافة إلى الدراسات التي تجرى حاليا لاعداد الفهرس الموحد للكتب العربية بجامعات المملكة.

٦ ــ الخدمات المكتبية :

تنص المعايير على أنه من واجبات المكتبات الجامعية تقديم الخدمات المكتبية التالية:

- تقديم خدمات الفهرسة والمستخلصات لبعض الدوريات المتخصصة التي تصل إلى المكتبة.
- تقديم الخدمات البيليوجرافية الموضوعية لأعضاء هيئة التدريس والباحثين.
- تقديم خدمات البحث عن المصادر والمقالات Literature Searching .
- عرض الكتب الجديدة في مكان بارز.
- الاعارة التعاونية بين المكتبات الأخرى في المملكة.
- خدمات الاستنساخ بالتصوير بأسعار زهيدة.
- مواعيد دوام المكتبة.

١/٦ . في مجال تقديم خدمات الفهرسة والمستخلصات لبعض الدوريات المتخصصة التي تصل إلى المكتبة، فان المكتبة حاليا تكتفي بتقديم هذه الخدمة بالنسبة للدوريات العلمية التي تصدرها مكتبات الجامعة، فأصدرت مستخلصات دوريات جامعة الملك سعود (المجلد الأول والثاني والثالث وجارى اعداد المجلد الرابع) لتكشيف واستخلاص مواد مجلة دراسات، مجلة العلوم الهندسية، مجلة كلية الآداب، مجلة كلية الزراعة، مجلة كلية العلوم، ومجلة كلية العلوم الادارية .. وهي المجلات التي تصدرها كليات الجامعة ويتم نشرها من خلال عمادة شؤون المكتبات، هذا بالاضافة إلى بعض الأعمال البيليوجرافية الأخرى مثل دليل رسائل الماجستير والدكتوراه (عربي، انجليزي) ومستخلصات رسائل السعوديين لدرجة الدكتوراه.

ومن المعروف أن التكشيف والاستخلاص يحتاجان إلى متخصصين موضوعيين على مستوى علمي عال، بجانب الخبرة الفنية في أعمال التكشيف والاستخلاص، وهذه واحدة من التخصصات النادرة التي يفتقر إليها العالم العربي، لذلك أصبحت هذه الخدمة مقصورة على الدوريات العلمية التي تصدرها الجامعة بالاضافة إلى بعض المقتنيات المحدودة عدديا.

٢/٦ . البيليوجرافيات الموضوعية من الخدمات التي كانت تقدمها بعض مكتبات الجامعة في نطاق محدود وبامكانات متواضعة، والسبب الرئيسي في هذا يرجع إلى النقص الملحوظ في العمالة الفنية المتخصصة، ولكنه من المؤمل بعد الانتهاء من مشروع التشغيل الآلي لمكتبات الجامعة وتسجيل جميع البيانات البيليوجرافية لمقتنيات المكتبة على وسائط التخزين أن يتم اعداد هذه البيليوجرافيات آليا وبصفة دورية، حيث لا يحتاج الأمر حينذاك إلى توافر العناصر البشرية، بل إن التخطيط المستقبلي بعد انجاز هذا المشروع يتعدى اعداد البيليوجرافيات الموضوعية فقط إلى مرحلة تقديم خدمة البث الانتقائي للمعلومات (SDI) لاعضاء هيئة التدريس وبعض أفراد المجتمع التي تتطلب طبيعة عملهم الحصول على أحدث المعلومات في بعض المجالات الموضوعية المحددة.

٣/٦ . خدمات البحث عن المصادر من الخدمات المتميزة التي تحتاج أيضا إلى متخصصين موضوعيين على كفاءة علمية عالية، لذلك فان مكتبات الجامعة تسعى حاليا إلى الاستفادة من قدرات أعضاء هيئة التدريس، كل في مجال تخصصه، في المساهمة في تقديم هذه الخدمة، رفيعة المستوى، إلى الباحثين من منسوبي الجامعة.

٤/٦ . خصصت مكتبات الجامعة مكانا ظاهرا في البهو الرئيسي لها (المدخل) وذلك لعرض العناوين الجديدة من الكتب وغيرها من أوعية المعلومات.

٥/٦ . الاعارة التعاونية بين مكتبات جامعات المملكة من الخدمات التي تسعى لتحقيقها مكتبات جامعة الملك سعود، وقد اهتم بالعمل على تقديم هذه الخدمة جميع مكتبات جامعات المملكة ممثلين في عمداء شؤون مكتباتها خلال اجتماعاتهم السنوية والطارئة.

ويتمثل الحد الأدنى لمتطلبات هذه الخدمة في إتاحة الفهارس المطبوعة وقوائم الاضافة لجميع أشكال أوعية المعلومات المقتناة بهذه المكتبات وخصوصا ما يتعلق بالكتب والدوريات، ثم إيجاد وسيلة اتصال بين هذه المكتبات تتسم بالسهولة والسرعة.

وقد اتخذت مكتبات الجامعات الخطوة الأولى اللازمة لتحقيق هذه الخدمة بالتوصية باعداد الفهرس الموحد للدوريات العربية بجامعات المملكة والفهرس الموحد للدوريات الأجنبية ثم الفهرس الموحد للكتب في هذه الجامعات.

وليس بمستبعد بالقياس بما يشاهد من تطور وتنمية سريعة في المملكة في جميع المجالات أن يتم اعداد شبكة للاتصالات بين قواعد المعلومات الخاصة بمكتبات هذه الجامعات عند استكمال مشاريع بناء هذه القواعد بها وحينذاك تكون الاعارة التعاونية من الأمور الميسرة التي تتم آليا.

٦/٦ . الاستنساخ بالتصوير من الخدمات المتاحة بأسعار زهيدة لجميع الفئات المستفيدة من خدمات مكتبات الجامعة، علاوة على أن هذه الخدمة تقدم مجانا للباحثين المكلفين من الجامعة باجراء هذه البحوث، وتتضمن هذه الخدمة التصوير الفوتوستاتي والتصوير المصغر (بالمايكروفورمز).

٧/٦ . تنص المعايير على أن مواعيد دوام المكتبات الجامعية ينبغي أن تكون ١٢ ساعة يوميا بالاضافة إلى ٨ ساعات أيام الجمع والاجازات، وواقع الأمر في مكتبات جامعة الملك سعود أن عدد ساعات الدوام اليومي في مكتبتها المركزية ١٣ ساعة يوميا (من ٧٫٥ صباحا حتى ٨٫٥ مساء)، وتزاد هذه الفترة لتمتد الدوام حتى الساعة ١١ مساء قبل مواعيد الامتحانات بوقت كاف، بينما تفتح حوالى ٤ ساعات يوميا أيام الجمع والاجازات وذلك خلال العام الدراسي الجامعي.

هذا بالاضافة إلى أن عمادة شؤون المكتبات قد خصصت قاعة خاصة للقراءة الحرة والاستذكار حيث يمكن استخدام هذه القاعة ٢٤ ساعة يوميا.

٧ ــ المباني والأثاث والأجهزة

تنص المعايير في مجملها على ضرورة وجود المكتبة في موقع متوسط بين كليات الجامعة وأن تكفي لحفظ المقتنيات الحالية للمكتبة بالاضافة إلى استيعابها للمقتنيات الجديدة وفق سياسة ومعدلات التنمية، كما تنص المعايير على ضرورة استيفاء المكتبة للعناصر الجمالية وجودة الأثاث وتوفر الاضاءة والتهوية السليمة، هذا بالاضافة إلى المعايير الخاصة بالمساحات المخصصة للمقتنيات والمخصصة للقراءة والمخصصة للأنشطة الفنية والادارية والموظفين، وكذا عدد المقاعد المتاحة.

وفيما يتعلق بالمكتبة المركزية لجامعة الملك سعود والتي بدأت نشاطها في موقعها الجديد مع بداية العام الدراسي الجامعي الحالي (١٤٠٤/١٤٠٥هـ)، فإنها تقع في مكان متوسط ومركزي بين كليات الجامعة ويمكن الوصول إليها بسهولة من جميع الكليات عبر طرقة مظللة، وتقع في ستة طوابق بالاضافة إلى الطابق الأرضي ومساحتها حوالى خمسة آلآف متر مربع وتتسع لثلاثة ملايين مجلد ومادة، ويمكن بعد اجراء بعض التعديلات المعمارية على هذا المبنى أن يتسع لضعف هذه الكمية من المجلدات والمواد، كما يوجد بهذه المكتبة حوالى أربعة آلآف مقعد.

أما من النواحي المعمارية والجمالية والأثاث فهي تحقق أية اشتراطات يمكن أن توضع عن هذا المجال.

٨ ــ الادارة

يدير مكتبات الجامعة عميد شؤون المكتبات الذي يتولى الاشراف على تخطيط وادارة وتنظيم الاجراءات المختلفة في جميع مكتبات الجامعة، ويعاونه في هذا وكيل عمادة شؤون المكتبات، ويرأس العميد مجلس المكتبة الذي يتكون من وكيل العمادة ومديرها وخمسة من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة واثنين من

خبراء المكتبات، ويستشار هذا المجلس في الأمور والقضايا التي تخص مكتبات الجامعة واصدار النظم والقرارات والتوصيات الخاصة بها. يحضر العميد اجتماعات مجالس الجامعة وبهذا يكون للمكتبات كيان اكاديمي ممثل في الجامعة، كما يقدم العميد كل عام تقريرا سنويا يشتمل على أهم انجازات العمادة خلال العام المشار إليه، كذلك يشتمل التقرير على المشاكل والعقبات والخطط والتطلعات المستقبلية للعمادة.

وبمقارنة ما سبق بالمعايير التي وضعت في هذا الخصوص نجد تطابق النظام المتبع في ادارة مكتبات جامعة الملك سعود تطابقا تاما مع هذه المعايير.

٩ ــ الميزانية

بلغت ميزانية شراء أوعية المعلومات (المقتنيات الحديثة) العام الماضي ١٤٠٣/١٤٠٤ هـ مبلغ ٩٫١٣٥٫٧٤٣ ريالا سعوديا، وبهذا المبلغ تم شراء مواد تمثل زيادة مقدارها ١٠ ٪ في جملة المقتنيات، كما يعتبر هذا المبلغ كبيرا بالقياس إلى عدد الطلاب وعدد الباحثين بالجامعة، وقد نصت المعايير على أن ميزانية المكتبة يجب ألا تقل عن ٦ ــ ٨٪ من ميزانية الجامعة.

أما فيما يتعلق برواتب الموظفين ومصروفات أعمال الصيانة والنظافة والأغراض الأخرى فانها تدخل ضمن ميزانية الجامعة.

١٠ ــ معايير أخرى

إن هذه المعايير ليست الحد الأقصى ولكنها تمثل حداً أدنى من المعايير الواقعية التي يمكن تطبيقها وقبولها بدون التضحية بالخدمات الضرورية الواجب توفرها في المكتبات الجامعية، وهناك بعض المعايير الأخرى التي نرى ضرورة إدخالها ضمن المعايير السابقة.

١/١٠ . يجب أن تتضمن المعايير معدل التنمية السنوي للمقتنيات بما يتناسب مع معدل الزيادة السنوي في عدد الطلاب وعدد الباحثين في الجامعة.

٢/١٠ . يجب أن تتضمن المعايير «معدل التوزيع الموضوعي للمقتنيات» بما يتناسب مع الاهتمامات الموضوعية للجامعة من جهة ومن الاتجاهات الموضوعية للنشر المحلي والدولي من جهة أخرى.

يوضح البيان التالي النسبة المئوية للتوزيع الموضوعي للكتب العربية والأجنبية بمكتبات الجامعة وفقا لاحصائيات عام ١٤٠٤ هـ.

الموضوع	النسبة المئوية عربي	أجنبي
الأعمال العامة	٣	٥
الفلسفة	٣	٢٫٥
الديانات	٢٣	١٫٥
العلوم الاجتماعية	١٨	١٧٫٥
اللغات	٥	٣٫٥
العلوم البحتة	٦	٢٧٫٥
العلوم التطبيقية	٧	٢٠
الفنون	١	٣
الآداب	١٥	١١٫٥
التاريخ	٢٠	٧

وبتحليل هذه البيانات نجد أن المقتنيات العربية من الكتب تتركز في موضوعات الديانات والتاريخ والعلوم الاجتماعية ثم الأدب، أما المقتنيات الأجنبية فانها تتركز في موضوعات العلوم

البحتة والعلوم التطبيقية ثم العلوم الاجتماعية، كما يلاحظ ضآلة نسبة المقتنيات العربية والأجنبية في مجال الفنون.

١٠/٣. لم تتضمن المعايير ما يتعلق باستخدام التكنولوجيا الحديثة في أعمال المكتبات على الرغم من أهمية هذا العنصر بالنسبة للمكتبات العصرية وخصوصا الحاسب الآلي لمجابهة هذا الفيض الهائل من المعلومات الذي يعتبر أبرز سمات هذا العصر.

وفي مكتبات جامعة الملك سعود يجري الآن تنفيذ مشروع التشغيل الآلي للمكتبات باستخدام أحد أنظمة الحاسب الآلي في أعمال المكتبات (نظام دوبيس/ليبس)، ويتيح هذا النظام بعد استكمال تنفيذ جميع مراحله الأساسية وظائف التزويد والفهرسة وضبط الدوريات والاعارة والبحث الآلي، كما يتيح تقديم بعض الخدمات الهامة مثل القوائم البيليوجرافية الموضوعية وتقديم خدمة البث الانتقائي للمعلومات.

١٠/٤. هناك بعض الخدمات التي تقدمها مكتبات جامعة الملك سعود والتي لم يرد ذكرها ضمن المعايير الموحدة على الرغم من أهميتها بالنسبة للمكتبات الجامعية، وفيما يلي عرض موجز لهذه الخدمات :

١٠/٤/١. النشر

يتولى قسم النشر العلمي بعمادة شؤون المكتبات نشر الانتاج الفكري لمنسوبي الجامعة المتمثل في الكتب والدوريات العلمية وسجلات المؤتمرات والندوات والأدلة والبيليوجرافيات وفق المواصفات الدولية للنشر.

١٠/٤/٢ . الترجمة العلمية

تم بعمادة شؤون المكتبات استحداث قسم لتقديم خدمة الترجمة العلمية للباحثين من منسوبي الجامعة ومساعدتهم في كتابة البحوث وفق القواعد اللغوية السليمة وذلك من خلال الاستعانة بخبرات المتخصصين من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة.

١٠/٤/٣ . الاستنساخ بالتصوير الخارجي

تتيح هذه الخدمة لمنسوبي الجامعة الحصول على نسخ مصورة من المقالات والبحوث التي تم نشرها في المجلات العلمية غير المقتناة بمكتبات الجامعة، وذلك عن طريق نظام للاتصال البريدي بين مكتبات الجامعة وقسم الاعارة بالمكتبة البريطانية بلندن.

١١ ــ الخاتمــة

بتطبيق المعايير الموحدة للمكتبات الجامعية على واقع مكتبات جامعة الملك سعود اتضح توافق المعايير مع الواقع في معظم العناصر، وقد تضمنت الاختلافات تفوقاً واضحاً لواقع مكتبات جامعة الملك سعود عما تضمنته المعايير في بعض المجالات، بينما وضح القصور في بعض المجالات المحدودة، هذا بالاضافة إلى بعض الخدمات التي تقدم للمستفيدين بمكتبات جامعة الملك سعود ولم تتضمنها المعايير.

توافقت المعايير الخاصة بعناصر الأهداف والموظفين والاجراءات الفنية والتعاون بين مكتبات الجامعات ومعظم الخدمات المكتبية والمباني والاثاث والأجهزة والادارة. وقد برز تفوق ظاهر عن حدود المعايير فيما يتعلق بالمجموعات (المقتنيات)، أما نواحي القصور فانها تتعلق ببعض الخدمات مثل الاعارة المتبادلة بين المكتبات وخدمات التكشيف والاستخلاص واعداد البيليوجرافيات الموضوعية.

ومن واقع الخدمات التي تقدمها مكتبات جامعة الملك سعود تبين وجود بعض الخدمات التي لم تتضمنها المعايير مثل النشر والترجمة العلمية والاستنساخ بالتصوير الخارجي، كما أن مشروع التشغيل الآلي للمكتبات سيتيح تطويرا ملموسا في العديد من هذه الخدمات.

المراجـــع

جامعة الملك سعود. إدارة الدراسات والتنظيم. التقرير السنوي لعام ١٤٠٢ ــ ١٤٠٣ هـ . الرياض : الجامعة، ١٩٨٤.

جامعة الملك سعود. إدارة الدراسات والتنظيم. نظام الجامعة واللوائح والقواعد والتعليمات الصادرة عن مجالس الجامعة والقرارات المعدلة لها.ــ الرياض : الجامعة، ١٩٨٣. ــ ٣٨٠ ص.

جامعة الملك سعود. عمادة شؤون المكتبات. التقرير السنوي لعام ١٤٠٣/١٤٠٤ . ــ الرياض : العمادة، ١٩٨٣. ــ ٤٩ ص.

عبدالله صالح بن عيسى. معايير موحدة للمكتبات الجامعية في المملكة العربية السعودية. ــ عالم الكتب. ــ مج٤، ع٣، ١٩٨٣، ص ٣٧٩ ــ ٣٨٦. عرض لرسالة الدكتوراه من جامعة بتسبرج بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٢م، ١٩٨ ص.

عز الدين سعيد. تقييم المكتبة الجامعية. الفصل الثالث من كتاب الاجراءات المكتبية/ عبد الكريم الأمين، عامر إبراهيم قندلجي، عز الدين محمد علي سعيد.ــ بغداد: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٨٠. ــ ١٤٦ ص.

جزء ابن الجلابي لأبي عبد الله محمد بن علي ابن الجلابي (٤٥٧ ــ ٥٤٢ هـ)

حققه : أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

مقدمـــة المحقق

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد : فصاحب هذا الجزء أبو عبدالله محمد بن علي ابن الجلابي.

والده أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن الطيب الجلابي ابن المغازلي الواسطي.

ترجم له السمعاني في الأنساب، وذكر أن له ذيلا لتاريخ واسط، وأنه عالم برجالات واسط وحديثهم، وأنه كان حريصا على سماع الحديث وطلبه، وأنه غرق ببغداد في الدجلة سنة ٨٤٣ هـ في صفر ودفن بواسط.

وفي كشف الظنون أرخ وفاته بعام ٥٣٤ هـ، وذكر أن كتابه ذيل لتاريخ واسط لابن الدبيثي.

وفي إيضاح المكنون متابعة لكشف الظنون في تاريخ وفاته، وسمى كتابه تاريخ ابن الجلابي.

وذكره خميس الحوزي في أجوبته على سؤالات السلفي فذكر أنه مالكي المذهب، عارف بالفقه والشروط والسجلات، وأنه سمع الحديث الكثير عن عالم من الناس من أهل واسط وغيرهم، وأنه جمع التاريخ المجدد ــ التالي لتاريخ بحشل ــ وأصحاب شعبة، وأصحاب يزيد بن هارون، وأصحاب مالك.

قال : وكان مكثراً خطيبا على المنبر يخلف صاحب الصلاة بواسط، وكان مطلعا على كل علم من علوم الشريعة. غرق ببغداد بعد الثمانين وأحضر إلى واسط فدفن بها وكان يومه مشهوداً.

وهو شيخ الحوزي وقد روى عنه في أكثر من موضع من أجوبته.

ونقل عن أبي طاهر بركة بن سنان الحوزي قوله: ناظرت أبا الحسن المغازلي في التفضيل بين مالك والشافعي ففضلت الشافعي لأني أنتحل مذهبه، وفضل مالكا لأنه كان ينتحل مذهبه.

فاحتكمنا إلى أبي مسلم الليثي البخاري ففضل الشافعي فغضب أبو الحسن وقال: لعلك على مذهبه؟.

فقال : نحن ــ أصحاب الحديث ــ الناس على مذاهبنا فلسنا على مذهب أحد.

ولو كنا ننتسب إلى مذهب أحد لقيل: أنتم تضعون له الأحاديث!.

وعزا الأستاذ مطاع الطرابيشي ــ محقق سؤالات السلفي ــ ترجمته إلى الاستدراك لابن نقطة، والوافي للصفدي.

أما ابنه صاحب هذا الجزء فقد ذكره السمعاني في الأنساب، وذكر أنه سمع من أبيه أبي الحسن الجلابي، وأنه ولي القضاء والحكومة بواسط نيابة عن ابن بختيار، ووصفه بأنه شيخ فاضل عالم، وقال: سمعت منه الكثير بواسط في النوبتين جميعا، وكنت ألازمه مدة مقامي بواسط وقرأت عليه الكثير بالإجازة له عن ابن بشران النحوي.

ونقل الشيخ المعلمي محقق الأنساب عن الاستدراك لابن نقطة أنه توفي في رمضان من سنة ٥٤٢ هـ وهو صحيح السماع.

وبهذا أرخه الذهبي في تذكرة الحفاظ.

ونقل الحافظ ابن حجر في لسان الميزان عن ابن السمعاني عن شيخه: أن ابن الجلابي ادعى سماع أشياء لم يسمعها.

قال ــ ولعل القائل ابن حجر ــ : ورأيت بخطه جزءاً بخط أبيه، وفي آخره: (بلغت).

فألحق هذا بخطه: (وولدي).

قال ابن حجر: قال ابن السمعاني : وظاهره الصدق والأمانة، وهو صحيح السماع، شيخ حسن المجالسة متودد مرتب الحديث.

سألته عن مولده فقال : سنة ٤٥٧ هـ.

ومات في رمضان سنة ٥٤٢ هـ.

وقال ابن حجر في تبصير المنتبه : الجلابي علي بن محمد الواسطي مؤرخ واسط، وابنه محمد صاحب ذلك الجزء مات سنة ٥٤٢ هـ.

وفي طبعتي لسان الميزان، وشذرات الذهب **تصحيف** وتحريف في نسبه.

قال أبو عبد الرحمن: وهذا الجزء من مجموع ضخم صورته من دار الكتب المصرية ووصفته بمقدمتي لكتاب التذكرة للحميدي.

وناسخه يوسف بن شاهين بن الأمير أبي أحمد العلائي قطلوبغا، والحافظ ابن حجر العسقلاني جده من قبل أمه، ولهذا يقال له : سبط ابن حجر. ولد سنة ٨٢٨ هـ، وتوفي سنة ٨٩٨هـ ترجم له السخاوي في الضوء اللامع، والشوكاني في البدر الطالع، وقد أشار إلى أن السخاوي تحامل عليه كعادته مع المعاصرين لمجرد اعتراضاته على جده ابن حجر الذي هو شيخ السخاوي.

وذكر السخاوي : أن السبط كتب بخطه الكثير لنفسه، وأن خطه ليس بالطائل لا سنداً ولا متناً.

ووصف كراريس له في أسماء شيوخه بكثرة التحريف لكون اعتماده على النقل من الاستدعاءات، وذكر أماكن يضبطها بالحروف أو بالقلم وهي خطأ، ومواضع لا يحسن قراءتها فيخليها من النقط فضلا عن الضبط.

قال أبو عبدالرحمن: هذه صفة المجموع الذي استخرجت منه جزء الجلابي، فإنه بخط سبط ابن حجر.

جاء في طرة هذا الجزء:

(سمعه على الشيخ الإمام أبي علي الحسن بن مكي بن جعفر المرندي بروايته عن الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد الجلابي ــ بقراءة محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي:ــ يحيى ابن شافع بن جمعة، وابنه عمر النابلسي، وكاتب الإسماع عبدالله ابن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، وآخرون في يوم الجمعة

شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥١ هـ بجامع دمشق.

نقله محمد بن عبد الواحد من الأصل، ومن خطه لخص ابن ناصر الدين الحافظ ، ومنه نقلت.

وسمعه على الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى بن شافع بن جمعة النابلسي المؤدب ــ بسماعه من المرندي بقراءة محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي وكتب السماع أصلاــ: محمد بن علي ابن أحمد الواسطي، وجماعة كثيرون.

وذلك يوم الاثنين تاسع شهر محرم سنة ٦٦٥ هـ وأجاز الشيخ لهم سماعاته وإجازاته.

لخصه شيخنا الحافظ ابن ناصر الدين من الأصل، ومنه نقلت.

وسمعه على المسند شمس الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن أحمد بن الفضل الواسطي ــ بسماعه من عمر بن يحيى بن شافع بقراءة أبي الحسن علي بن مسعود بن بعيش الموصلي ــ كاتب السماع أصلا عبدالله بن أحمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد المقدسي، وأخوه محمد، وآخرون يوم الاثنين ثامن شوال سنة ٦٩٦ هـ بالجبل بالجامع.

لخصه شيخنا ابن ناصر الدين من الأصل، ومنه نقلت.

وسمعه على الشيخين أبي محمد عبد الله، وأبي عبدالله محمد بن أحمد بن المحب عبدالله بن أحمد ــ بسماعهما من الواسطي : أبو السمع الأول محمد بن عبدالله بقراءته.

ومن خطه لخص شيخنا ابن ناصر الدين، ومنه نقلت.

وأبو بكر ابن محمد بن أبي بكر بن خليل الأعزاري، وآخرون يوم الخميس تاسع شهر رجب سنة ٧٣١ هـ ...) اهـ.

وأثبت على الطرة قراءة محمد المظفري، ويحيى سبط ابن الشحنة، وسبط ابن حجر.

نص الجــــزء

بسم الله الرحمن الرحيم
رب أعن، ويسر يا كريم

أخبرنا(١) الشيخ الإمام برهان الدين إبراهيم بن الزين عبد الرحمن بن محمد العجلوني قراءة عليه في يوم الأربعاء ٢٢ صفر سنة ٨٤٤: أنا الجمال عبدالله بن إبراهيم بن خليل البعلي المعروف بابن الشرايحي(٢): أنا أبو علي الحسن بن أحمد بن هلال الشهير بابن الهبل(٣): ح.

وأخبرنا الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر المفيد الصالحي شفاها : أنا أبو علي بن الهبل إجازة إن لم يكن سماعا : ح.

وقرأته على قاضي القضاة نظام الدين ابن مفلح المقدسي الصالحي بإجازته إن لم يكن سماعا من الحافظ أبي بكر بن المحب المقدسي.

قالا(٤): أنا الشيخ الصالح المسند شمس الدين أبو عبدالله محمد ابن علي بن أحمد بن فضل الواسطي: أنا عمر بن يحيى بن شافع ابن جمعة: أنا أبو علي الحسن بن مكي المرندي: أنا محمد بن علي بن محمد بن طيب ابن الجلابي رحمه الله تعالى:

١ ــ أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد بن مخلد الأزدي في المحرم سنة ٤٦٤ هـ : ثنا أبو بكر أحمد بن عبيد الله بن الفضل ابن سهل بن بيري الواسطي: ثنا أبو الحسن علي بن عبدالله ابن مبشر بن دينار الواسطي: ثنا أبو جعفر أحمد بن سنان بن أسد بن حبان(٥) بن القطان: ثنا أبو معاوية(٦): عن عاصم الأحول: عن عبدالله بن سرجس قال: رأيت الأصلع ــ يعني عمر رضي الله عنه ــ يقبل الحجر ويقول :

إني لأقبلك وإني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما فعلت.

هذا حديث صحيح أخرجه البخاري عن أبي جعفر أحمد بن سنان القطان[٧].

٢ ــ أخبرنا أبو محمد الحسن بن أحمد بن موسى الغندجاني في المحرم سنة ٤٦٤ هـ قال: أنا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن بن العباس بن عبد الرحمن المخلص قراءة عليه: ثنا أبو أحمد عبد الواحد بن المهدي بالله: ثنا أبو جعفر أحمد بن القاسم بن طاهر ابن إسماعيل بن صالح بن علي بن عبدالله بن العباس: حدثني أبي القاسمُ: حدثني أبي طاهر: حدثني أبي إسماعيل، حدثني أبي صالح: حدثني أبي علي: حدثني أبي عبدالله بن عباس. قال:

كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وأنا على بغلته، وأنا ابن ثمان سنين، وهو يريد عمته بنت عبد المطلب ــ قال: فوقف في طريقه على شجرة قد يبس ورقها وهو يتساقط، فقال: يا عبدالله؟.

قال: قلت: لبيك يا رسول الله.

قال: ألا أعلمك بما تساقط الذنوب من ولد آدم كتساقط الورق من هذه الشجرة؟.

قال: قلت: بلى يا رسول الله بأبي أنت وأمي.

قال: قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

فإنهن الباقيات الصالحات المحييات المعقبات[٨].

٣ ــ أخبرنا أبو محمد الحسن[٩]: ثنا محمد بن عبدالرحمن[١٠]: ثنا عبد الله بن محمد[١١]: ثنا مصعب بن عبدالله الزبيري: ثنا مالك بن أنس: عن عبدالرحمن بن القاسم[١٢]: عن أبيه: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد الحج[١٣].

٤ ــ أخبرنا أبو محمد الحسن: ثنا محمد بن عبد الرحمن: ثنا عبدالله بن محمد. قال: قرىء على سويد[١٤]. حدثهم قائلا: عن عبد الرحمن بن القاسم: عن أبيه: أن أسماء[١٥] ولدت محمد بن أبي بكر بالبيداء، فذكر ذلك أبو بكر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: مرها فلتغتسل، ثم لتهل[١٦].

٥ ــ أخبرنا أبو محمد الحسن: ثنا محمد بن عبدالرحمن: ثنا محمد بن هارون: ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري[١٧]: ثنا وكيع: عن العمري[١٨]: عن نافع: عن ابن عمر: أن عمر.

أخبرنا محمد: ثنا إبراهيم[١٩] بن سعيد [قال:][٢٠] قال حجاج بن محمد: عن ابن جريج: عن أبي الزبير[٢١]: أنه سمع ابن عمر: أن عمر.

أخبرنا محمد: ثنا إبراهيم: ثنا يزيد بن هارون: عن شعبة: عن أنس بن سيرين[٢٢]: عن ابن عمر: عن عمر.

أخبركم محمد: ثنا إبراهيم: ثنا عبيد الله بن موسى: عن سفيان: عن فراس[٢٣]: عن عامر[٢٤]: عن ابن عمر: عن عمر.

وحدثنا محمد: ثنا إبراهيم: ثنا محمد بن عبيد الطنافسي: عن عبد الملك بن سليمان[٢٥]: عن أنس بن سيرين: عن ابن عمر: عن عمر.

وأخبركم محمد: ثنا إبراهيم. [قال:][٢٦] قال إسحاق بن عيسى: عن مالك: عن نافع: عن ابن عمر: أن عمر.

وأخبركم محمد: ثنا إبراهيم: ثنا يزيد: عن أبي إسحاق[٢٧]: عن نافع: عن ابن عمر: عن عمر.

أخبركم محمد: ثنا إبراهيم: ثنا حسين بن محمد: عن ابن أبي ذئب: عن نافع: عن ابن عمر: أن عمر.

وأخبركم محمد : ثنا إبراهيم : ثنا موسى بن داوود: عن ابن لهيعة: عن أبي الزبير: عن ابن عمر: أن عمر.

أخبركم محمد : ثنا إبراهيم: ثنا يعلى بن عبيد: عن عبد الملك ابن أبي سليمان: عن أنس بن سيرين: عن ابن عمر: أن عمر.

وحدثنا محمد : ثنا إبراهيم. [قال:](٢٨) قال يزيد بن هارون: عن يحيى بن سعيد الأنصاري: عن نافع: عن ابن عمر: عن عمر(٢٩).

أخبركم محمد : ثنا إبراهيم : حدثني موسى بن إسماعيل: عن حماد: عن أيوب: عن نافع: عن ابن عمر: عن عمر.

أخبركم محمد : ثنا إبراهيم : ثنا عبدالله بن أبي بكر : عن شعبة: عن قتادة: عن يونس بن جبير: عن ابن عمر: عن عمر.

أخبركم محمد : ثنا إبراهيم : ثنا موسى: عن حماد : عن عبيدالله بن عمر: عن نافع: عن ابن عمر: أن عمر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ ومعنى حديثهم واحد ــ، فقال:

إن ابن عمر طلق امرأته وهي حائض.

فقال : مره فليراجعها فإذا طهرت واغتسلت.

وزاد حجاج في حديثه : وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن» ــ (٣٠).

٦ ــ أخبرنا القاضي أبو علي إسماعيل بن محمد بن أحمد بن الطيب بن كاري قراءة عليه وأنا حاضر أسمع فأقر به. قال: أنا أبو بكر أحمد بن عبيد بن الفضل بن سهل بن بيري الواسطي: ثنا أبو بكر محمد بن عثمان بن سمعان المعدل الواسطي: ثنا أسلم بن سهل بن أسلم بن حبيب الرزاز الواسطي المعروف ببحشل(٣١) قال يحيى بن سعيد أبو سفيان الحميري:(٣١): قال حصين بن عبد الرحمن قال:

كان ابن عمر يدعو بهذا الدعاء يقول :

اللهم اجعلني من أعظم عبادك نصيباً من كل خير تعطيه في هذا اليوم، ومن نور تهدي بها، ورحمة تنشرها، ورزق تبسطه، وضر تكسعه، وبلاء ترفعه، وسوء تدفعه، وفتنة تصرفها.

٧ ــ أخبركم أبو تمام محمد بن عبد الكريم بن أبي ربيعة الصدفي: ثنا أبو الحسن علي بن عبيد الله القصاب قراءة عليه بسماعه: ثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن يعقوب المفيد بجرجايا(٣٣) سنة ٣٦٧: ثنا أبو خالد يزيد بن هارون الواسطي: ثنا حميد: عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دخلت الجنة فرأيت قصراً من ذهب، فقلت: لمن هذا؟ قالوا: لشاب من قريش.

فظننت أني هو، فقلت: لمن؟.

قالوا : لعمر بن الخطاب(٣٤).

٨ ــ أخبرنا القاضي أبو تمام علي بن محمد بن الحسن إجازة: ثنا محمد بن المظفر بن موسى بن عيسى الحافظ أبو الحسين [قال:](٣٥) قال محمد بن سليمان: ثنا عبد الوارث بن عبد الصمد: ثنا أبي(٣٦): ثنا شعبة: عن سهيل بن أبي صالح: عن أبيه(٣٧): عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى ركعتي الفجر اضطجع.(٣٨).

٩ ــ أنشدني أبو عبدالله محمد بن أبي نصر بن عبدالله: أنشدني أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد(٣٩) لعبد الملك بن جهور:

إن كانت الأبـــــدان نائيـــــة
فنفـــوس أهـــل الظـــرف تأتلـــف

يا رب مفتـــــــــرقين قد جمعت
قلـــــبيهما الأقـــــلام والصحـــــف

١٠ ــ أخبرني والدي رحمه الله: أنا أحمد بن المظفر، وعلي بن سعيد المعدل الواسطيان بقراءتي عليهما فأقرا به قال: قلت لهما: أخبركما أبو محمد عبدالله بن محمد الحافظ الواسطي: ثنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي: ثنا مسدد: عن يحيى: عن حميد: عن أنس بن مالك: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: دخلت الجنة فرأيت قصراً من ذهب، فقلت لمن هذا؟.

قالوا: لشاب من قريش.
فظننت أني أنا هو. قلت:
من هذا؟.
قيل: عمر بن الخطاب.

تم الجـــزء

الحمد لله وحده. صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. حسبنا الله ونعم الوكيل.

قرأت هذا الجزء على سيدنا الشيخ الإمام الحافظ جمال الدين عبد الله بن إبراهيم بن خليل البعلي المعروف بابن الشرايجي بسماعه عن أبي علي الحسن الشهير بابن الهبل بسنده فيه.

فسمعه معي شمس الدين محمد بن علي الكريمي في القعدة الحرام سنة تسعة (؟) وثماني مئة.

وكتبه يحيى بن يحيى بن أحمد القباني المصري الشافعي.

وكتب في الأصل: ومن خطه نقلت.

قاله يوسف السبط.
الحمد لله وحده.
قرأت هذا الجزء على الشيخ شهاب الدين السنباطي بروايته له عن الصدر الشهاب: عن عبدالله بن المحب، والحسن بن الهبل بسندهما فيه.

وأجاز مرويه بتاريخ سادس شعبان سنة ست عشرة وسبع مئة.

وكتبه محمد المظفري، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الحمد لله

صحيح ذلك وكتبه محمد بن محمد بن عبد الحق السنباطي.

هوامش

(١) القائل أخبرنا سبط ابن حجر.
(٢) هذا الشيخ الجليل أمي لا يقرأ ولا يكتب.
(٣) نص ابن حجر في الدرر على أنه سمع هذا الجزء من التقي الواسطي.
(٤) أي ابن الهبل، وابن المحب.
(٥) له المسند.
(٦) محمد بن خازم التميمي السعدي الضرير.
(٧) رواه البخاري عن عابس بن ربيعة عن عمر، ورواه عن شيخه أحمد ابن سنان: حدثنا يزيد بن هارون: أخبرنا ورقاء: أخبرنا زيد بن أسلم عن أبيه قال: رأيت عمر.. الخ. وإسناد المؤلف صحيح.
(٨) عزا السيوطي في الجامع الكبير نحوه إلى أبي الدرداء رضي الله عنه عند الطبراني وابن مردويه.
(٩) هو الغندجاني.
(١٠) هو المخلص.
(١١) ابن عبد العزيز البغوي.
(١٢) ابن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم.
(١٣) رواه الجماعة إلا البخاري.
(١٤) ابن سعيد بن سهل الهروي.
(١٥) بنت عميس.

(١٦) قال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير: رواه مالك في الموطأ: عن عبدالرحمن بن القاسم: عن أبيه: عن أسماء، وهذا مرسل، وقد وصله مسلم عن عائشة قالت: نفست أسماء، وصحح الدارقطني إرساله في العلل.

(١٧) صاحب المسند.

(١٨) عبيد الله بن عمر.

(١٩) في الأصل: ثنا إبراهيم عن العمري بن سعيد. ووردت علامة التحويق على جملة (عن العمري).

(٢٠) زيادة يقتضيها السياق.

(٢١) محمد بن مسلم المكي.

(٢٢) في الأصل : عن أنس عن ابن سيرين.

(٢٣) ابن يحيى الهمداني.

(٢٤) هو الشعبي.

(٢٥) في هامش الأصل: لعله ابن أبي سليمان.

قال أبو عبد الرحمن: هو عبدالملك بن أبي سليمان ميسرة العرزمي.

(٢٦) زيادة يقتضيها السياق وهي مقدرة عند العلماء دائما.

(٢٧) السيحي الإمام.

(٢٨) زيادة يقتضيها السياق.

(٢٩) كرر هذا الإسناد في الهامش.

(٣٠) الحديث متفق عليه. وعن هذه القراءة قال ابن حجر في تلخيص الحبير: قال الروياني في البحر: لعله قرأ ذلك على وجه التفسير لا على وجه التلاوة.

وقال ابن عبد البر: هي قراءة ابن عمر وابن عباس وغيرهما، لكنها شاذة، لكن لصحة إسنادها يحتج بها، وتكون مفسرة لمعنى القراءة المتواترة.

(٣١) صاحب تاريخ واسط.

(٣٢) في الأصل: قال يحيى بن سعيد قال أبو سفيان الحميري. وعلى الاسم علامة التقديم والتأخير.

(٣٣) في الأصل: بجرجان.

(٣٤) الحديث صحيح، وانظر تخريجه في فضائل الصحاب للإمام أحمد ٣٢٣/١ (حاشية) و٣٢٧.

(٣٥) زيادة يقتضيها السياق.

(٣٦) عبد الصمد بن عبد الوارث.

(٣٧) ذكوان السمان الزيات.

(٣٨) متفق عليه من حديث عائشة، وحديث أبي هريرة رضي الله عنهما صحيح رواه أحمد وأبو داوود والترمذي وابن ماجه.

(٣٩) هو الإمام ابن حزم.

السلـــوك في طبقـــات العلمـــاء والملـــوك

لبهاء الدين الجندي (٧٣٢ هـ)

أحمد بن حافظ الحكمي
الأستاذ المساعد بقسم الأدب ــ كلية اللغة
العربية ــ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ــ ١ ــ

على الرغم من شهرة هذا الكتاب وأهميته، فإن مصادر تاريخ وأدب جنوبي الجزيرة العربية لا تمدنا بمعلومات وافية عن مؤلفه بهاء الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي، ومعلوماتنا عنه لا تتجاوز ما ذكره مؤرخ اليمن بعده أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي (ــ٨١٢هـ) في كتابه (العقد الفاخر الحسن)(١).

لم يشر الخزرجي إلى تاريخ مولد الجندي، والغالب على الظن أنه كان في الربع الثالث من القرن السابع الهجري، وإنما اكتفى بالإشادة بعلمه وفضله، والقول بأنه كان ــ على حد تعبيره ــ «مؤرخاً فقيهاً فاضلاً، متفنناً عارفاً مشتغلاً بفنون العلم»(٢) التي ارتحل في طلبها إلى عدة أماكن تتلمذ فيها على عدد من أفاضل العلماء أهمهم : العلامة أحمد بن علي الحرازي، والعلامة أبو الحسن علي بن أحمد الأصبحي، والعلامة صالح بن عمر البريهي، وغيرهم.

وبعد دراسته تولّى التدريس في عدة مواضع، وأُسند إليه القضاء في بلدة (موزع) اليمنية فأقام فيها مدة، وكان محتسباً في مدينة (عدن)، ثم في مدينة (زبيد) سنة ٧١٥هـ. إلى حياته العملية هذه أشار المؤرخ الخزرجي في ترجمته المقتضبة له، ولم يفصّل(٣).

توفي هذا المؤرخ نحو سنة ٧٣٠ هـ ــ حسب استنتاج الخزرجي ــ الذي استند فيه إلى وضع خاتمة كتابه (السلوك) غير الطبيعي، إذ وجده قد انتهى فيه عند ذكر حوادث اليمن إلى أثناء شهر ربيع الآخر من سنة ٧٣٠ هـ(٤)، ثم انقطع من غير إشعار بالفراغ من تأليف الكتاب، مما يدل على أن الأجل قد فاجأه قبل أن يختم كتابه، ولعل وفاته كانت بعد ذلك بقليل، أي في نحو سنة ٧٣٢هـ (الموافقة لسنة ١٣٣٢م) كما تشير بعض المراجع(٥).

لا نعرف للجندي من المؤلفات غير كتابه هذا، وقد يعرف بـ (تاريخ ، أو طبقات الجندي)، أثنى عليه الخزرجي وأعجب به، ونبّه إلى أن مؤلفه قد تصدى فيه لجميع فقهاء اليمن ومعرفة طبقاتهم وحفظ ما حقق من وفياتهم بعد ابن سمرة الجعدي صاحب (طبقات فقهاء اليمن)، وأن ما جاء فيه يدل على علم واسع ومعرفة بالرجال قديماً وحديثاً (أي في عصره)، وأن واحداً ممن تصدى لمثل هذا العمل لم يستوعب كاستيعابه(٦).

ــ ٢ ــ

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة ضافية أشاد فيها بعلم التاريخ وبيّن فضله على كثير من العلوم ، «إذ لولاه لجهلت الأنساب واندرست الأحساب، ولم يفرق بين الجهلة، وذوي الألباب، ولما عرف من المتقدمين فضل فاضل على مفضول، ولا ميِّز بين سائل ومسئول، ولولاه حقاً لماتت الدول، ولم تصل إلينا (أخبار الأمم

الماضية)»[٧]. ثم تحدث عن فضل اليمن ومكانة أهله في الإسلام، ومن هذا المنطلق أحب أن يجمع كتاباً في تراجم علماء وطنه وملوكه وذوي الفضل فيه، وقد ترجم هذه الرغبة بقوله: «فأحببت حينئذ وضع كتاب أجمع فيه غالب علمائه، وأذكر مع كل ما يثبت من حاله مولداً ونعتاً ووفاة»[٨]، فإذا عرض ذكر لأحد الأعيان عند تعريفه ببعض العلماء استطرد إلى ذكر شيء من أحواله[٩]، ثم أضاف إلى تراجم العلماء طرفاً من أخبار الملوك على سبيل الاختصار[١٠]، وقدَّم العلماء على الملوك في الترتيب لما جاء من النصوص في تفضيلهم[١١].

والجندي يرى (في مقدمته) أن لما ضمنه كتابه من التراجم وأخبار العلماء فائدة كبيرة تتلخص في أن المتأخر متى وقف على خبر من تقدمه من الفضلاء، أو سمع عن إقبالهم على العلم وإخلاصهم في طلبه تاقت نفسه إلى الاقتداء بهم والانسلاك في سلكهم...[١٢].

وقد تعهد (في مقدمته أيضاً) بألا يترجم في كتابه إلا للفقهاء المدرسين والأئمة المتبصرين، يذكر في تراجمهم كل ما صح عنده من مناقبهم ونعوتهم التي يحسن إيرادها، أما من لم يكن أهلاً لذلك فقد أعرض عنه ولم يكلّف نفسه عناء التعريف به أو الحديث عنه.

كما وعد فيها بالتزام منهج محدد في ترجمة كل عَلَم، يتلخص في أربع نقاط :

الأولى : يبدأ ذكر الفقيه بما ثبت له من تاريخ ميلاده.

الثانية : يختم ذلك بذكر تاريخ وفاته.

الثالثة : يسجل في أثناء ذلك ما صح له من نعوت.

الرابعة : متى ولي أحد منهم قضاء وسار فيه بسيرة مرضية قال عنه: مُجن بالقضاء. وإن لم، قال عنه : ولي القضاء سنة كذا من قِبَل فلان[١٣].

— ٣ —

إذن، فموضوع كتاب (السلوك) هو الترجمة لعلماء اليمن وملوكها وأعيانها وأدبائها منذ بداية العصر الإسلامي إلى زمن المؤلف في القرن الثامن الهجري، وقد سار فيه على خطة غير واضحة المعالم في أحيان كثيرة، وإن التزم في أغلبها التسلسل الزمني والتقسيم إلى طبقات يتلو بعضها بعضاً.

ابتدأه بذكر خلاصة للسيرة النبوية، وثنى بذكر الصحابة الوافدين إلى اليمن، ثم عرّف ببعض العلماء من الصحابة اليمنيين، ثم بعلماء التابعين المشهورين من أهل اليمن، ثم من أخذ عنهم من أتباعهم، ثم من يلي هؤلاء. كل طبقة يصير العلم إليها عن سابقتها، يتخلل ذلك حديث عن بعض الخلفاء والأمراء، واستطرادات أخرى.

وهو عادة ــ وخاصة في الطبقات الأولى ــ يجعل لكل طبقة إماماً يتحدث عنه،[١٤]، ثم يعدد أصحابه معرّفاً بكل واحد منهم[١٥]، فإذا انتقل إلى طبقة أخرى استهل ذلك بقوله: «ثم صار العلم إلى طبقة أخرى»[١٦]، وقد يستطرد إلى غير اليمنيين الذين يتعرض لذكرهم في أثناء بعض التراجم[١٧].

ثم هو حينما يترجم للعَلَم بشكل عام: يذكر نسبه غالباً، ثم تاريخ ميلاده، وشيئاً عن دراسته وبعض شيوخه، ثم قيامه بشئون التدريس، ومن استفاد منه من التلاميذ، ثم بعض أعماله التي تولاها كالقضاء إن كان قد وليه أو غيره، ثم يشير إلى تاريخ وفاته، أو يعتذر عن عدم علمه به.

ويأتي التعقيد البالغ في منهجه من استخدامه لأسلوب في الترتيب ــ التزمه في كتابه ــ يصعب استيعابه، إذ يرتب كل طبقة من داخلها حسب البلدان، بحيث يذكر فقهاء كل بلدة من أصحاب كل طبقة على حدة، ثم ينتقل إلى زملائهم في بلدة أخرى[١٨]، ثم يتحدث عمن يرد إلى بعض البلدان وليس من أهلها بعد حديثه عن مواطنيها[١٩]. وهكذا دون منهج واضح، وهو ما يصعب معه الكشف بسهولة عن موضع ترجمة العلم من الكتاب؛ فهو على سبيل المثال قد جعل الطبقة الأخيرة من طبقاته موزعة على أربعة مخاليف: تهامة، ثم الجند، ثم صنعاء، ثم حضرموت[٢٠]، وهذه المخاليف تنقسم إلى بلدان وقرى كثيرة، ونحو ذلك.

وختم الكتاب بالحديث عن بعض ملوك الدولة الرسولية «المظفّر (ــ ٦٩٤ هـ)، والأشرف الأول (ــ٦٩٦هـ)، والمؤيد (ــ٧٢١هـ)، والمجاهد (ــ٧٦٤هـ)» ووزراء هذه الدولة وقضاتها وأعيانها من الأمراء وغيرهم. ثم فصّل شيئاً من الحوادث المتأخرة المعاصرة له في بداية القرن الثامن الهجري، وانتهى فيه إلى أثناء سنة ٧٣٠هـ(٢١) في عهد الملك المجاهد الرسولي.

ــ ٤ ــ

ألف الجندي كتابه هذا بإشارة من شيخه العلامة أبي الحسن الأصبحي ــ كما صرح بذلك ــ(٢٢)، واعتمد فيه على ثلاثة مصادر أساسية استقى منها معلوماته عمن سبق عصره من العلماء:

أولها وأكثرها اهمية : (طبقات فقهاء اليمن)(٢٣) لعمر بن علي ابن سمرة الجعدي (ــ بعد ٥٨٦هـ)، وهو أكمل الثلاثة عنده من حيث ذكر العلماء وتواريخهم؛ فقد ترجم لغالب فقهاء اليمن منذ ظهور الإسلام إلى سنة بضع وثمانين وخمسمائة(٢٤).

وثانيها: (تاريخ صنعاء)(٢٥) لأحمد بن عبد الله الرازي الصنعاني (ــ نحو ٤٦٠ هـ) وهو يقارب سابقه في الأهمية، أشار الجندي إلى اعتماده على عدد كبير من نسخه، لوجود تباين بين هذه النسخ، إذ يوجد في بعضها ما لا يوجد في الأخرى، وأشاد به كمصدر حقق فيه مؤلفه أحوال جماعة من أهل اليمن إلى سنة ٤٦٠هـ، أكثرهم من (صنعاء) و(الجند) وأورد لهم جملة من الآثار. ولما رأى المؤرخ الجندي لمصنف هذا الكتاب من الكمال وما توافر فيه من النزاهة طالع كتابه هذا مراراً ونقل عنه كثيراً.(٢٦).

وثالثها : (تاريخ صنعاء)(٢٧) لإسحاق بن جرير الصنعاني الزهري (ــ ق ٤ هـ) قال عنه : «وهو كتاب لطيف الحجم، به فوائد جمّة»(٢٨).

ثم اعتمد بعد هذه الكتب الثلاثة على مصدر آخر هام هو (تاريخ اليمن) المعروف بـ (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد) لعمارة بن علي بن زيدان الحكمي (٥٦٩ هـ)(٣٠).

فإذا ما تعرض لترجمة أحد من غير أهل اليمن، فإن استناده في الغالب يكون على كتاب (وفيات الأعيان) لأحمد بن محمد بن خلكان (ــ٦٨١هـ)(٣١).

أما اعتماده في التعريف بمن عاش بعد سنة بضع وثمانين وخمسمائة إلى نحو وضعه للكتاب سنة ٧٢٢ هـ ــ كما أشار إلى ذلك في مقدمته ــ فعلى معاصريه من شيوخه وغيرهم من المعمّرين في وقته، وقد عبّر عن ذلك بقوله: «ثم من بضع و٥٨٠ هـ إلى وقتي سنة ٧٢٢ هـ إنما أحدّث في الغالب عن أهل البيت ممن أدركته»(٣٢). كذلك استند على معلوماته الخاصة عن شيوخه وزملائه وحكام عصره، وعُرف عنه ارتحاله في سبيل جمع مادة كتابه من بلاده (الجند) إلى نواح بعيدة(٣٣)، إمعاناً في تحقيق النقل وتوثيق الرواية.

ــ ٥ ــ

ويبدو كتاب (السلوك) من ناحية أخرى مصدراً أدبياً على درجة كبيرة من الأهمية ؛ فقد ضمّ بين دفّتيه تراجم عدد كبير من الشعراء في جنوبي الجزيرة العربية أدباء وعلماء ومتصوفة ورجال سياسة على سبيل الاختصار ــ كما اشترط المؤلف على نفسه في مقدمته ــ، وقد يستشهد لبعضهم بنماذج من شعره يجتزؤها من قصائد له دون أن يتوسّع في ذلك(٣٤)، وقد يُغفل أمر الاستشهاد بشيء منها.

ولعل أبرز الشعراء الذين ترجم لهم الجندي في كتابه هذا ممن عاشوا في القرنين السادس والسابع والربع الأول من القرن الثامن الهجري هم : محمد بن عبدالله اليافعي (ــ ٥٥٢ هـ)،(٣٥) وعمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان الحكمي (ــ ٥٦٩هـ)(٣٦)، وأبو بكر بن أحمد العيدي (ــ ٥٨٠ هـ ت)(٣٧)، وأحمد بن علوان الصوفي (ــ ٦٦٥ هـ)(٣٨)، وأبو بكر بن عمر بن دعّاس

(ــ٦٦٧هـ)(٣٩)، وعلوان بن عبدالله الجحدري (ــ نحو ٦٦٠هـ)(٤٠)، ومنصور بن عيسى بن سحبان (ــ ٧٢٥هـ)(٤١)، وعبد الله بن علي بن جعفر (ــ٧١٣ هـ)(٤٢)، ويحيى بن إبراهيم العمك (ــ بعد ٦٨٠هـ)(٤٣)، وعلي بن عقبة الزيادي (ــ٦٩٥هـ)(٤٤)، وعبد الباقي بن عبد المجيد المخزومي (ــ٧٤٣هـ)(٤٥)، وغيرهم.

وجل ما ورد من الشعر في هذا الكتاب لهؤلاء الشعراء وغيرهم لا يتجاوز الأبيات المفردة والبيتين والثلاثة ونحوها في أماكن كثيرة، وقد يسرد مقاطع قليلة لبعض الشعراء أو العلماء من ذوي النتاج الشعري اليسير في ترجمة العَلَم(٤٦)، وفي مواضع أخرى متفرقة من الكتاب عند التعرّض لمناسبتها(٤٧)، وقليلاً ما نجده يسجل قصيدة كاملة، ولا يعني بذلك إلا لاشتمالها على معان يستحسنها، أو عندما لا يتم الغرض إلا بذكرها كاملة أو لندرتها والتبرك بها لمكانة ناظمها(٤٨).

ومع ذلك فهو أول مصدر سجّل لنا هذا الشعر، وعرّفنا بعدد من قائليه، ولولا عنايته بتسجيله ما وصل إلينا أكثره إن لم يكن كله.

ــ ٦ ــ

ولهذا الكتاب مكانة سامية في تراث جنوبي الجزيرة العربية تاريخاً وأدباً وفقهاً، وتتلخص قيمته في أمور هي :

١ ــ اعتماد مؤلفه فيه على مصادر موثوقة أهمها «طبقات فقهاء اليمن» لابن سمرة الجعدي، و«تاريخ صنعاء» للرازي، وهما من أجود ما ألف في هذا الفن قبل الجندي بشهادة كثير من المؤرخين اليمنيين وفي مقدمتهم الجندي نفسه.(٤٩)

٢ ــ تحرّي مؤلفه الأمانة والدقة في النقل والصدق في الرواية عن مصادره التي استفاد منها، فنجده يعزو كثيراً مما ينقل أو يروي إلى أصحابه(٥٠).

٣ ــ التزام المؤلف بمنهجه في صنع التراجم الذي حدّده في مقدمة كتابه، ولم يحد عنه غالباً، وقد أبعده التزامه هذا عن الحشو والمبالغات التي تكون عادة في كتب تراجم العلماء والصوفية التي تستوجب ذكر الكرامات والخوارق ونحو ذلك مما يخرجه عن الغاية التي كُتب من أجلها.

٤ ــ جمع هذا الكتاب تراجم علماء المذهب الشافعي في جنوبي الجزيرة العربية، وضم إليهم كثيراً من رجال المذهب الحنفي(٥١)، والمذهب الزيدي(٥٢) وغيرهم، كما استطرد إلى غير هؤلاء أحياناً، فجاء أوفى من كتاب ابن سمرة (طبقات فقهاء اليمن) الذي قصره على فقهاء الشافعية في بلاد اليمن وحدهم، مع إشارات سريعة إلى بعض فقهاء الحنفية بها.

٥ ــ صحح فيه مؤلفه كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها من سبقه من المؤرخين(٥٣)، فجاء أقرب إلى الدقة من غيره وأقل هفوات.

٦ ــ كما أن ما جرى عليه من ضبط المواضع اليمنية والقبائل العربية عند نسبة العَلَم إليها ــ بالحروف ــ مع تحديده مواقعها(٥٤)، أبان عن دقة المؤلف وعن أهمية كتابه من هذا الجانب المتعلق بجغرافية اليمن وتوزيع سكانها والمواطن الأصلية لبعض القبائل والبيوتات.

لهذا كله، ولما أفعم به كتاب (السلوك) هذا من التراجم، فإنه يعد من أوسع الكتب اليمنية في الترجمة لأعلام اليمن إلى نهاية الربع الأول من القرن الثامن الهجري وأكثرها دقة وشمولاً، وفيه معلومات هامة وغزيرة عن تاريخ اليمن الاسلامي لم ترد في غيره من المصادر التي سبقته، ومن أجل هذا وجدنا كل من جاء بعده من كتّاب التراجم في جنوبي الجزيرة وغيرها يعتمدون عليه وينقلون عنه(٥٥).

ويعيب هذا المصدر الجليل ثلاثة أمور :

الأول : صعوبة ترتيبه إلى درجة تمنع الباحث المتعجل من التنقيب فيه واستخراج ما يريد من مادة علمية تتعلق ببعض أعلامه في فترة وجيزة ــ كما ذكرنا سابقاً ــ.

الثاني : اختصار بعض تراجمه إلى حال يكتفى فيها بمجرد ذكر الاسم أحياناً، دون إعطاء معلومات مفيدة عن المترجم له، ولعل تلك المعلومات لم تتوفر للمؤلف نفسه أثناء جمعه لمادة الكتاب.(٥٦).

الثالث : خلوّ تراجم كثيرة من تسجيل تواريخ الولادة أو الوفاة أو هما معاً، وإن قلّ ذلك بالنسبة لمجموع تراجم الكتاب عند المقارنة، وكثيراً ما يشير المؤلف إلى عدم وقوفه على تاريخ للمترجم(٥٧).

— ٧ —

ومع أهمية هذا الكتاب وضخامة مادته، فإنه لايزال مخطوطاً، ومنه نسخ كثيرة متفرقة في جميع أنحاء العالم ، نذكر منها:

١ — نسخة مكتبة كوبريلي بتركيا: رقم ١١٠٧، نسخ ٨٧٧ هـ، في ثلاثة مجلدات أوراقها ٢٤٧ ق (مصورة بالتصوير الشمسي في دار الكتب المصرية برقم ٩٩٦ تاريخ، في ٣ أجزاء موزعة هكذا: ١٨٠، ١٧٨، ١١٢ لوحة. ومنسوخة في نفس الدار سنة ١٢٥٣ هـ برقم ٥٣٠٤ تاريخ، في مجلدين أوراقهما ٦١٢، ٦٣٩ ق)، و(مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٦٩٨ تاريخ)، وهي نسخة كاملة من الكتاب. (وهي النسخة المعتمدة في هذه الدراسة).

٢ — نسخة مكتبة الإمام يحيى باليمن : رقم ٤٨ تاريخ (الترقيم القديم) و٤٦ تاريخ (الترقيم الجديد بعد أن ضمت إلى المكتبة الغربية بجامع صنعاء الكبير) نسخ ١٣٥٥ هـ، في ١٤٨ ق (مصورة بدار الكتب المصرية على ميكروفيلم رقمه ٢١٢، وعلى ورق برقم ح ١٣٨٤١، في ١٥٢ لوحة)، وهي تمثل القسمين الأول والثاني من الكتاب.

٣ — نسخة أخرى بالمكتبة نفسها: رقم ٥٠ تاريخ (الترقيم القديم) و٤٨ تاريخ (الترقيم الجديد بالمكتبة الغربية المتقدمة) نسخ ١٣٥٥ هـ، في ١٣٩ ق (مصورة بدار الكتب المصرية على ميكروفيلم رقمه ٢١٣، وعلى ورق برقم ح ١٣٨٤٢، في ١٤٠ لوحة)، وهي تمثل القسم الأول من الكتاب.

٤ — نسخة الجامع الكبير بصنعاء (المكتبة الشرقية : كتب الوقف): رقم ٢٥ تاريخ، في ٢٨٠ ص (مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٩٠ ميكروفيلم، في ١٧٦ق)، وهي تمثل القسم الثالث من الكتاب.

٥ — نسخة الجامع الكبير بصنعاء (المكتبة الغربية): رقم ٤٧ تاريخ (الترقيم الجديد)،د.ت.، في ٢٣١ ق، تمثل القسمين الأول والثاني من الكتاب.

٦ — نسخة دار الكتب المصرية : رقم ٥٤٨ تاريخ، وهي قطعة من الكتاب يوافق ما بها من لوحة ١١٩ — ٢٥١ من نسخة كوبريلي بتركيا (في المجلدين الأول والثاني)، وهي بخط قديم جداً، فيها ترقيع وتقطيع(٥٨).

٧ — نسخة أخرى بالدار نفسها: رقم ٥١٦٦ تاريخ، في ١٢٢ ق.

٨ — نسخة بشير أغا بمكتبة السليمانية باستانبول : رقم ١١٠١.

٩ — نسخة المكتبة الشرقية العامة ببانكيبور في الهند : رقم ٨٠٥.

١٠ — نسخة المكتبة الوطنية بباريس: رقم٢١٢٧.

١١ — نسخة مكتبة تشستربتي في دبلن بإيرلندا: رقم ٣١١٠، نسخ ١٠٥٤ هـ.

١٢ — نسخة مكتبة الدولة في برلين بألمانيا : رقم ٢٠٩٠.

١٣ — نسخة مجموعة دحداح في مكتبة برلين بألمانيا الغربية: رقم ٢٦٩.

١٤ ـــ نسخة مكتبة جامعة ليدن في هولندا (انظر فهرسها لفورهوف: ٣٤٦).

١٥ ـــ نسخة مكتبة السيد محمد بن محمد زبارة الخاصة بصنعاء: د.ت، في ١٤١ ق، تمثل القسم الأول من الكتاب، تنتهي بترجمة أبي الخطاب عمر بن سعد الربيعي (ـــ٦٨٥هـ)، وفي أولها ثمان ورقات مفقودة.(٥٩).

الهـــوامش :

(١) أنظر (مخطوط ، نسخة المكتبة الغربية بجامع صنعاء الكبير: رقم ١٣٦ تاريخ ـــ الترقيم الجديد ـــ): ج٢/ق ١٥٤أ. وقد أورد نسبه كما أثبتناه هنا في كتابه العقود اللؤلؤية (مطبوع): ١/١٦٤، ٢٦٢.

(٢)، (٣) العقد الفاخر الحسن (خ): ج٢/ق ١٥٤ أ.

(٤) راجع المصدر السابق (خ) : الصفحة نفسها، والسلوك للجندي (خ): ص ٤٩٣ ـــ نسخة مكتبة كوبريلي بتركيا رقم ١١٠٧، نسخ ٨٧٧ هـ.

(٥) أنظر الأعلام للزركلي : ٨/٢٥ ـــ ط ٣ ـــ.

(٦) أنظر العقد الفاخر الحسن للخزرجي (خ): ج٢/ق ١٥٤ب.

(٧) السلوك للجندي (خ): ص ٣.

(٨) أيضاً : ص ٤.

(٩)،(١٠)،(١١) أنظر إشارة الجندي إلى هذا المنهج في مقدمة كتابه ص ٤.

(١٢) أنظر إشارته إلى ذلك في : ص ٥.

(١٣) أنظر اشارته إلى ذلك في : ص ٦.

(١٤) أنظر مثلاً : ص ٩٠.

(١٥) أنظر مثلاً : ص ٩٩.

(١٦) أنظر مثلاً : ص ٧٦، ٨٠، ٨٤، ٩٠ وغيرها.

(١٧) أنظر مثلاً : ص ٩٩.

(١٨) أنظر صورة من ذلك في : ص ١٣٩ ـــ ١٤١.

(١٩) أنظر مثلاً : ص ٢٢٩ ، ٢٣٣، ٢٧٧، ٤٢٩ وغيرها.

(٢٠) أنظر مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن لعبد الله الحبشي: ص ٤١٣.

(٢١) أنظر آخر ورقة منه : ص ٤٩٣.

(٢٢) أنظر : ص ٤، ٦.

(٢٣) عني بتحقيق هذا الكتاب الأستاذ فؤاد سيد، وطبع بالقاهرة في مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٧م.

(٢٤) أنظر السلوك (خ) : ص ٦.

(٢٥) من هذا الكتاب نسخ خطية كثيرة في مكتبات العالم المختلفة (أنظر مقدمة الكتاب نفسه : ص ٣٢ ـــ ٣٤، ومصادر تاريخ اليمن لأيمن فؤاد: ص ١٠٥)،وقد عنى بتحقيقه الأستاذان حسين عبدالله العمري وعبد الجبار زكار، وطبع طبعته الأولى في سنة ١٩٧٤م.

(٢٦) أنظر السلوك (خ) : ص ٦.

(٢٧) لا أعلم بوجود نسخة مخطوطة من هذا الكتاب.

(٢٨) السلوك (خ) : ص ٦.

(٢٩) من هذا الكتاب عدة نسخ خطية، وقد نشره لأول مرة المستشرق الانجليزي هنري كاي في لندن سنة ١٨٩٢، ثم أعاد نشره في القاهرة اعتماداً على طبعة كاي الدكتور حسن سليمان محمود في سنة ١٩٥٧م (مكتبة مصر)، ثم حققه القاضي محمد بن علي الأكوع ونشره نشرة جديدة في القاهرة سنة ١٩٧٥م وهي أكمل طبعات الكتاب، وكانت طبعتها الثانية في سنة ١٩٧٦م (١٣٩٦هـ) بمطبعة السعادة بمصر.

(٣٠)،(٣١) أنظر السلوك (خ): ص ٦.

(٣٢) السلوك (خ) : ص ٦.

(٣٣) أنظر السلوك (خ) : ص ٧.

(٣٤) أنظر مثلاً : ص ٢٤٤، ٣٦٧، ٣٨٨.

(٣٥) ترجم له في : ص ١١٥.

(٣٦) ترجم له في : ص ١٥٠ ـــ ١٥٢.

(٣٧) ترجم له في : ص ١٥٦ ـــ ١٥٩.

(٣٨) ترجم له في : ص ١٧٢ ـــ ١٧٣.

(٣٩) ترجم له في : ص ٢٣٧.

(٤٠) ترجم له في : ص ٣٠٢ ـــ ٣٠٤.

(٤١) ترجم له في : ص ٣٦٦.

(٤٢) ترجم له في : ص ٣٨٨.

(٤٣) ترجم له في : ص ٣٩٣ ـــ ٣٩٤.

(٤٤) ترجم له في : ص ٤٤٧ ـــ ٤٤٨.

(٤٥) ترجم له في : ص ٤٦٩ ـــ ٤٧٠.

(٤٦) أنظر مثلاً : ص ٢٤٤، ٢٤٥.

(٤٧) أنظر مثلاً : ص ١٨٩، ٢٤٧.

(٤٨) أنظر مثلاً : ص ١٢٢، ٢١٢ ـــ ٢١٥ وغيرها.

(٤٩) أنظر السلوك (خ): ص ٦.

(٥٠) أنظر صورة من عزوه ما ينقل إلى أصحابه في: ص١١٥، ١٣٠، ١٣٢.

(٥١) أنظر مثلاً : ص ٢٣٥، ٣٥٥.

(٥٢) أنظر مثلاً : ص ٣٦١ ــ ٣٦٤.

(٥٣) أنظر مثلاً : ص ١٢٩.

(٥٤) أنظر مثلاً: ص ١٩٥، ٢٠١، ٢٢٧، ٢٥٥.

(٥٥) أنظر على سبيل المثال : العقد الفاخر الحسن للخزرجي (خ): ج٢/ق١٥٤ ب، وبغية الوعاة للسيوطي ــ ط١، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ــ: ٤٤١/١، ٤٤٢.

(٥٦) أنظر مثلاً : ص ١٦٦، ٣٢١ من السلوك.

(٥٧) أنظر مثلاً : ص ١٦٦، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٦٥ منه.

(٥٨) تبدأ هذه النسخة من أثناء قصيدة القاضي أبي بكر الجندي اليافعي (ــ٥٥٢هـ) التي نظمها في التوسل إلى الله ــ وتنتهي إلى أثناء تراجم أصحاب أبي حنيفة.

(٥٩) أنظر مجلة معهد المخطوطات العربية ــ مجلد ١٩ ج١ (مايو ١٩٧٣م): ص ١٣.



العرض والتحليل

بين الصمت والجنون لمحمد الحربي

نسيم الصمادي
مكتبة معهد الادارة العامة ــ الرياض

الحربي، محمد جبر/ بين الصمت والجنون.ــ الرياض: دار العلوم ، ١٤٠٤ هـ.

○ صعوبة الكتابة عن ديوان «بين الصمت والجنون» للشاعر محمد جبر الحربي تكمن في توقيتها، فقد كانت هذه القصائد المكتوبة بين عامي الصمت والجنون (أنظر افتتاحية الديوان ــ ص ٧) جديرة بالنقد قبل أن تضمها دفتا هذا الديوان الصغير.

صدر ديوان (بين الصمت والجنون) عن دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٤هـ، وقبل صدور الديوان قلت عندما سئلت عن رأيي في قصائده، «إن ما يميز محمد الحربي هو قصائده القادمة وليس قصائده القائمة».

وهذه الحقيقة تبدو الآن جلية أكثر من أي وقت مضى، فالشاعر يهيء الآن ديوانين جديدين للنشر، الأول بعنوان (ما لم تقله الحرب) والثاني بعنوان (لم نكن في مكان) وهو ديوان مشترك مع الشاعرة خديجة العمري.

ولا شك أن المتابع لتجربة الشاعر منذ قصائده الأولى يلمس تلك المسافة الشاسعة التي يتركها بين كل قصيدة وأخرى، ويبدو أن الوصف الذي أسبغه الشاعر على الوطن :

[أبكيك يا وطنا يسافر كل يوم في دمي
يطوي المراحل
يرنو لإختراق المستحيل]

ينطبق عليه أيضا، فهو دائم السفر في كونه الشعري، يطوي المراحل في محاولاته اليومية للتجاوز واختراق المستحيل.

ومع هذا فإن اكتشاف المسافة القائمة بين قصائد الحربي المكتوبة بين عامي الصمت والجنون وبين قصائده المكتوبة في أعوام الجنون التالية لا يعني التقليل من شأن التجربة الأولى، بل إن الحربي يقدم قصائده الأولى بشيء من التواضع، فهي القصائد التي بدأت عندما نطق بالشعر لأول مرة، وانتهت باشتعالاته فصارت القصيدة تتوّهج، ولكن هذا الإكتشاف يفيد الناقد كثيراً في تتبع الخط التصاعدي لمسار الرؤية الشعرية لدى الشاعر.

وباختصار مريب يمكن تلخيص تجربة (الحربي) في ديوانه بأنها تأرجح بعيد المدى بين الحقيقة والحلم، وبين الذات والآخر، وهو كغيره من الشعراء الشباب لا يزال يجتاز المسافة القائمة بين الطموح والمتحقق وبين الفعل ورد الفعل. وعلى الرغم من أن الحلم يبقى حلما غير معادل للحقيقة، رغم تعدد حالاته وكثرة تحوّلاته ، إلا أن التحقق من مشروعية هذا الحلم على المستويين الفكري والجمالي يمكن أن يفك التشابك القائم بين الذات والعالم أو بين الأنا والآخر.

ولقد أشار الدكتور سعد البازعي إلى (تداخلات العشق والوطن في قصيدة «نحن وهم») وهي إحدى قصائد الديوان، وأشار إلى أن هذا التداخل العشقي بين الشاعر والوطن نجده أيضا في قصيدة «تداخلات دمشقية» حيث تدخل المعشوقة

كطرف ثالث في هذه العلاقة الحميمة. ونجد هذا التداخل أيضا في قصيدة «الرجوع إلى المدينة إلى امرأة منكسرة» حيث يمتزج جسد الحبيبة بجسد النخيل المحروق (أنظر دراسة الدكتور البازعي في مجلة «اليمامة» — العدد ٨٠٢ — ٨ شعبان ١٤٠٤هـ، الصفحات من ٥٦ — ٥٨).

والحقيقة أن الحبيبة تفرض نفسها دائما على الشاعر والوطن، كما أنها تفرض على عدد من قصائد الديوان مقدمات وافتتاحيات شبه طللية، ولكن دون أن يصير لها نفس حضور الوطن في نفس الشاعر على الرغم من أنه يحاول أن يقدمها دائماً، وذلك لأن المرأة تتواجد في الديوان بصفات وماهيات متعددة، وبعيداً عن البنيوية وما يمكن أن تفضي إليه إذا حاولنا تشكيل وجود المرأة في الديوان فإنها — أي المرأة — تتداخل في عالم الحربي عبر: الأم، والأخت، والطفلة، والنخلة، بحيث يمكن العثور على حيوات لكل من :

المرأة — الأم = الأم — الأرض
المرأة — الأخت = الأخت — الدنيا
المرأة — الحبيبة = الحبيبة — الوطن
المرأة — المدينة = المدينة — التاريخ
المرأة — الطفلة = الطفلة — الوعد
المرأة — النخلة = النخلة — المستقبل

○ ولأن امتزاج المرأة بالوطن لم يعد فتحاً شعرياً مثيراً، ولم تعد أبعاده الفكرية والجمالية مجالاً للتنبؤ والكشف والتخليق، فضلاً عن اكتشاف الدكتور البازعي للشكل الحلزوني المتماسك المتصاعد الذي أضفاه هذا الإمتزاج على بعض قصائد الديوان، فإنه لا بد من البحث عن مدارات جديدة لما كتبه الحربي بين عالمي الصمت والجنون، وهذا البحث يتوخى الدخول إلى تلك المدارات التي خرجت منها المرأة، ليس خروجاً شكلياً بل خروجاً موضوعياً. بمعنى أن المرأة قد تكون موجودة بالاسم ولكن غير موجودة بالفعل، بحيث أن وجودها الخارجي لا يشوب الرؤية ولا يؤدي إلى تعدّدها وتناقضها.

ففي ست من قصائد الديوان هي : «صبا تسكن السابعة، ونحن وهم، وأشرب الحب من عينيها، وبلقيسزياد، والرجوع إلى المدينة إلى امرأة منكسرة وعائدة إلى الفرح البكر» تشكل المرأة محور رؤية الشاعر، من خلال الإمتزاج الدائم بين هموم الذات وأهمية العالم، بل إن هذا الإمتزاج يصل ذروته عندما يتجاوز المعنى إلى حدود التداخل اللفظي في قصيدة «بلقيسزياد»، أما في قصائد الديوان الأربع الأخرى، وهي : إيغال، وتداخلات دمشقية وحاملة الشهد وفوزان، فإن للشاعر استقلاله الذاتي، ومداراته الجديدة، وتشكيله المتفوق، وتجيّه الجديد، بل تكاد تسيطر عليه نزعة ذكورية قوية لا تحمل أبعاداً نفسية ولكنها ذات توجهات تاريخية وموضوعية شاملة. وحتى في قصيدة «حاملة الشهد» ذات العنوان الأنثوي الشفّاف، والتي تعد من أفضل قصائد الديوان من حيث التماسك الفني والتناغم الإيقاعي والتشكيل الصوتي، والتفرّد اللفظي والعمق الرؤيوي، حتى في هذه القصيدة يُحجّم الشاعر وجود «حاملة الشهد» ويؤطره ويضعه بين قوسين لأنه صوت خارجي يفرضه التذكّر والتداعي التاريخي، وذلك بعد أن يفرض الشاعر وجوداً منحازاً إلى عالمه الرجولي الخاص مؤكدا على وجوده المستقل.

[أحمل وجهي وأمشي
إلى حيث يجتمع المدمنون على قتل أوقاتهم
قلت أمشي إليهم، أشاركهم قتلها
قلت أمشي، مشيت
حذائي يطالعني في الزجاج النظيف].

وحين تدخل المرأة هذه المعادلة الخاصة، تأتي من خارج الحالة، ولا تجيء إلا عبر ذاكرته ومن خلال تداعياته :

[تذكرت ناراً تباعدُ، عرض السواعد
والوهج المتصاعد من أعين البدو
أشعارهم في النساء، المساء
السيوف التي كسرت في وجوه الرمال
النساء اللواتي احترفن انتظار الرجال
تذكرتُ ...]

وقبل أن تطلع المرأة من آخر صوت، يؤكد الشاعر على تميزه واستقلاليته، ويبقي المرأة خارج اللحظة، وعندما تجيء فإنها تتخذ حالات كثيرة من التماهي والتحوّل السريع من امرأة إلى مدينة ومن مدينة إلى امرأة:

[أنا الحوت ما ضمّني البحر
أرقص في الرمل
والرقص موت.
أنا الصوت في الفجر
أول صوت
وآخر صوت
(صباح له لون خديك حاملة الشهد

أي الشوارع أرتاد حين أغادر رمس التوجد؟
لا ضمّني البحر. لا ضمني قارب لابن ماجد
عارية أنت، خارجة أنت
زاويتي أنت.
.......].

والحقيقة أن التماهي المتكرر واحتدام المناجاة واستمرار التحوّل الذي يأخذ مدى أسطورياً واسعاً يسلم الشاعر إلى غنائية مفرطة وغير مألوفة في كثير من قصائده، فالحربي شاعر ينتصر غالبا للمعنى، ولا يبهره حفيف القوافي، ولا يحفل كثيراً بنهايات جمله الشعرية ولا تأخذ منه هندسة القصيدة عناء كبيراً، وعندما تجيء جمله وصوره الشعرية متسقة تماماً مع إيقاع القصيدة، ومع قوافيها التلقائية، تبلغ الغنائية ذروتها ويتسع مداها حتى تبدو مسكونة بكثير من إيقاعية محمود درويش وبشيء من صور معين بسيسو.

[مغلّلة بالقيود / معلّلة بالندى
مسافرة بالوعود / محلّلة للردى]

[وصبح كما الأمس نحبو إليه ؟
تباركت كيف اتكأنا عليه ؟
وكيف بكينا على مقلتيه ؟
وكيف أتانا يلملم أكفانه في يديه ؟
صباح له لون خديك
متعبة أنت
بل متعب ......
ولكنه صاحبي
كنت أخفيه دوماً لأبكي عليه
سلام عليه ... سلام عليه].

وفي قصيدة (تداخلات دمشقية) يودّع الشاعر المرأة تماماً ويبدأ على غير العادة بمناجاة صديقه عابد، عبد، عبدالإله (عبدالله) ويبدو أن دمشق تملؤه بإشباع تاريخي وحضاري وماضوي ينسيه تماماً تلك الحبيبة التي ملأت كونه الشعري، فهو عندما يتذكرها لا يتخطى الحلم :

[ها رأيت إذا الحلم يصدق .. يكذب
أين وضعت يدي حين ودعتها]

فهو يستدعيها ليودّعها وينساها ليحب :

[البلاد التي أنجبتني، أحب
الجباه التي ضحكت واختفت]

فمن الواضح أن الشاعر أمام مأزق تاريخي، وأن علاقته بالمدينة: ماضيها وحاضرها ومستقبلها تفوق أية علاقة أخرى وأن أزمته ذات جذور لا تمت إلى الفردية بصلة.

[مع الفجر ودعت صوت الشمال
صحبت رفيق الشمال
صعدنا معاً، ومعاً
كنت أعرف أن المآذن أسمى
وأن النخيل يموت ليحيا
....
من هنا
من دمشق الندى

كان للبوح صدق الطفولة
كان المدى]

وبهذا الإسترخاء والارتداد التاريخي يواجه رفيقه، ليواجها دمشق معاً ويعود به إلى القرون الخوالي :

[فهذي دمشق تحدثنا الآن عن والدي
عن جلود مضوا
عن عطور الخليفة]

ولأن القرون الخوالي قد غبرت، ولأن دمشق قد تغيرت، وتبددت من حولها عطور الخليفة، تنكشف رؤية الشاعر في لحظة قاسية يعرّي فيها كل الأشياء ويعرّي نفسه، ويضع سؤاله في مواجهة الجميع :

[ودمشق التي أرتدي
تصمت الآن
يشلحني عريها
إلى أين يمضي الفرات ؟
إلى أين تمضي دمشق ؟].

وتنتهي «تداخلات دمشقية» بهذا السؤال الصعب الذي لو عرف الشاعر جوابه لما طرحه أصلاً.

ولا يبقى في الديوان غير القصيدتين الأولى والأخيرة:

الأولى : هي (إيغال) الشاعر في القصيدة، وفي الوطن، وفي الكون والأشياء، الأولى التي تشي بأن مشروعية الحلم تكاد تتحقق بالفعل على المستويين الفكري والجمالي، فالشاعر يلخص ويكثف رؤيته في قصيدة غنائية يمتزج فيها الشعر بالفكر لإثبات أن هذه الغنائية المشبعة بالشفافية والصور الرومانسية التي تجنح كثيراً إلى زوايا الذات ليست مجرد انتشاء فني، وإنما لها أبعادها الموضوعية التي تسبغ على القصيدة قيمتها الحقيقية والتي تقبل البقاء عندما يخضع الذوق المعاصر للتغير المحتوم ويصير الإيقاع مجرد ظاهرة شكلية لا تستطيع النفاذ إلى المستقبل.

في القصيدة الأولى يحاول «الحربي» تجاوز هذه المعادلة وهاجسه غير بعيد عن بعض هواجس الشباب:

[هل رأيت الأحرف الزرقاء
توغل في الرحيل ؟
وهل رأيت الأمس يطوي يومنا،
يطوي خطانا ؟
كل شيء للفناء ، فما ترانا
نستمد من البقاء : سوى الرحيل]

إن أنفاس السياب وصوره وإيقاعيته ولغته تبدو قوية في هذا المقطع الذي يستقبل قارىء الديوان في القصيدة الأولى ويقوده إلى بقية القصائد ــ الواحدة تلو الأخرى ــ بثقة واطمئنان، إلا أن هاجس الخلود الذي تحقق للسياب عبر ثقافته وملحميته واغترابه يبقى لدى الحربي مجرد أمنية :

[بعثر الأوراق .. بعثر
اعطني شرف الخلود
ومد لي جسراً إلى وعد جميل]

○ أما القصيدة الثانية، وهي القصيدة الأخيرة في الديوان فهي قصيدة «فوزان» المتفرّد المتوحد (المتواصل بين اثنين، يحط من تعب إلى تعب، خريفي الملامح، يأتي صامتاً، يجاوز ردهة، ويلقي على الأبواب بسمته قائلاً: مساء الخير، فيجيبه الأصحاب: ــ مساء الخير يا فوزان).

إنه فوزان الدبيبي الصحفي، الكاتب، الفنان، الذي رثاه «الحربي» بقصيدة يحار المرء في وصفها، هل يمكن أن تكون قصيدة تسجيلية؟ وهل يمكن أن تنسحب التسجيلية على القصيدة مثلما تنسحب على القصة؟ إن السردية والوثائقية والحركة التي يشيعها الشاعر في القصيدة هي التي تضفي على القصيدة مثل هذا الوصف، ولكن كيف للسردية والمباشرة أن تحتفظ بهذا الرونق، وتزهو بهذه الصور، وتتمتع بهذا التأثير، وتقدر على عبور النفس فتحدث فيها رعشة جوانية تمطر في الداخل حزناً وألماً:

[لم يكمل مع المذياع قهوته
ــ كان يستمع لأحداث حصار بيروت
ولم يكمل كتابته
حديث الصفحة الأولى
ــ كان يكتب افتتاحية جريدة «الرياض» ــ
ومر بغيرها فوزان
هنا في شارع الظهران
ــ حيث مقر الجريدة ــ
كان ضجيج مطبعة
وكان اللغو
كان حديث أربعة
يد مرتاعة ترتد
.... ذا (عدُّ)
وذا يوم مضى
متنحيا مرّا
وكم مرّا
فما التفتت له عينان]

ويكاد «الحربي» يقدم فيلماً تسجيلياً لسيرة «فوزان» اليومية، بتصوير لحظوي مباشر وسردي، ولكنه يصل إلى داخله وينقل هواجسه وحركاته وسكناته ويصور علاقاته وأفعاله وردود أفعاله، ويبدو أن البساطة والتلقائية والإنفعال الحاد الذي أسلم الحربي إلى الحالة الشعرية في قصيدة «فوزان» بعيداً عن الذات وما تفرضه من ارتباك داخلي خشية الكشف، وبعيداً عن المرأة ومواصلة الإلحاح على المفردة المتميزة والصورة الخاصة، هي ما جعل القصيدة واحدة من أفضل قصائد الديوان، مما يؤكد أن الخروج من قوقعة الذات والإرتطام الحاد بالآخر هو أهم مكوّنات الضجة الشعرية التي تهدر في نفس القارىء ولا تهدأ بسهولة.

ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره

(تعريف واستدراك)

جليل العطية

أبو الشيص: محمد بن عبد الله بن رزين بن سليمان الخزاعي ، وفي رواية أخرى : هو أحد أحفاد «بديل بن ورقاء» ــ الصحابي الجليل ، الذي أسلم هو وابنه يوم فتح مكة، وتوفي في حياة الرسول (ص).

وأبو الشيص لقب غُلب عليه، وكنيته أبو جعفر، والشيص : بالكسر: تمر لا يشتد نواه.

قال الفراء : وقد لا يكون له نوى، وقيل : هو ردىء التمر، واحدته شيصة وشيصاء وأبو الشيص: من بيت معرق بالشعر، وصفه صاحب العمدة بأنه من : «بيوتات الشعر»، فابنه «عبد الله» شاعر، ومن رجال بيته: داود بن رزين وهو شاعر ماجن، كان من أصدقاء «أبي نواس».

ورزين بن علي : شاعر مقل،

وعلي بن رزين، شاعر ذكره ابن النديم وقال: إن شعره يقع في خمسين ورقة.

وعلي بن علي : شاعر ذكره ابن رشيق القيرواني (العمدة ٣٠٧/٢).

والحسين بن علي من شعراء القرن الثاني، ذكره النديم (الفهرست: ١٨٣) وقال : إن ديوانه يقع في مائتي ورقة.

وأبو الشيص عم دعبل بن علي بن رزين لحاً (الأغاني ١٠٤/١٥).

والمعلومات التي وصلت إلينا عن أبي الشيص. قليلة، ويمكن القول إنه ولد في الكوفة بين سنتي ١٢٦ ــ ١٣٦هـ ونشأ بها، ثم انتقل إلى بغداد ودرج في بلاط هارون الرشيد حتى عُدّ من شعرائه، وله فيه مدائح ومراثٍ مشهورة، كما ذكر المؤرخون الذين ترجموا له. ثم ارتحل إلى «الرقة» حيث انقطع إلى أميرها «عقبة بن جعفر ابن الأشعث الخزاعي، وقتل على يد أحد خدم هذا الأمير، والمرجح أن قتله تم سنة ١٩٦هـ وتفرد صاحب «الأغاني» بذكر واقعة مقتله وأسباب ذلك.

وأبو الشيص : شاعر مطبوع.

قال ابن المعتز : كان من أوصف الناس للشراب وأمدحهم للملوك، وكان سريع الهاجس جداً، فيما ذكر عنه. (الطبقات : ٨٧).

وقال ابن رشيق :

ومن طبقة أبي نواس، العباس بن الأحنف، ومسلم بن الوليد ــ صريع الغواني ــ والفضل الرياشي، وأبان اللاحقي، وأبو الشيص (العمدة ١٠١/١). وذكر النديم أن لأبي الشيص ديواناً صنعه أبو بكر الصولي، «المتوفى سنة ٢٤٣هـ» وقال هو في خمسين ومائة ورقة (الفهرست: ١٨٣)..

وقد ضاع هذا الديوان فيما ضاع من تراث العرب والمسلمين.

المحقق :

أما المحقق الدكتور عبد الله بن أحمد الجبوري، فغني عن التعريف: إنه واحد ممن أسهموا ويسهمون في ميدان التراث، وقد أخرج إلى الآن نحو خمسين أثراً مطبوعاً في مختلف آفاق المعرفة العربية منها ــ على سبيل المثال :

١ ــ ديوان ابن النقيب ــ مطبوعات المجمع العلمي العربي (اللغة العربية لاحقا) بدمشق ١٣٨٣ ــ ١٩٦٣.

٢ ــ ديوان ديك الجن (بالمشاركة مع الدكتور أحمد مطلوب) ــ بيروت ــ دار الثقافة ــ مطبعة المتنبي ــ ١٣٨٣ ــ ١٩٦٤.

٣ ــ ديوان ابن الدهان الموصلي ــ بغداد ــ ١٣٨٨ ــ ١٩٦٨.

٤ ــ رسالة الطيف لبهاء الدين علي بن عيسى الأربلي ــ منشورات وزارة الاعلام، سلسلة التراث (٩) ــ بغداد ــ ١٣٨٨ ــ ١٩٦٨.

٥ ــ ديوان مسكين الدارمي (بالمشاركة مع خليل إبراهيم العطيــة) بغداد ــ مطبعة البصري ــ ١٣٨٩ ــ ١٩٧٠.

٦ ــ التذكرة السعدية في الأشعار العربية لمحمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي ــ الجزء الأول : ط١: المكتبة الأهلية ببغداد ــ ١٣٩١ ــ ١٩٧٢. ط٢: الدار العربية للكتاب ــ تونس ــ ليبيا ــ ١٤٠١ ــ ١٩٨١.

٧ ــ طبقات الشافعية (١ ــ ٢) لجمال الدين الأسنوي ــ مطبوعات وزارة الأوقاف ــ بغداد ــ ١٣٩١ ــ ١٩٧٠.

٨ ــ الحلبة في أسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والاسلام لمحمد بن كامل التاجي، الصاحبي ــ منشورات النادي الأدبي ــ الرياض ــ ١٤٠١ ــ ١٩٨١.

٩ ــ التذييل والتذنيب على نهاية الغريب للسيوطي، منشورات دار الرفاعي ــ المكتبة التراثية ــ الرقم (١) ــ الرياض ــ ١٤٠٢ ــ ١٩٨٢.

الجبوري وأبو الشيص :

في سنة ١٣٨٧ ــ ١٩٦٧ صدر في بغداد كتاب عنوانه : أشعار أبي الشيص الخزاعي ، جمعها وحققها عبد الله الجبوري . يقع الكتاب في ١٥٠ صفحة من الحجم المتوسط، تقع المقدمة في ١٨ صفحة، ويشغل نص الديوان نحو ٩٠ صفحة وتتوزع الصفحات الأخرى بين أخبار أبي الشيص والقصيدة الدعدية التي حققها عن مخطوطة الخزانة الظاهرية بعد أن رجح نسبتها إلى «أبي الشيص».

وقد قوبل صدور هذا المجموع الشعري بالترحاب، فهو ينشر أول مرة، وبذل المحقق جهداً مضنياً في جمع هذه الباقة الشعرية الأنيقة من شعر هذا الشاعر «وتأليفها في مجموع موحد خدمة للفكر العربي وللغة القرآن الكريم» «التمهيد».

وبعد ظهور المجموع تصدى له بعض الناقدين «فأذاع ما لديه من مآخذ، كان بعضها حقاً وبعضها .. في غير الحق».

هكذا يقرر الجبوري في ختام مقدمته للطبعة الثانية التي ظهرت منذ مُديدة، تحت عنوان :

ــ ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره، صنعة عبد الله الجبوري. منشورات المكتب الاسلامي ــ بيروت ــ دمشق ــ ١٤٠٤ ــ ١٩٨٤ قوام الكتاب ١٩٠ صفحة ــ شغلت المقدمة ٢٣ صفحة، بينما شغل النص الشعري ٩١ صفحة، وكان نصيب القصيدة الدعدية ٢٨ صفحة وللشعر المتنازع ٩ صفحات ولأخبار أبي الشيص ١٣ صفحة ثم تأتي جريدة المظان والأصول.

مزايا النشرة الجديدة

وكان لي أن اقرأ النشرة الجديدة فأقول مُوجزاً مزاياها:

١ ــ إن المحقق الفاضل آثر الاستمرار بالعناية بالشاعر أبي الشيص وبالقصيدة الدعدية، فضمت الطبعة الجديدة، اضافات قيمة «كماً ونوعاً» ، كما تقول اليوم.

٢ ــ إنه أحسن صنعاً بابدال العنوان من «أشعار» إلى «ديوان».

٣ ــ أحسن المحقق بافراد باب للشعر المتنازع.

٤ ــ لم يثبت بحور القصائد والمقطعات، كما فعل في الطبعة الأولى.

مآخذ ومقترحات

لقد خرجت بعد قراءتي للديوان بطبعته بملاحظات عامة تتعلق بالمنهج العام الذي تبعه المحقق أوجزها بما يلي:

١ ــ كنت أتمنى أن ينهد لجمع أشعار عبد الله بن أبي الشيص وبقية أفراد الأسرة ــ الشيصية الخزاعية، وبهذا يضيف خدمة جديدة للشاعر وللشعر.

٢ ــ لم يتبع المحقق التسلسل الزمني في تثبيت مصادر التخريج.

٣ ــ كنت آمل أن تتضمن ــ أخبار أبي الشيص ــ ترجمته من بعض المخطوطات النادرة ، كتاريخ ابن عساكر (٥٧١هـ) مثلاً.. إذ لا يخفى أن نقل الأخبار من بعض المصادر الشهيرة ــ كالأغاني ــ قليل النفع!.

٤ ــ اعتمد في التخريج على بعض الكتب المصنفة حديثاً، كـ: مدامع العشاق للدكتور زكي مبارك وغيره وهو من الأمور المرفوضة في تحقيق النصوص القديمة، كما يعلم المحقق.

المستدرك :

لا مراء أن عملية جمع أشعار من لم تصل إلينا دواوينهم ، عملية شاقة، لا يعرفها إلا من سلك هذا الدرب الشاق، فمن العسير ادعاء الاحاطة والشمول، إذ يتعذر الاطلاع على جميع ما صدر من نصوص تراثية، من جهة كما أنه يستحيل الوقوف على كل المخطوطات العربية المبعثرة في خزائن الغرب والشرق من جهة أخرى.

وكان أن وفقني الله للظفر بقصائد ومقطعات جديدة لأبي الشيص، رأيت من الواجب تقديمها، خدمة للتراث الشعري العربي، ولم أشأ أن أُشغل وقت القارىء بتصحيح بعض الأخطاء المطبعية أو الاستدراك على التخريجات التي فاتت المحقق الصديق «فإن أنفاس الناس لا يأتي عليها الحصر، ولا تنفد حتى ينفد العصر» كما قال الميداني «مجمع الأمثال ٦/١».

والكمال والعصمة له.

المســـــتدرك

(١)

○ قال أبو الشيص قصيدة مدح بها هارون الرشيد، تنيف على مائتي بيت، منها :

١ ــ ربعُ دارٍ أعفَّها الإقواءُ وعفتها الأرواحُ والأنداءُ
٢ ــ كرّ فيها البلى فأخلق بُرديـ ـه صباحٌ بحداده ومساءُ
٣ ــ طالعتك الأيامُ واحتكمت فيـ ـك وفي حُكمها البلى والفناءُ
٤ ــ شتّتْ شملك الجميع من الحـ ـسنِ ومن ربعةٍ بك غنّاءُ
٥ ــ يا غنيّ النهار، كيف تُناجيـ ـك ديارٌ من الأنيس خلاءُ ؟
٦ ــ ليس فيها إلا الجنادلُ والتر ب وهامٌ تُجيبُها الأصداءُ
٧ ــ وقبيح بذي الثلاثين والعشـ ـر بذي الشيبة الكبير البكاءُ
٨ ــ في طلول دوارس ما حلاتٍ ورُسوم عفا عليها العفاءُ
٩ ــ يصدحُ الأخطب المشجّح فيها ويُغنّي في جوّها المكّاءُ
١٠ ــ ولعهدي بالدار والدار تحيـ ـي جماعًا مأهولة غنّاءُ
١١ ــ يتحى في جمامها بالفوى العـ ـنف صقورٌ صوائدٌ، وظباءُ

١٢ ــ عن نفوسٍ لا آمراتٍ بسوءٍ   وعُيونٍ في طَرفِهــا إغضاءُ
١٣ ــ كُلُّ مجدولةٍ مهفهفةِ الكَشْـ   ـحِ فيها تَجرُّقٌ وجَفاءُ

ومنها :

١٤ ــ تحت ظلِّ الرمان إذ ذاك [أيــام]   علينا من ظلِّه أفياءُ
١٥ ــ وكميتٍ أرقُها وَهجُ الشمـ   ـسِ وصيفٌ يطل بها وشتاءُ
١٦ ــ لم يَمَسها الطَّاهي بنار، ولا عـ   ـزها عن طبيعةِ الكرمِ ماءُ
١٧ ــ طبختها الشِّعرى العبورُ وحثَّتْ   نارَها بالظهائـرِ الجوزاءُ
١٨ ــ مخضتها كواكبُ القيظ حتى   أقشعتْ عن سمائهـا الأقذاءُ
١٩ ــ وجلا ما كَسَتْ خواشيها الشمـ   ـسُ اطِّراداً في نشْرِها وصفاءُ
٢٠ ــ فهي كالسُّرج في الزجاج إذا ما   مَجّهـا في زجاجِها الوُصفاءُ
٢١ ــ وعروس لم تفترعها يَدُ الشا   ري، ولا امتصَّ ريقَها النُّدماءُ
٢٢ ــ عانسٌ من عوانسِ الصَّيفِ بِكرٌ   بخواتيم زَنْها عذراءُ
٢٣ ــ غارسٌ من غراس كسرى بن ساسان   غذّتها أمٌّ لها شمطـاءُ
٢٤ ــ شيَّبتْ بالمِطال ناصية الدهـ   ـرِ ومـا في قُرونِها بيضاءُ
٢٥ ــ يعبق المسكُ الذكيُّ إذا ما   فُتِّقـت في الإنـاءِ بها ذكاءُ
٢٦ ــ وَدَمُ الشادن الذبيح وما يحـ   ـلبُ الشاقيـان منها سَواءُ
٢٧ ــ وغزالٌ تشجي بأردافه الأز   رُ، وتحيـا في قُمصه الأحشاءُ
٢٨ ــ قد طوى بطنه ــ على سعة العيـ   ـشِ شُموُسٌ في خصرِه واطواءُ
٢٩ ــ قد ثنى كأسَها عليَّ وللهيـ   ـلِ عليـه من بُردِه أثناءُ
٣٠ ــ ولَدَ الله إذ ذاك في طاعة الجهـ   ـلِ، وقومي من الصبا أمراءُ

ومنها :

٣١ ــ ورياضُ اللذّات تخضرُّ مربعا   تٍ وللعيـش دِيمةٌ وَطفـاءُ
٣٢ ــ قبل أن يَلبسَ المشيبُ عذاري   وتـبلى عمائمـي السَّوداءُ

ومنها :

٣٣ ــ فلئن حصَّتِ الحوادثُ ريشي   وانتقت أعظمي الشئون الظماءُ
٣٤ ــ وتناهتْ بطالتي وانقضى جهـ   ـلي، وللجهـلِ شِرَّةٌ وانقضاءُ
٣٥ ــ لِيَ يا سلامُ لهفٌ في مُشـ   ـتي قنـاةٍ قويمةٍ مَلْساءُ
٣٦ ــ لِي ركنٌ آوي إليه شديدٌ   ويَـدٌ أتَّقـي بها خَشناءُ
٣٧ ــ وأشمُّ العظام ينتهبُ الخَرْ   قَ فضاءٌ أرجـاؤه وهـواءُ
٣٨ ــ يتمطّى إذا تمطّت بي البيـ   ـدُ فُلكٌ في خطوهن اعتداءُ
٣٩ ــ لا تغضّي الرياحُ من شأوهِ إلا   وهُـنَّ الطَّلائـحُ الانضاءُ
٤٠ ــ يتخطى إلى الخليفة هرو   نَ رَجاءٌ يرمـى به ورَجاءُ
٤١ ــ بلغ الغاية التي ليس بعد الله   للمُـرتقي ورامهـا وَرَاءُ
٤٢ ــ مَلِكٌ يُصدِرُ الخلافةَ عَنْ رأيٍ   إليـه تشـوحشُ الآراءُ
٤٣ ــ والإمام الذي جَنابُه للنا   سِ غديـرٌ وروضةٌ خضراءُ

ومنهـا :

٤٤ ــ إنَّ هرون خيرُ من تحمِلُ الأر   ضُ عليها ومن تُظِلُّ السَّماءُ

ومنها :

٤٥ ــ مَلِكٌ لا يُمتِّعُ المالَ بالما   لِ ولا تصطلي به الـلأواءُ
٤٦ ــ قائمٌ بالنهار في رعيةِ النا   سِ وبالليـلِ ساجدٌ بكّـاءُ

ومنهـا :

٤٧ ــ قسَّمَ الدهرَ بين حجٍّ وغزوٍ   فهو في الدهر مُحـرِمٌ غزّاءُ

ومنهـا :

٤٨ ــ وإذا ما الأمور أثقلها النا   سُ وأعيـا على الأساةِ الـدَّواءُ
٤٩ ــ فلّ عن مؤتسايها عُقَدَ الشـ   ـكِّ برأيٍ دانتْ له الآراءُ

ومنهـا :

٥٠ ــ يا إمامَ الهُدى بك اعتصم الدِّ   ينُ وقـامتْ قناتُـه الميـلاءُ
٥١ ــ إنما أنت للخلافـة عرشٌ   سَكنـتْ في ظلالِـه الأحيـاءُ
٥٢ ــ قمرٌ تضحكُ الخلافةُ عنهُ   وسراجٌ بنـــوره يُستضاءُ

ومنهـا :

٥٣ ــ ليس للموت غير سيفك غِمدٌ   وهـو للمـوت جُنَّـةٌ ووِقـاءُ
٥٤ ــ إنما الناسُ ما خلاك رَعايا   تُ وأبنـاؤك الـوُلاةُ رِعـاءُ
٥٥ ــ ثم أنت الراعي لها، ولك اللـهُ، فنِعمَ الرُّعاةُ والرُّعـاءُ

○ التخريج : كتاب العصا لأسامة بن منقذ ــ (٢٦٧ ــ ٢٧٢).

○ الملاحظات : أثبت المحقق خمسة أبيات من هذه القصيدة، لم نوردها هنا.

(٢)

وقال في العتاب :

١ ــ يا مُعرضاً متغضّبا نَفْسي فِداؤك مُعرضا
١ ــ هَبني أسأتُ وما أسأتُ، بل أسأتُ : لك الرِضا
٣ ــ اعزِلْ صُدُودك جانباً واغفر لعبدك ما مضى !

○ التخريج : كتاب جعفر بن شمس الخلافة (مخطوط) : ق ١٩١ ب.

○ وقال :

١ ــ فديتُك إنما اعترناك عمداً   بأنك لا تحيضُ ولا تبيضُ
٢ ــ فلو يلنا إلى وصل الغواني   لضاق بسيلنا البلدُ العريضُ!

○ التخريج : روح الروح ــ مخطوط ــ ق ١٣٩ ب.

(٤)

○ وقال في حَيرة الدمع في العين :

١ ـ حَيَّرتْ تهيّ الدموع فإنسا في غليلٍ تبدو براراً وتخفى

٢ ـ فكأنّي نظرتُ من خلفِ بحرٍ هزّت الريحُ نفحة فتكفّى

○ التخريج : كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب [تحقيق الحسني] ١ : ٤٦٩.

(٥)

○ وقال :

١ ـ إنما امحضُ المودةَ منّي كل ذي حيطةٍ عليّ شفيق

٢ ـ مَنْ رأى أنه عدوّ عدوّي ورأى أنه صديقُ صديقي

○ التخريج : الأنس والعرس لأبي سعد الآبي (مخطوط): ق ٦٠ ب.

(٦)

○ وقال في العتاب :

١ ـ يا أخاً كان يفزع الدهر من ذكرى له عند نائبات الحقوق

٢ ـ كنت تحلّ حبّة القلب من صدري وتجرى مجرى دمي في عروقي

٣ ـ كنت منّي مكانَ بعضٍ من بعضٍ فأصبحتَ من مدى العيّوق

٤ ـ إن بدتْ حاجةٌ اليك احلّتني مكان البعيد منك السحيق

○ التخريج : الأنس والعرس للآبي (مخطوط): ق ٤٩ أ.

(٧)

○ وقال :

١ ـ صيرتَ نشراً إذا التحفتَ بثوب نيّ ولوحاً إذا سلكتَ طريقي

○ التخريج : البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ [تحقيق هارون]: ٤٤٨.

(٨)

○ وقال :

١ ـ زارتك في غلس الظلام خوداً في فتك الظلام

٢ ـ خودٌ كأنّ جبينها بدرٌ تجلّى من غمام

٣ ـ ريحانها وَرْدُ الخدو دِ ونقلنا قُبلُ الإلتثام!

○ التخريج : كتاب المحب والمحبوب للسري الرفاء (١ : ٦٩٩).

(٩)

○ وقال :

١ ـ يا ليلةً جمعت لي طيبَ أربعةٍ وبهتُ فَرْحتي والدهرُ وَسنانُ

٢ ـ الريحُ شرقيةٌ والراحُ مُشرقةٌ والبدرُ مُبتدرٌ والسرورُ رَيحانُ

○ التخرج: المختار من قطب السرور: ٣٨٧.

(١٠)

○ وقال :

١ ـ الله أجرى لنا من بَطن راحته سَحابةً ما يَغبُّ الدهر جَدْوَاها

○ التخريج : كتاب جعفر بن شمس الخلافة (قسم المنظوم) ـ مخطوط ـ ق٥٥ ب.

○ الملاحظات : يضاف البيت إلى القطعة المرقمة «٦٦» ص١١٤ ويكون ترتيبه: الرابع.

المصادر

١ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ـ القاهرة (١ـ٢١) ـ طبعة الساسي.

٢ ـ الأنس والعرس لأبي سعد منصور بن الحسين الآبي ـ مخطوطة مصورة ـ .

٣ ـ البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ـ ١٩٨٢.

٤ ـ روح الروح لمصنف مجهول من القرن الخامس ـ ظناً ـ مخطوطة مصورة.

٥ ـ طبقات الشعراء لابن المعتز ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٦.

٦ ـ العصا لأسامة بن منقذ ـ تحقيق حسن عباس ـ الأسكندرية ـ ١٩٧٨.

٧ ـ العمدة لابن رشيق (١ـ٢) ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٣٤.

٨ ـ الفهرست للنديم ـ تحقيق رضا تجدد ـ طهران ـ ١٣٩١ ـ ١٩٧١.

٩ ـ كتاب جعفر بن شمس الخلافة ـ مخطوطة مصورة.

١٠ ـ مجمع الأمثال للميداني (١ـ٤) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ ـ ١٩٨٢.

١١ ـ المحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسري بن أحمد الرفاء ـ تحقيق الدكتور حبيب حسين الحسني ـ ج١ ـ بغداد ـ ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢.

١٢ ـ المختار من قطب السرور ـ اختيار علي نور الدين المسعودي ـ تونس ـ مؤسسة .. ـ عبد الكريم بن عبدالله ـ ١٩٧٦.

١٣ ـ معجم المؤلفين العراقيين ـ (١ـ٣) تأليف كوركيس عواد ـ بغداد.

الشهب اللامعة في السياسة النافعة

لأبي القاسم ابن رضوان

عبد القادر زمامه

الأستاذ بكلية الآداب ــ فاس

ابن رضوان، أبو القاسم عبدالله بن يوسف/ الشهب اللامعة في السياسة النافعة تحقيق علي سامي النشار.ــ الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٤م.

أبو القاسم عبد الله بن يوسف ابن رضوان النّجاري المالقي شخصية لامعة في عصر بني مرين بالمغرب. تتجاذبها نواح عدة من العلم. والأدب. والسياسة. والرياسة. والقضاء. وهو مدين لمالقة بولادته. ولغرناطة بتعليمه. ولفاس بمنصبه. وشهرته. وصلته بأعلام عصره . كابن خلدون. وابن الخطيب. وعبد المهيمن الحضرمي. وأبي الوليد ابن الأحمر. وابن مرزوق . وغيرهم من رجال العلم. والأدب. والسياسة.

ومن حسن حظ أبي القاسم ابن رضوان أن يترجمه عدد من المؤرخين . في طليعتهم اثنان من الآخذين عنه وهما :

ــ أبو زكريا يحيى السراج في فهرسته المخطوطة ...

ــ وأبو الوليد اسماعيل ابن الأحمر. في كتابيه : نثير الجُمان في شعر من نظمني وإياه الزمان[١]. و «مستودع القامة»[٢] كما ترجمه آخرون من معاصريه وغيرهم.

وتنتمي أسرة أبي القاسم إلى بني النجّار من الأنصار. وكانت تستوطن مدينة مالقة الأندلسية. وبها ولد أبو القاسم سنة ٧١٨هـ ــ ١٣١٨ م كما يقول تلميذه أبو زكريا السراج. في فهرسته المخطوطة. وبها نشأ وتعلم. في ظلال أسرة ماجدة .. لأفرادها مكانة مرموقة في العلم. والرياسة. والجاه .. وأخذ العلم عن كثير من أعلام مالقة. وغرناطة. وشاهد منذ بواكر شبابه. عدداً من الأحداث السياسية التي مرت بها دولة بني الأحمر. ولا سيما تلك المنازعات التي كانت قائمة إذ ذاك بين ملوك غرناطة وأبناء عمومتهم أمراء مالقة، وتلك المنافسات التي كانت تدور سراً وعلناً بين بني الأحمر وبني مرين..

وكانت معركة طريف المشؤومة سنة٧٤١ هــ ــ ١٣٤٠م مما ملأت له نفس الشاب أبي القاسم ابن رضوان حزنا وألما. لا سيما وقد فقد فيها استاذه أبا القاسم ابن جُزَي المفسر، المحدث، الفقيه المشهور، الذي استشهد في صفوف هذه المعركة .. مع عدد من العلماء والفضلاء.

وإثر هذه المعركة ودّع أبو القاسم ابن رضوان الأندلس ووفد على السلطان أبي الحسن المريني في هبتة، حيث بدأت صلته الفعلية بهذه الدولة، وهو شاب في عنفوان شبابه. واستمرت هذه الرحلة أكثر من أربعين سنة. مارس فيها عدة أعمال ومناصب، ومرت به عدة تجارب وتقلبات. ورافق الملوك والأمراء والوزراء والخاصة والعامة والأصدقاء والخصوم!.

ويعزى سر نجاح ابن رضوان فيما أخفق فيه معاصروه: ابن خلدون، وابن مرزوق، وابن الخطيب، إلى ما كان يميز شخصيته من تعقل واتزان وصبر وخبرة بالحياة وأنماط الأحياء، وما يمارسه من مداراة الأعداء. وتحمل أذاهم مع الحلم، والأناة، والاستقامة،

والاعتدال، وتقديم المعونة لمن يستحقها!.

وهكذا عاصر ابن رضوان عدداً من ملوك بني مرين. فكان كاتبا وخطيبا وقاضيا وأمينا ومستشارا. وكان يلقب بصاحب القلم الأعلى!.. لأنه كان يكتب ما كان يعرف إذ ذاك بالعلامة .. في الرسائل الرسمية.

وهذه العلامة. كانت هي التوقيع الرسمي. والشارة الخاصة، التي برسمها في الرسائل ، والمراسيم تأخذ طابع الاعتماد والثقة والتنفيذ..

ومن أجل الأهمية التي كانت لهذه العلامة في النظام المعمول به عند الدول المتعاقبة. ألف أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر كتابه الطريف: مستودع العلامة .. وفيه ذكر العلامة. وكتابها، ومن جملتهم أستاذه أبو القاسم ابن رضوان صاحب العلامة في دولة بني مرين.. وصاحب القلم الأعلى.

ورافق ابن رضوان السلطان أبا الحسن المريني في حركته إلى تونس. وشاهد ملابسات هذه الحركة. ونتائجها الايجابية ، والسلبية، ودرس عن كثب كل ما شاهده من ممارسات الخاصة والعامة أيام الرخاء والشدة، والنظام والاختلال. والنصر والهزيمة!..

كما رافق خلفه السلطان أبا عنان في رحلته إلى أفريقية والزاب. وعرف المقاصد والهدف العلني والسري للسياسة المرينية.

وبعد موت أبي عنان في الظروف المعروفة ، شاهد ولابس كل الانتكاسات والمغامرات التي قام بها الوزراء والحجاب. من أجل فرض نفوذهم على كل من ينصبونه للحكم!.. وإقصاء منافسيهم وخصومهم!.

وبسبب هذه الانتكاسات والمغامرات اهتزت كراسي، ومالت موازين، وسفكت دماء وحلت رواجف وروادف بالحكام والمحكومين. ولكن أبا القاسم ابن رضوان ظل يعيش ثابت القلب. قوي العزم. يخطو على اللهب. ولكنه لا يحترق!.

وشاهد إخفاق ابن خلدون..! ونكبة ابن مرزوق..! ومأساة ابن الخطيب...! وكلهم من الرفقاء في البلاط المريني. غير أن ابن رضوان كان حذراً يقظا، متزنا، لا يجري لاهثاً وراء البرق الخُلّب..!

فمنذ وفد على السلطان أبي الحسن المريني سنة ٧٤١هـ — ١٣٤٠م. إلى أن ودع هذه الحياة بآنفا، أو بأزمور سنة ٧٨٣ هـ — ١٣٨١ م. وهو في طريقه إلى مراكش مع السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم المريني ... لم يسجل عليه المؤرخون من الصفات، ولا من السلوك ما يصمه بوصمة عار أو طيش أو غرور..!

وترك أبو القاسم أصداء في كتب التاريخ والأدب والتراجم ولكن نصوص انتاجه لا نظفر منها إلا بالقليل ... والمؤرخون يتحدثون عن فهرسة لشيوخ ابن رضوان[٣] ولا نعرف عنها — لحد الآن — شيئاً .. وهي فهرسة حافلة كما يظهر من أقوال المؤرخين..!

أما كتابه في السياسة المسمى : الشهب اللامعة، في السياسة النافعة الذي سنتحدث عنه الآن — وقد طبع في المغرب مؤخراً —[٤] فقد كنا نعرف منه عدة نسخ مخطوطة في خزائن خاصة، وعامة .... والمستغرب أن معاصري ابن رضوان ، أو على الأصح من إطلعنا على آثارهم. من هؤلاء المعاصرين ... لم يشيروا إلى هذا الكتاب وإنما أشار إليه من جاء بعد ذلك العصر..

فأبو العباس المغربي يشير إلى هذا الكتاب في كتابه: روضة الآس[٥].

والشيخ أحمد بابا السوداني التنبكتي يشير إلى هذا الكتاب أيضا في كتابه نيل الابتهاج[٦]...

ويظهر أن السبب الذي من أجله لم يذكر معاصرو أبي القاسم كتاب الشهب اللامعة. هو أن هذا الكتاب ألف في ظروف خاصة. وأهدي إلى السلطان أبي سالم ابراهيم بن أبي الحسن. الذي لم يستمر في حكمه أكثر من سنتين ٧٦٠ هـ — ٧٦٢ هـ

وانتهت حياته بمأساة شهيرة. وكان أبو القاسم ابن رضوان من المقربين إليه..

والكتاب داخل في الموضوع الشهير الذي نعرف أن علماء المسلمين ألفوا فيه الشيء الكثير . وهو يتعلق بما يمكن أن نسميه بالفقه الدستوري .. وأخلاق الحكام. وصفاتهم. وما ينبغي أن يأخذوا به أنفسهم وأحكامهم وتصرفاتهم من الذكاء والحذر واليقظة والحلم والعفو، والتغاضي، ومداراة أهل الجاه، ومراقبة الأعوان، والاستعانة بالكفاءات، واستغلال الفرص ، والمحافظة على المقدسات، وإقامة معالم العدل، لنشر الطمأنينة والثقة بين الناس..

والمؤلفون عادة في هذا الموضوع يتخذون من مادة التاريخ ، والقصص، أرضية لتحليلهم وتعليقهم واستنتاجهم، كما يتخذون من أعلام الملوك، والقواد، والمفكرين، والأبطال أمثلة تدور محاور مناقشاتهم حول ما أثر عنهم من أقوال، وأعمال، ومنجزات، اشتهر أمرها بين الناس...

فأبو القاسم ابن رضوان يريد أن يقدم للملك الشاب أبي سالم ابراهيم بن أبي الحسن، خالص النصح، ونافع التجربة، وزبدة المعرفة، وسديد الرأي، لمجابهة الأحداث ومصارعة الخصوم، وأداء المهمات العسكرية والسياسية والدينية المنوطة به .. لهذا ألف هذا الكتاب باسمه ، كما جاء في مقدمته .

وبهذا التصور نكون قد وضعنا ابن رضوان وكتابه في السياسة في الاطار الحقيقي الذي ينبغي أن يوضعا فيه. لا سيما والحقبة الزمانية التي تفصلنا عن ظروف التأليف، ووضعية المؤلف ليست بالقصيرة ..

ولعله يمكننا بعد هذا أن نلقي نظرة عن تحقيق مخطوطة الكتاب، ونشرها لتصبح من كتب التراث، التي عرفت النور، وتناولتها الألسنة والأقلام...

كان المرحوم الدكتور علي سامي النشار قد اهتم بهذا الكتاب، بعدما اطلع على عدة نسخ منه في الخزائن المغربية، واشتغل بتصحيح النص ، مع المقارنة بين النسخ والتعليق، والتخريج، والتصويب، ثم كتب مقدمة عن حياة المؤلف، وأهمية كتابه، وما تيسر له من مخطوطاته وهي ست.أشار لكل واحدة منها ، أثناء التحقيق بعلامة خاصة ...

ومقدمة المحقق مستوعبة مفيدة عن المؤلف، والكتاب، وظروف التأليف ... ولا حاجة تدعونا إلى إعادة ما أشارت إليه هذه المقدمة من استنتاجات استنتجها المرحوم الدكتور النشار..! وهي الآن مطروحة للنظر لأنها وجهة نظر خاصة..!

ولقد عاجلت المنية الدكتور النشار، والكتاب في المطبعة، ولهذا قامت دار النشر بإثبات ثلاثة فهارس للكتاب: للأعلام، وللأسر والدول، وللأماكن، مع «تقديم» ذكرت فيه بعض ما كان المحقق قد وعد بإنجازه..!

والكتاب يقع بفهارسه في ٤٦٣ صفحة من القطع ٢٤×١٧. وقد اخذت المقدمة . والتقديم ، ونماذج صور المخطوطات ٥٠ صفحة.

يبقى بعد هذه البيانات الضرورية. وهذه الإشارات الموضوعية .. أن كتاب الشهب اللامعة في السياسة النافعة لأبي القاسم ابن رضوان المالقي من كتب التراث الجديرة بالدراسة، لما تعكس من ثقافة العصر الذي ألفت فيه، واهتمامات رجاله...

وبخصوص كتاب الشهب اللامعة يعتبر ــ بعد المقارنة ــ من الكتب التي استمد منها ابن خلدون ، واعتمد عليها، اثناء كتابة مقدمته .. وإن كان ابن خلدون لا ينص على ذلك!..

وتتأكد هذه الحقيقة التي توحي بها المقارنة ، عندما نطلع على كتاب القاضي أبي عبدالله ابن الأزرق المسمى : بدائع السلك في طبائع الملك ، ونراه يلخص أفكار ابن خلدون في المقدمة ويحاول تصنيفها وتنميط محتوياتها ... ويضع إلى جانبها نصوص كتاب ابن رضوان ... الشهب اللامعة في السياسة النافعة...

فالقاضي ابن الأزرق كان على حق حينما ربط بين نصوص ابن خلدون في المقدمة ، ونصوص ابن رضوان في الشهب اللامعة

... واستخلص منها إلى جانب النصوص الأخرى ما كان يقصد إليه من أفكار وقواعد وأمثلة...!

وابن خلدون كان منصفاً حينما ترجم ابن رضوان في كتابه: التعريف.(7) ونعته بقوله:

«كان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب...! في براعة خطه. وكثرة علمه. وحسن سمته. وإجادته في فقه الوثائق، والبلاغة في الترسيل عن السلطان، وحوك الشعر والخطابة على المنابر، لأنه كان كثيرا ما يصلي بالسلطان، فلما قدم علينا بتونس. صحبته. واغتبطت به. وإن لم اتخذه شيخا. لمقاربة السن. فقد أفدت منه...»

كما أنه نقل عنه نكتة طريفة ــ في المقدمة ــ(8) تتعلق بشعر الفقهاء...!

الهوامـــش

(1) أنظر ٢٣٣. ط. بيروت ١٩٧٦م.
(2) أنظر ص ٥١. ط. تطوان.
(3) فهرس الفهارس ج١ ص ٣٣١.ط. فاس ١٣٤٦ هـ.
(4) طبع بمطبعة النجاح الجديدة. ونشرته دار الثقافة الدار البيضاء سنة ١٩٨٤م.
(5) أنظر ص ٣٣٨.ط. الرباط ١٩٤٦م.
(6) أنظر ص ١٤٥. على هامش الديباج لابن فرحون.ط. القاهرة ١٣٥١ هـ.
(7) أنظر صفحات ٢٢ ــ ٢٣ ــ ٢٤. ط. القاهرة ١٩٥١م
(8) أنظر ص ١١١٣ في ط. بيروت ١٩٦١م.

كتب حديثة في الجيولوجيا

أحمد عبد القادر المهندس
أستاذ مساعد في كلية العلوم
جامعة الملك سعود

جيولوجيا الأردن : صخوره، تراكيبه، معادنه ومياهه/عبد القادر عابد ـــ عمان : مكتبة النهضة الاسلامية، ١٩٨٢م.

هذا أول كتاب باللغة العربية عن جيولوجية الأردن. ويحتوي الكتاب على مراجعة شاملة وحديثة للكتب الانجليزية التي صدرت عن جيولوجية الأردن مثل كتاب كوتيل وبردن (١٩٥٩م) وكتاب بندر (١٩٧٤م) كما أن الكتاب يضم مراجعة وتلخيصاً للأبحاث والدراسات التي أجريت بعد عام ١٩٧٤م.

ومؤلف الكتاب هو الدكتور عبد القادر عابد أستاذ مشارك في علم الرسوبيات بالجامعة الأردنية، وقد عمل أيضاً في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ما بين عامي ١٩٧٤ ـــ ١٩٧٦ م، وقد نشر العديد من الأبحاث المتعلقة بجيولوجية الأردن.

يقع الكتاب في ٢٣٢ صفحة من القطع المتوسط وهو مقسم إلى ثلاثة أجزاء في ثمانية فصول. ويضم الجزء الأول ستراتجرافية الأردن ويضم هذا الجزء خمسة فصول، والجزء الثاني يدرس التراكيب الجيولوجية في الأردن، ويبحث الجزء الثالث في الموارد المعدنية والمائية.

وفيما يلي نعرض للكتاب بشكل موجز لابراز أهم ما جاء فيه:

يضم الفصل الأول ما يتعلق بحقب ما قبل الكاميرلي Pre Cambrian ويعرف كلمة درع وخاصة الدرع العربي ـــ النوبي وأنواع صخوره، بالاضافة إلى النظريات المتعلقة بنشأته، وقد وصف أنواع صخور الدرع العربي في الأردن وتتابعها حسب أعمارها. ويضم الفصل الثاني عرضاً لحقب الحياة القديمة في الأردن كما يبين بيئات الترسيب وسحنات الصخور ويلخص في جدول ٢ ـــ ١ مقارنة طبقية لحقب الحياة القديمة.

ويتبع المؤلف في تقسيم هذه الحقب أسماء التكوينات والتي تطابق أسماء السحنات الصخرية التي وضعها بندر (١٩٧٤م) والمأخوذة من أسماء أماكن معروفة لتلك الوحدات الصخرية.

وفي الفصل الثالث يدرس المؤلف حقب الحياة المتوسطة في الأردن ويقدم دراسة تفصيلية لعصوره المختلفة من حيث أنواع وسماكة تلك الصخور وبيئات ترسيبها وأحافيرها. ويتناول المؤلف بشكل مركز صخور رمل الكرنب (الحظيرة) ويدرس هذه الصخور من خلال الدراسات والأبحاث التي أعدها هو وكذلك بعض الجيولوجيين الأردنيين وخاصة ما يتعلق ببيئات ترسيبها وسحناتها.

وفي الفصل الرابع يعرض المؤلف لحقب الحياة الحديثة ويقسم هذه الحقبة إلى عصرين هما العصر الثلاثي والعصر الرباعي.

وفي الفصل الخامس يستعرض المؤلف الصخور البركانية في حقب الحياة الحديثة في الأردن بشكل جيد وخاصة من حيث التحاليل الكيميائية.

وفي الفصل السادس من الجزء الثاني يستعرض المؤلف التراكيب الجيولوجية في الأردن، ويذكر أنواع الصدوع وبعض أنواع الطيات وأماكن وجودها وأقسامها، كما يتعرض لموضوع هام في التركيب الجيولوجي للأردن وهو غور الأردن ـــ وادي عربة، حيث يضم هذا الجزء أهم التراكيب الجيولوجية وأعقدها في المنطقة، وهو جزء من حفرة الانهدام التي تمتد من انهدام شرق أفريقيا مارة بخليج عدن والبحر الأحمر ثم تمتد شمالاً للأردن وسهل البقاع وسهل الغاب إلى أن تنتهي في جنوب تركيا بامتداد يبلغ قدره حوالى ستة آلاف كيلومتر. يتحدث المؤلف عن نشأة الغور والنظريات التي وضعت لتفسيرها، وذكر أن هناك نظريتين لتفسير حدوث هذا الانهدام: الأولى نظرية الحركة العمودية والثانية نظرية الحركة الأفقية وقد أيد كل نظرية بالأدلة التي جاء بها الجيولوجيون الذين درسوا هذه المنطقة. وتحدث المؤلف عن نشأة البحر الأحمر وخلجانه وعلاقة الصفيحة العربية بصفيحة الأناضول.

أما الفصل الثالث من الجزء الثالث فيتحدث فيه المؤلف عن الموارد المعدنية ويقسمها إلى خامات فلزية ولا فلزية ومواد هيدروكربونية. وتشمل الخامات الفلزية النحاس والمنجنيز والحديد واليورانيوم (في الفوسفات). أما الخامات اللافلزية فتشمل الفوسفات والروتايل والرمل الزجاجي والجبس والكاولين والبنتونايت والفلسبار والكبريت والمعادن الكريمة وأكاسيد الحديد والمنجنيز الأرضية والعنبر وأملاح البحر الميت وحجارة البناء وأنواعها بالاضافة إلى الرخام والترافرتاين. وتشمل المواد الهيدركربونية القطران والرمال القطرانية والبترول والغاز الطبيعي والصخور الزيتية. وقد تحدث المؤلف عن جميع الخامات بشكل تفصيلي وذكر النسب المئوية لعناصرها واحتياطياتها مع الإشارة إلى الأبحاث الحديثة التي اجريت على هذه الخامات في الأردن.

ويتضمن الفصل الثامن على دراسة الموارد المائية في الأردن حيث قسمها إلى مياه سطحية وجوفية بالاضافة إلى الينابيع الحارة والمياه المعدنية.

ويحتوي كتاب جيولوجيا الأردن على قائمة مراجع تضم أكثر من تسعين بحثاً ودراسة وكتاب بالاضافة إلى الخرائط والجداول والرسوم التوضيحية. والكتاب يعد مرجعاً جيداً لجيولوجية الأردن ينبغي أن يحرص على اقتنائه كل جيولوجي عربي.

موارد المياه الأرضية : البحث والتنمية

Groundwater Resources : Investigation and Development By : S. Mandel & Z.L. Shiftan Academic Press 1981, **299 pp.**,

يقدم هذا الكتاب دراسة جيدة حول تطوير وتنمية موارد المياه الأرضية في مناطق لا يوجد عنها إلا القليل من المعلومات.

ويعطي الكتاب للقارىء فكرة عن كيفية الحصول على المعلومات المطلوبة لكل خطوة من خطوات تنمية وتطوير الموارد المائية بدون تأخير، كما يعطي الكتاب فكرة عن كيفية وضع المعايير البسيطة لاستغلال هذه الموارد بطريقة مناسبة.

وفيما يلي محتويات الكتاب :

ويحتوي كل فصل من الكتاب على مراجع وافية لمن يرغب في مزيد من التفاصيل.

الأرض ذات الموارد

The Resourceful Earth : A Response to Global 2000 Edited by J.L. Simon and H. Kahn., John WILEY & Sons. 1984, 600 pp.

يعد هذا الكتاب إجابة علمية وتحدياً علمياً لتقرير العالم سنة ٢٠٠٠ الذي قدمه عدد من العلماء لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية وكذلك على تقرير نادي روما الذي صدر قبله.

وقد وضع هذا الكتاب «الأرض ذات الموارد» مجموعة من الخبراء العالميين. وقد اثبت هؤلاء الخبراء أن العالم سيكون أقل ازدحاماً، وأقل تلوثاً وأكثر ثباتاً من الناحية البيئية واقل تعرضاً لنقص المصادر والغذاء عما هو عليه الآن. وسيكون الناس أكثر ثراء عما هم عليه اليوم. وأن الحياة ستكون أكثر راحة في المستقبل، وسيزداد معدل الأعمار، كما ستزداد مصادر الغذاء والأسماك بشكل أكثر وأسرع من تزايد عدد السكان.

أما الماء العذب فهو كاف للاستهلاك البشري. وسيكون المناخ أكثر استقراراً وأقل اضطراباً. وستصبح الموارد المعدنية كثيرة وكافية لاستهلاك الصناعة. وسينخفض سعر البترول وستكون الطاقة النووية أقل كلفة وأقل خطراً من البترول أو الفحم.

ومع هذا فان كتاب «الأرض ذات الموارد» لا يؤكد بأن المستقبل سيكون مشرقاً لجميع الناس، فستكون هناك مشكلات محلية كثيرة وسيذهب كثير من الأطفال إلى النوم وهم يتضورون جوعاً وبعضهم سيعانون من المرض. ولكن الكتاب يؤكد بأن البيئة ستكون أكثر ملاءمة لحياة الانسان بدلاً من تدهورها كما تؤكد التقارير السابقة وأهمها تقرير العالم سنة ٢٠٠٠ وتقرير نادي روما.